

# الدليل على النصر

أثبات نصيحة ندوية



الدكتور محمد جمال صقر  
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة



# مَكْتَبَةُ لِسَارِ الْعَرَبِ

رفع أ. علاء الدين شوقي أسكنه الله الفردوس

إِذَا صَحَّ النَّصُّ  
أَبْحَاثٌ نُصِيبَتْ فَهُونَةٌ

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ جَمِيعُ الْأَفْوَقِ مَحْفُظَةٌ

الطبعة الأولى  
عام ١٤٢٧ - ٢٠٠٧

رقم الإيداع: ٢٠٠٧ / ١٨٧١٢

التَّابِعُ  
مُوَسَّسَةُ الْعَالَيَا  
لِلنَّشْرِ وَالتَّوزِيعِ

٤٦ ش.البستان، عابدين، القاهرة

ص.ب ٢٣٢ الرمز البريدي: ١١٥١١

تلفاكس: ٣٩٦٢٣٤٦

E-mail: elalyapublisher@yahoo.com

# **إِذَا صَمَ النَّصْ**

## **أَبْدَاثُ نَطِيَّةٍ نَّدْوَيَّةٍ**

الدكتور محمد جمال صقر  
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

مُوَسِّسُ الْعَلَيْبِرْجِ



بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

بِسْمِ اللّٰهِ  
سُبْحَانَهُ، وَتَعَالٰى! - وَبِحَمْدِهِ،  
وَصَلَوةً عَلٰى رَسُولِهِ وَسَلَامًا،  
وَرِضْوَانًا عَلٰى صَحَابَتِهِ وَتَابِعِيهِمْ،  
حَتّى نَلْقَاهُمْ!



## مُقدمة

أشأت مولئما بنصوص الكلام العربي: الشعرية، والثرية، والقرائية، أتذوقها، وأحفظها، وأؤديها. ثم لما تخصصت لتعلم نحو الكلام العربي، وعلمه، وتلبيمه، لم يكن في وسعي إلا أن أجري مجرى أساتذتي المولعين مثل بذلك؛ فأشتغل من أي نص بمكونات الجملة الواحدة التي أفضت في بيانها كتب علم النحو، أو بروابط الجملتين الاثنين التي أفضت في بيانها كتب علم المعاني، وأظن أن في ذلك كفاية التعبير عن طبيعة وجود النص النحوي!

واهتدت في خلال ذلك إلى كتب شرح الكلام العربي، ثم اشتغلت منها بصفات العلاقات النحوية المختلفة، ثم احفظت بها إلى تأمل ما وراء الجملة والجملتين من النص، حتى إذا ما كررت الباحثين مقالات علم نحو النص، ألفَ بياني وبينها أنها «بساعتنا ردّت إلينا»!

هي رحلة مستمرة إلى النص المستمر، أحسن بعد كل مرحلة من مراحلها، بمثل ما كان فرطنا على حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم! - يحس به بعد كل مرحلة من مراحل رحلته إليه؛ فيقول - رضي الله عنه - عبارته الخالدة الضابطة: «إذا صَحَّ الحديثُ فَهُوَ مَذْهِبِي»!

كأني به يطلب الحديث مرة بعد مرة، كلما تغيرت الحياة مرة بعد مرة؛ فسرقت منه «إذا صَحَّ الحديثُ»، ووضعت «النَّقْنَ» موضع «الْحَدِيثِ»!

هي رحلة ذات مراحل؛ كل مرحلة مقام، ومقاماتها ذات أبحاث؛ كل بحث مزاجان: علمي يتقدم به، وفني يخami عنه؛ فلا يعني بحث عن بحث! وكتب بروضة مصر العتيقة، محمد جمال صقر

في ٨/١٢/١٤٢٦هـ

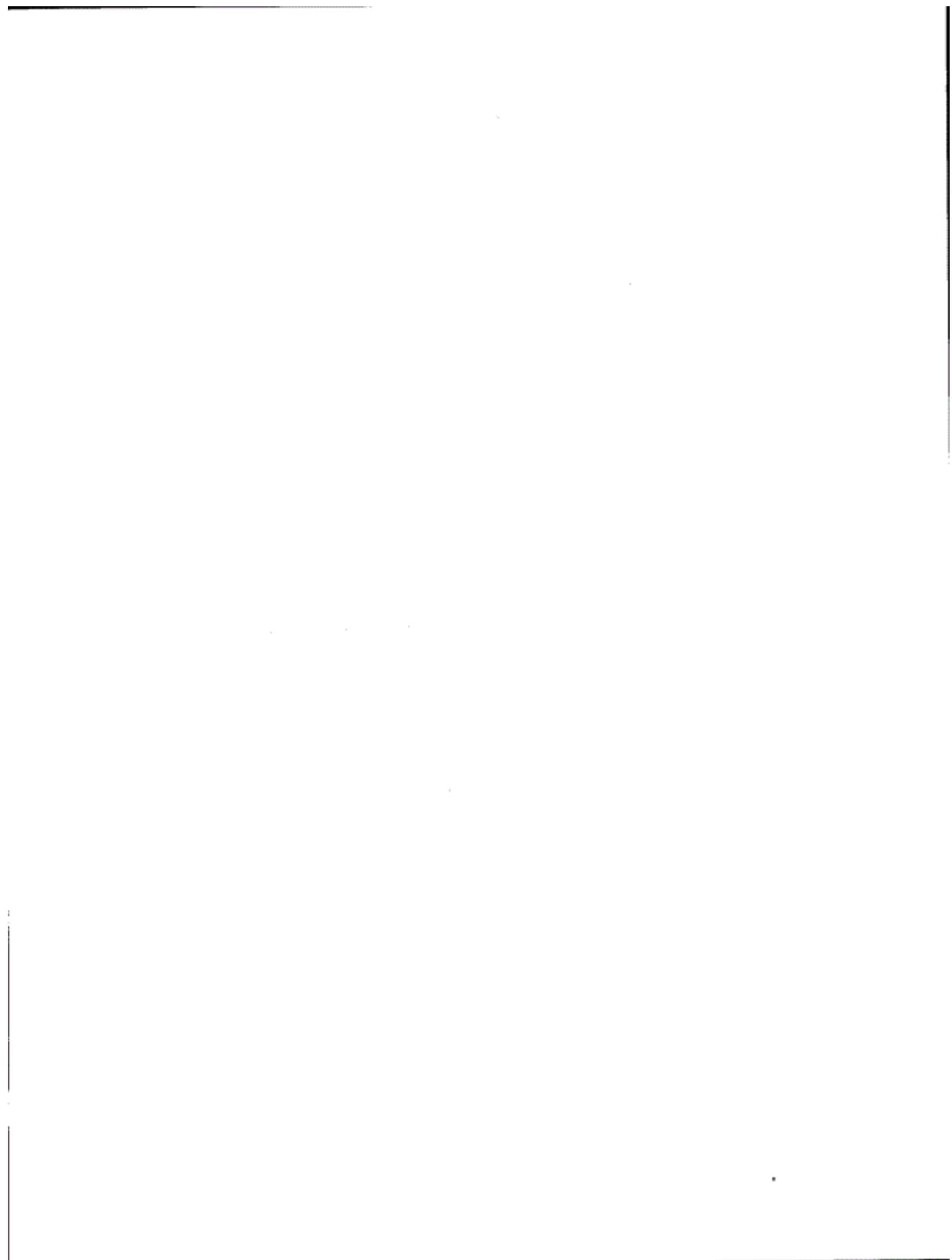
[mogasaqr@yahoo.com](mailto:mogasaqr@yahoo.com)



# الفَصْلُ الْأَوَّلُ

رِعَايَةُ النَّحْوِ الْعَرَبِيِّ

لِعُرُوبَةِ أَطْوَارِ اللُّغَةِ وَالْتَّفْكِيرِ



## مقدمة

### خلفاء أحوال اللغة على صاحبها:

[١] تبدو اللغة للمتأمل، على مثل ما يبدوه صاحبها: تتطور وتتجدد، و تستقيم و تتعرج، وتقوى وتضعف، وتُضيّع وتغمض، و تحسن وتقيّع، وهكذا طورا على طور؛ فلا ينشط لشخضيٍّ مقالة الناقد الغربي التي صارت مثلاً عالمياً «الأسلوب هو الرجل نفسه». وأعجب من أحوالها تلك كلها، أن صاحبها يكاد لا يراها حتى يتباهى غيره إليها، كما يكاد لا يرى نفسه وإن نظر في مرآته، حتى ينظر في مرآة غيره!

### فضل عمل ستكميفيش:

[٢] ولقد تأمل اللغة العربية من كثب وعرف دون غيره كثيراً، جارو سلاف ستكميفيش الأستاذ الجامعي اليوغولي الأمريكي المعاصر، الذي طوف في بلادنا من شرقها إلى غربها أستاذًا زائراً؛ فدرس تطور اللغة العربية الألفاظاً وتعابيرها، وتطور التفكير اللغوي عند العرب في العصر الحديث، وجهاد رجال النهضة أدباء وعلماء، لتحديث العربية وجعلها وافية بمقتضى الحياة؛ فبحث لذلك مسائل القياس والنحو وتربي الألفاظ والتعابير وتطور الدلالة وتيسير النحو، ثم انتهى إلى أن «العربية الحديثة تبتعد الآن عن اللغتين كليهما الفصحى والعامية؛ في بينما تحفظ بالبناء الصرفى للغة الفصحى، تقترب من حيث التركيب النحوى والأسلوبى في الشكل والروح من عائلة اللغات التي تعبّر عن الثقافة الغربية، وهذا مشروط بأن تمضى العربية المعاصرة في هذا الطريق إلى مداه، وربما لا يمضي جيلان أو ثلاثة حتى تصبح عضواً متكاملاً في عائلة الثقافة الغربية، وحيث تسهم بدور كامل في هذه الجماعة اللغوية الحديثة المشتركة. وسوف ينضم النحو - عندئذ - لتغيرات بعيدة الأثر فرضتها عليه ديناميكية الفكر الغربي. إن أنماط الجملة الفعلية والاسمية لن تكون خواص النحوية الأساسية، وبدلًا من ذلك سوف يكون مفهوم النبر الدلالي حاكماً لترتيب عناصر الجملة. وسوف يتطلب هذا تغييرًا طبيعياً في الاتجاه من الجلتب الشكلي القواعدي إلى الجلتب الأسلوبى الديناميكى. إن الجملة العربية سوف تصبح أغنى بالجمل التابعة وسوف يصبح نظامها وترتيب عناصرها مرتنا كالعادات الفكرية الحديثة. ومن الملاحظ أن هناك اتجاهًا واضحًا للابتعاد عن البساطة التركية. إن النماذج الأسلوبية التي قدمها طه حسين وجبله هي من الوضوح والبساطة بحيث كثُر استخدامها حتى بين كتاب وشعراء هذه الأيام، ومن

ذلك فإن الاتجاه إلى تعقيد جديد لن يعود بنا إلى النهاذج القديمة، إن النهاذج الجديدة المستمدة من المصادر الخارجية والناجمة عن الانصال الثقافي واللغوي سوف تأخذ مكانها... الواقع أن التطورات الثانوية - التي ستكون نتائج لاقتراب المصطلحات - سوف تظهر - وبطريقة طبيعية ويسهلة ويسر - المخزون الأساسي للتغيرات الحديثة أو قولهات التغيير الحديثة. إن محاكاة الأسلوبات العربية سوف يتبعه سلسلة من المشتقات الأسلوبية الفعالة، والتي سوف تبدو أصلية في إطار الروح الجديدة للغة. إن مستقبل اللغة العربية لن يكون في حلول مصطنعة بين المصادرين الأساسيين للغة: الفصحى والعامية والتي تعمل كل واحدة منها ضد الأخرى، ولكن سيكون هذا المستقبل في خط مستقيم للتطور غير بعيد عن الصرف السامي القديم متوجهاً إلى نحو غير سامي تفرضه عادات التفكير أكثر مما تفرضه عادات الحديث اليومي الحي. وعندئذ فحسب، سيكون العرب - بامتلاكم لغة يفكرون بها - قادرين على التغلب على مشكلة الصراع بين الفصحى والعامية. إن الفصحى التقليدية كانت - وسوف تكون - عاجزة عن مواجهة العوامل لأنها لا تعكس العادات الفكرية للذين يستخدمونها. إن العربية الحديثة التي نحاول تحديدها وتعريفها هنا سوف تصبح لغة للفكر المتتطور تماماً، وسوف تكون مثالاً للحيوية والقدرة، وسوف تحمل ملء اللهجات المنطرقة دون أن تطمسها طمساً مصطنعاً».<sup>(١)</sup>

### أفكار ستكتيفتش الشانية الخطيرة:

[٢] لقد أفضى به تأمله إلى إثبات اقتراب اللغة العربية من عائلة لغات الثقافة الغربية؛ فنطروح ببيان ما ينبغي للغة العربية - والمراد العرب - أن تصطagne بتحولها، لتتصبح عضواً عاملاً مؤثراً في تلك العائلة؛ فزادنا إيماناً بمكانة النحو من لغتنا، ومسكاً بخصائص العروبة فيه.

وربما اعتذر عن طول النص الأنف إبراده، أفكاره الكثيرة الخطيرة، التي خشيت أن أجور عليها أيّ جور، وأرجو أن أستخلصها فيها يأتي بضمير الشأن الخطير:  
**الفكرة الأولى:** أنه ليست للعرب الآن لغة يفكرون بها. أما العافية فلغة عادات الحديثة اليومي الحي، وأما الفصحى التقليدية فلا هي بهذه المزللة ولا هي لغة عادات تفكير من يستخدمونها.

**الفكرة الثانية:** أنه توشك أن تولد بعيداً عن الفصحى التقليدية والعافية المتضادتين، عربية فصحى حديثة تتسم بتطورها النحوي إلى عائلة اللغات الغربية الثقافة.

**الفكرة الثالثة:** أنه تعتمد صيغة العربية الفصحى الحديثة الوليدة، عضواً عاملاً مؤثراً في الثقافة اللغوية الغربية، على بلوغ تطورها النحوي مداه.

**الفكرة الرابعة:** أنه تقضي (динамиکیة) الفكر الغربي، نحو العربية الفصحى الحديثة الوليدة، أن يتخذ النبر الدلالي معياراً لترتيب عناصر جمله، فيتجه من الجانب الشكلي (القواعدي) في العربية الفصحى التقليدية، إلى الجانب الأسلوبي (الديناميکي) في عائلة اللغات الغربية الثقافية.

**الفكرة الخامسة:** أنه يغفي ذلك متى تم، إلى غنى الجملة العربية بالجمل التابعة، وصيغة نظامها وترتيب عناصرها، على مثل مرونة العادات الفكرية الحديثة الغربية.

**الفكرة السادسة:** أنه تقضي عاكمة الأساليب (التعابير) الغربية العربية، إلى سلسلة من المشتقات الأسلوبية (التعبرية) الفعالة، تبدو أصلية في إطار الروح اللغوية الحديثة الوليدة.

**الفكرة السابعة:** أنه ينبع الأسلوب الغربي السهل المعرف الحديث الوليد متمثلاً في أسلوب طه حسين وجيله، بين من ثلاثة من الكتاب والشعراء.

**الفكرة الثامنة الأخيرة:** أنه على رغم اتجاه بعض الأساليب إلى التعقيد، لن تعود العربية الفصحى الحديثة الوليدة، إلى العربية الفصحى القديمة التقليدية. بعض هذه الأفكار كما لا يخفى، من المؤثرات الغربية<sup>(٤)</sup>، ولكن جذة أكثرها ودقةً علميةً فيها، حافزان كافيان إلى تقليلها على وجهها، وإدامة النظر فيها، ومراعاتها فيما يأتي، بمسائل البحث، دونها تقليل منها أو من صاحبها؛ وإن لم نكن جديرين بالحياة التي تعلقنا بها، ولا بالحضارنة التي تعلقت بنا

## المَسْأَلَةُ الْأُولَى: الْلُّغَةُ وَالتَّفْكِيرُ

((اللغة أداة)):

[٤] تروج فتجوز لدينا أفكار ضعيفة؛ إذ نحن أسرع إلى قبول الحكم، مما إلى مكابدة تحسين الحقيقة. من ذلك أن اللغة أداة، على اختلاف ما هي أداته، من التفاهم إلى التواصل، ومن التفكير إلى التعبير؛ فإن الأداة في لسان العرب آلة المحترف التي تقييم له حرفيته<sup>(٥)</sup>. إنه إذا كانت الكتابة أداة الكاتب التي تقييد له في بياض الصفحات سواد الكلمات الكائنة لديه آنفًا، فإن عجز استبدل بها أخرى قادرة، كتسجيل الصوت مثلاً - كان التفاهم والتواصل والتفكير والتعبير، أولاً، فإن عجزت اللغة التي تؤديها استبدل بها مستعملها أخرى قادرة!

قال الدكتور طه حسين: «نزعنا أن لنا في هذه اللغة التي نتكلّمها ونتحذّلها أداة للفهم والإدراك، حظاً يجعلها ملكاً لنا»<sup>(٣)</sup>. وأتني على رغم قول أستاذنا محمود محمد شاكر - رحمة الله - : «اللغة أداة التفكير، أداة البيان، لا يكاد أحد يرتاب في أن هذا حق، وأنه واضح شديد الوضوح»<sup>(٤)</sup> - أرتاب في أن هذا واضح شديد الوضوح، وأتمنى أن مجلسه المورود جديداً، ليوضحه لي؛ فلابد أن للأداة عنده معنى غير ذلك<sup>(٥)</sup>، ربما وضحته قليلاً الدكتور مصطفى ناصف، برؤيته اللغة أداة النمو الإنساني المتميز كلّه، وتحظّيه لرؤية بعض الدارسين أو المدرسين، لها نظام إشارات تنبهية إلى تكوين الصور التخيّلة<sup>(٦)</sup>. وربما زاد ذلك، الدكتور محمد عابد الجابري، برؤيته «أن اللغة ليست مجرد أداة الفكر، بل هي أيضاً القالب الذي يتشكل فيه الفكر»<sup>(٧)</sup>، وإن لم يفر من (الأداة) وهي عامة، إلا إلى (ال قالب ) وهو أداة خاصة. ثم هو قد ترك كلمة (تفكير) إلى كلمة (فَكْر)، وبينهما فرق لطيف لم يدركه بعض الباحثين<sup>(٨)</sup>.

### الفَكْرُ والتَّفْكِيرُ والفِكْرُ:

[٥] إن (الفَكْر) في لسان العرب، نتيجة (الفَكْر) الذي هو إعمال الخاطر في الشيء، وهو الحدث الذي مع الزمن في (فَكَر يَفْكِر)، وإن (التفكير) كثرة (الفَكْر)<sup>(٩)</sup>، وربما غالب استعمال صيغة التفعيل لكثرته هذا الحدث وتتعلق حياة الإنسان به، قال دي يونو: «(التفكير) هو التقسي المدروس للخبرة من أجل غرض ما. وقد يكون ذلك الغرض هو الفهم، أو اتخاذ القرار، أو التخطيط، أو حل المشكلات، أو الحكم على الأشياء، أو القيام بعمل ما، وهلم جرا»<sup>(١٠)</sup>.

ولأنها فهمت معنى النتيجة من كون (الفَكْر) اسم المصدر (فَكْر). وقد حررت من لسان العرب، أن هذا النوع من اسم المصدر عبارة عن نتيجة إحداث المصدر، مثل: (يُجْعَل) المتوج عن (يَخْتَلُ) الذي (يَخْتَلُ) مبالغته، ومثل: (يُمْلِء) المتوج عن (يَمْلِأ) الذي (يَمْلِأ) مبالغته، صياغة واردة وإن لم تطرد.

(الفِكْر) إذن ثمرة (التفكير)؛ ولذا ينظر فيه الفلاسفة، فأما (التفكير) فينظر فيه النفسيون واللغويون والتقنيون. إن العالم - مهما يكن علمه - إذا تأمل أصول علمه واهتدى إلى حكمتها، كان فيلسوفاً اهتدى إلى فلسفة، ولو بلغ كل عالم في علمه بهذا المبلغ، لاستغني عن الفيلسوف، ولو اشتمل كل علم في نفسه على ذلك، لاستغني عن الفلسفة.

## **الفلاسفة وعلاقة اللغة بالتفكير:**

[٦] لقد تأمل عثار تنهض العرب الحديثة، فيلسوفان عربيان معروقان: أما الدكتور زكي نجيب محمود فكتب مقالاته التي جمعها بعدها في كتابه «تجديد الفكر العربي»، منها إلى حاجة الحياة الجديدة إلى فكر جديد، جاعلاً اللغة العربية أكبر منه، حافزاً فيها عن أصول الفكر العربي<sup>(٣)</sup>. وهو الذي رد في كتاب آخر، زعم بعض الناس أن في نفسه معنى لا يستطيع التعبير عنه، بأن ليس فيها من شيء إلا الوهم! وربط اضطراب العبارة باضطراب الفكر، وضرورة ضبط العبارة بضرورة ضبط الفكر<sup>(٤)</sup>.

وأما الدكتور محمد عابد الجابري فكتب مقالاته التي جمعها في كتبه الثلاثة ذات الإطار الواحد («نقد العقل العربي»، أي «التفكير»، وتأمل أو لا تكوين العقل (التفكير) العربي، داعياً إلى التحرر من الميت أو المتخلب في كياننا العقلي (الفكري)، فسحّا للحياة أن تستأنف فيينا دورتها وتعيد زرعها، جاعلاً اللغة العربية أول همة قائلة: «سنجد أنفسنا دوماً إزاء عدد أساسي، ولربما حاسم، للعقل العربي من خلال اللغة التي يتسبّب إليها وتتناسب إليه»<sup>(٥)</sup>.

علاقة اللغة بالتفكير الذي هو ثمرة التفكير إذن هي الفلسفة اللازم، وهي لديهم علاقة وثيقة، وليس أدل على ذلك من تسميتهم قانون الفكر الذي يبحث لديهم هو لغة الفلسفة، علم المنطق الذي هو في لسان العرب الكلام<sup>(٦)</sup>.

## **النقسيون اللغويون وعلاقة اللغة بالتفكير:**

[٧] ولقد تغير من علم نفس الكلام (سيكلولوجية اللغة)، علم جعل منه تفكير الكلام وتركيبة وحال المتكلم والمخاطب من هذا وذاك، هو علم النفس اللغوي (علم اللغة النفسي)<sup>(٧)</sup> الذي اتسع في ستينيات القرن العشرين بمبادئ نظرية النحو التوليدية، ليدرس ظاهرة الكلام (السلوك اللغوي): كيف تنشأ وكيف تدرك؟<sup>(٨)</sup> فكان من مسائل هذا العلم الجديد علاقة اللغة بالتفكير<sup>(٩)</sup>.

بنظر النفسيين اللغويين (اللغويين النفسيين) في هذه المسألة، وضحت ثلاثة اتجاهات: واحد رأى اللغة والتفكير شيئاً واحداً، وثان رأى شيئاً متصلين، وثالث رأى شيئاً متصلين اتصالاً وثيقاً من حيث الفاظ اللغة أنكاراً صورية أو مجردة، وترافقاً في اللغة اتجاهات عامة وأساليب تفكيرية. ومن أصحاب هذا الاتجاه الثالث الأخير من رأى التفكير أقوى تأثيراً في اللغة منها فيه، ومنهم من رأى اللغة أقوى تأثيراً في التفكير منه

فيها، ومنهم من رأى كلاً منها مثل الآخر تأثيراً وتأثراً وافتقاراً. وهذا الفرع الأخير من الاتجاه الأخير، أحظى بقبول المعاصرين وأشيع فيهم من سوادٍ.<sup>٣٠</sup> ولقد استطرد نظرهم إلى بحث اضطراب التفكير. وعلى رغم دلالة الاختبارات الأدائية (التي تعتمد على الأداء البدوي أو معاملة الصور أو غير ذلك) على مبلغ اضطراب التفكير، رأوها أقل أهمية من دلالة اضطراب اللغة، وانتهوا إلى أنها مضطربين مثلهما متزنين، متصلان اتصالاً وثيقاً، حتى لقد عجزوا عن تمييز البادئ منها من المبدوع، طامعين إلى زيادة بحث المسألة.<sup>٣١</sup>

علاقة اللغة بالتفكير الذي يتعجب الفكر إذن من هموم النفسين اللغويين (اللغويين النفسيين)، التي اتضحت منها ارتباط علم اللغة بعلم النفس، وهي لديهم علاقة وثيقة.<sup>٣٢</sup>

### **التّقْنِيُونَ وَعَلَاقَةُ الْلُّغَةِ بِالتَّفْكِيرِ:**

[٨] أما التقنيون علماء هندسة المعرفة والذكاء الاصطناعي، فأحلامهم التي حققوا بعضها، قائمة على الإيمان بأفكار بعض فلاسفة اللغة أمثال فيتجينشتين الذي رد القول بأدوية اللغة، ورأها هي العالم، وحفظ لهم بمثل قوله: «كل ما يمكن أن يقال يمكن أن يقال بوضوح»، إلى تفتيت كل كيان معرفي إلى عدد محدود من العناصر الذرية، يمكن أن تبني منه كل الأشكال المعقولة للبني المعرفية وألياتها.<sup>٣٣</sup>

### **فُدَمَاؤُنَا وَعَلَاقَةُ الْلُّغَةِ بِالتَّفْكِيرِ:**

[٩] وعلى رغم تهاويل ما تقدم، تبرز قضية علاقة اللفظ بالمعنى التي شغلت من قديم إلى حديث، علماء لغتنا حتى قالوا بالتحليل، ونقاد أدبنا حتى قالوا بالنظم - عالمةً على أصالة وعي علاقة اللغة بالتفكير، في ثقافتنا العربية<sup>٣٤</sup>، التي من استوعبها نظراً وعملاً، رأى اللغة ملائكة التفكير وملائكة اللغة، وقول القائل: قلتُ، وقوله: فكنتُ، سواء، ولم يصرفه عن ذلك، حال الصم البكم، الذين يفكرون ولا يتكلمون؛ إذ هم يتعلمون اللغة من أهلهم كما يتعلموها غيرهم، ولا شيء إلا أنهم يرتكبونها من كلمات الأصابع؛ فإن أهلهم يعلموهم بالإشارة المعنى (الكلمة) والفكريّة (الجملة) والفكّرة (الفقرة) والقضية (النّصّ)، على النحو الذي يعيشون ويعايشونهم به. ولم نعرف بعد البلد الذي أهلهم صم بكم!

### **دلالات فكرة ستكيفيتش الأولى:**

- [١٠] لا تخرج دلالة الفكرة الأولى السابق استباطها من نص ستكيفيتش في الفقرة الثالثة، عن أن تكون إحدى ثلات:  
 أن ليست اللغة غير أداة، ويمكن للتفكير الاستغناء بغيرها عنها، وهو ما عليه العرب الآن.  
 أن لا تفكير دون لغة، وبعدم اللغة ينعدم التفكير، وهو ما عليه العرب الآن.  
 أن لا تفكير متزنا بلغة مضطربة، وباضطراب اللغة يضطرب التفكير، وهو ما عليه العرب الآن.

### **نقد الدلالة الأولى:**

- [١١] فضلاً عن شياع وعي علاقة اللغة بالتفكير، السابق بيانه، يزيف قصد الدلالة الأولى عدم اشتغال ستكيفيتش ببيان الأداة المستغني بها التفكير عن اللغة، بل قد اشتغل بعكس ذلك مما يأتي طرف منه في أثناء هذا البحث.

### **نقد الدلالة الثانية:**

- [١٢] ولما كان وجود الإنسان مشروعاً في الثقافة الغربية الحديثة، بكونه مفكرا، أي «قادراً من خلال ملكة اللغة على عمارسة التحليل المنطقي والرياضي واكتساب المعرفة وتوظيفها لتوليد معارف جديدة»<sup>(٣)</sup> - تفخي الدلالة الثانية بما سبق، إلى دلالة أخرى محتممة: أن لا عرب الآن، أو هُمْ كما قيل وهم، والوهم كما سبق في الفقرة السادسة، لا لغة له!

إنه على رغم جنون هذه الدعوى، من التغافل عن مقتضى شواهد كثيرة مختلفة أن في العالم الآن - منها تكن الأحوال والأهواء - عربا، وأن في العالم الآن - من ثم - لغة وتفكيرًا عربين، واستحسان أهلنا لنا أن تغافل عنها قائلين: «إذا كان المتكلم جنونًا فال المستمع عاقل» - يحملنا على تصديق قصد دلالة الدلالة الثانية، ما صرّح لدينا على الزمان، عن الحضارة الغربية - وهو آفتها - من أنها لا ترى إلا نفسها؛ فلا حياة إلا باعتناق مبادئها، ولا سيادة إلا باعتماد طرائقها، وكان ما كان قبلها من حضارات وما يكون، حديث خرافات<sup>(٤)</sup>.

### نقد الدلالة الثالثة:

[١٣] ينبغي لمن يدافع عن القلم، أن يتحرى العذر؛ فما يتجاوز إلى الدلالة الثالثة الأخيرة المحتملة، بل أورد قول الجابري وكأنه يفضلها: المثقف الذي يتكلم بالضرورة لغة عامة هي «أغنى» بكثير من العربية الفصحى في مجال الأشياء الحضارية لكونها تقتبس أسماءها من لغات أخرى مع بعض «التكلسir» - لا يستطيع التعامل بها فكريًا. إن العافية رغم غناها «التكنولوجي» الحضاري لا تتوفر على الأدوات والآليات الضرورية للتفكير، فهي ليست لغة ثقافة وفكر. ومن هنا فقرها المدقع رغم غناها الظاهري. والنتيجة هي أن المثقف العربي سواء كان طالبًا أو أستاذًا يعيش عالمين كلاهما باهض: عالم لغته العافية وعالم اللغة الفصحى. أما الأمي العربي - وهو الذي يشكل الأغلبية - فهو مسجون في عافيته يتعامل مع أشياء لا يسميهما، وإذا فعل سماها بأسماء أجنبية مع بعض «التكلسir» الضروري الذي لا يشك في أنه يترك أثره العميق في عقله، في بنائه الفكرية. أما ذلك العربي الذي يعرف لغة أجنبية واحدة أو أكثر فهو يعيش ثلاثة عوالم مختلفة: إنه «ملك» ثلاثة تصورات (للعالم): يفكر بلغة أجنبية، ويكتب بلغة عربية فصحى، ويتحدث في البيت والشارع، بل وفي الجامعة؛ باللغة العافية.<sup>٣٧</sup>

كيف يستقيم للعرب الآن تفكير، وهم يعيشون بهجتهم الحياة الحديثة، ويفكررون بلغتهم التفكير القديم؟ إنها مشكلة اضطراب لغوي تفكيري تؤديه فكرة ستكميفيشن الثانية السابقة في الفقرة الثالثة نفسها، لا مشكلة لغة وتفكير مضطربين. هذا أحسن ما تُحمل عليه دلالة فكرته الأولى، لولا العجب من المفكر بلغة غير العربية الذي ذكره الجابري: كيف يكون عربيًا؟

أما انقسام اللغة إلى نمطين: مُبتدئ مستهلك في شؤون الحياة اليومية العادية، ومنتفع مصون لشؤون الحياة المقلالية الغير العادية - تختلف المسافة بينها ما اختلفت الثقافات وما اختلف الليل والنهار، فأمر صحيح، فيه التكامل الطبيعي، وليس فيه اضطراب الذي تشير إليه فكرة ستكميفيشن الأولى، ولا التضاد الذي تبه عليه فكرته الثانية.

لقد فضل الدكتور وافي مشكلة اختلاف لغة الكتابة ولغة الحديث (اللهجة)، بعد أن بين أنه «يقصد بلغة الكتابة أو بلغة الأداب، اللغة التي تدون بها المؤلفات والصحف والمجلات وشئون القضاء والتشريع والإدارة، ويدون بها الإنتاج الفكري على العموم، ويؤلف بها الشعر والثر الفنى، وتستخدم في الخطابة والتدريس والمحاضرات، وفي تفاصيم الخاصة بعضهم مع بعض وفي تفاهمهم مع العامة إذا كانوا بقصد موضوع يمت إلى الأداب والعلوم. ويقصد بلغة الحديث اللغة العافية التي نستخدمها في شؤوننا العادية، ويجري بها حديثنا اليومي»<sup>٣٨</sup> - وحجج فريقين نظرًا في حلها، قال أحدهما: برفع

لهجة الحديث إلى لغة الكتابة، وقال الآخر: بخفض لغة الكتابة إلى لهجة الحديث، ثم رأى هو الحل الأمثل ((أن تدع الأمور تجري في مجاريها الطبيعية؛ فللغة قوانينها وللظواهر الاجتماعية نواميسها التي تسير عليها، ومن ضياع الوقت في غير جدوى أن نحاول تغيير بعري هذه القوانين أو صدتها عن عملها؛ إذ لا نستطيع إلى تغييرها سبيلاً، ولن نجد لستها تبديلاً. على أن اختلاف لغة الكتابة عن لغة الحديث لا ينطوي على شيء من الشذوذ حتى نتلمس علاجًا له. بل إنها السنة الطبيعية في اللغات)).<sup>٣٣</sup>

ولقد ثبت أن إهمال تعليم اللغة القديمة الضخمة الغنى، المنشورة بالجامدة، سياسة تعليمية سيئة<sup>٣٤</sup>، فثبتت جدوى استمرار نظام التفكير القديم الخصب، المنشور بالجامدة على ما في دعوى جمود اللغة والتفكير العربيين من نظر يأتي.

## المَسْأَلَةُ التَّانِيَّةُ: الْجُمُودُ وَالتَّطْوُرُ

### بيان التطور العام:

[١٤] بنى الدكتور رافي كتابه «علم اللغة»، على بابين: نشأة اللغة وحياة اللغة. في هذا الباب الثاني عالج ست قضايا: الأولى: تفرع اللغة إلى لهجات، والثانية: فصائل اللغات، والثالثة: صراع اللغات، والرابعة: التطور اللغوي العام، والخامسة: أصوات اللغة حياتها وتتطورها، والسادسة: الدلالة وتتطورها.

في علاجه القضية الرابعة رجع تطور اللغة إلى عوامل كثيرة، أهمها أربع طوائف: الأولى: انتقال اللغة من السلف إلى الخلف، والثانية: تأثر اللغة بلغة أو لغات أخرى، والثالثة: عوامل اجتماعية ونفسية وجغرافية، كحضارة الأمة ونظمها وعاداتها وتقاليدها وعقائدها وثقافتها واتجاهاتها الفكرية ومناحي وجودها وتوزعها وبيتها الجغرافية، وما إلى ذلك مما رأه يشتراك في أنه من مقومات الحياة الاجتماعية، والرابطة الرابعة الأخيرة: عوامل أدبية مقصودة تمثل فيها تتجه قرائح الناطقين باللغة وما تبذله معاهد التعليم والمجامع اللغوية وما إليها في حمايتها والارتقاء بها.<sup>٣٥</sup>.

### بيان تطور اللغة العربية القديم:

[١٥] وبين الدكتور رافي كتابه «فقه اللغة» الذي عده بمنزلة الجزء الثاني لكتابه السابق، على ستة أبواب: اللغة الأكادية، واللغات الكنعانية، واللغات الآرامية، واللغات اليمنية القديمة، واللغات الحبشية السامية، واللغة العربية.

في هذا الباب الأخير عالج أربع قضايا: الأولى: حياة اللغة العربية، والثانية: عناصر اللغة العربية، والثالثة: كفاية اللغة العربية، والرابعة: صيانة اللغة العربية.

في علاجه القضية الأولى عرض خمس عشرة مسألة: الأولى: شعيبتها ومتزنتها من اللغات السامية، والثانية: نشأتها وأقسامها، والثالثة: العربية البائدة أو عربية التقوش، والرابعة: العربية الباقية كلمة عامة عنها، والخامسة: صراع لهجاتها بعضها مع بعض وتغلب طبقة قريش، والسادسة: القرآن والأدب الجاهلي ومجيئها بلغة قريش، والسابعة: نهضة لغة قريش وعوامل هذه النهضة، والثامنة: أثر القرآن والحديث والإسلام في اللغة العربية، والتاسعة: اللهجات العربية بعد تغلب لغة قريش، والعشرة: احتكاك العربية بأخواتها السامية وغيرها وصراعها معها وأثار ذلك، والحادية عشرة: اللهجات العامية الحديثة عوامل تطورها وصفاتها المشتركة، والثانية عشرة: طوائف اللهجات العامية ومبلغ بعد كل منها عن الفصحى، والثالثة عشرة: لغة الكتابة العربية وتطورها وما استقرت عليه في العصر الحاضر، والرابعة عشرة: بين العامية والفصحي مشكلة اختلاف لغة الكتابة عن لغة الحديث، والخامسة عشرة الأخيرة: اللهجة المالطية<sup>(٣)</sup>.

#### بيان تطور اللغة العربية الحديث:

[١٦] ولقد نبه الدكتور واي على أن لغة الكتابة التي تمثل في جملتها اللغة القرشية التي نزل بها القرآن، قد تطورت على **السُّنَّة** اللغوية العامة، تطولاً كبيراً، وأنه انتابها في العصر الحاضر تطورات جديدة ترجع إلى عوامل كثيرة، أهمها خمسة:

- ١ اقتباس مفردات إفرنجية بعد تعريفها للتعبير عن مخترعات أو آلات حديثة، أو مصطلحات علمية، أو نظريات، أو مبادئ اجتماعية، أو أحزاب سياسية... وهلم جرا.
- ٢ ترجمة كثير من المفردات الإفرنجية الدالة على معانٍ خاصة تتصل بمصطلحات العلوم والفلسفة والأداب... وما إلى ذلك، إلى مفردات عربية كانت تستعمل من قبل في معانٍ عامة، فتجزرت هذه المفردات من معانيها القديمة وأصبحت مقصورة على المدلولات الأصطلاحية.
- ٣ التأثر بأساليب اللغات الإفرنجية ومناهج تعبيرها وطرق استدلالها في المؤلفات العلمية والقصصية والأدبية وفي الصحف والمجلات.
- ٤ اقتباس كثير من أخيلة هذه اللغات وتشبيهاتها وحكمها وأمثالها... وما إلى ذلك.
- ٥ إحياء الأدباء والعلماء لبعض المفردات القديمة المهجورة. فكثيراً ما جلأ الكتاب في البلاد العربية إلى هذه الوسيلة للتعبير عن معانٍ لا يجدون في المفردات المستعملة ما

يعبر عنها تعبيرًا دقيقًا، أو لمجرد الرغبة في الإغراب أو في الترفع عن المفردات التي لاكتها الألسنة كثيراً. وبكثرة الاستعمال بعثت هذه المفردات خلقاً جديداً، وزال ما كان فيها من غرابة، واندمجت في التداول المأثور.<sup>٣٣</sup>

### منزلة اللغة العربية حديثاً من منزلتها قديماً:

[١٧] كل ذلك فقه دقيق وثيق لمنزلة اللغة العربية حديثاً من اللغة العربية قديماً، واللغة العربية قديماً من اللغة العربية حديثاً، وأن هذه وتلك لغة واحدة، وما شئ إلا أحوال الحياة في اللغة التي هي كصاحبها؛ لو جدت ماتت، فلما لم تمت لم تجده، وهو ما أباه ستكتيفيتش فيها استنبطته عنه في الفقرة الثالثة.  
إنه إذا كان انحلال اللغة إلى هجاءات، أهم موضوعات تاريخ سائر اللغات، وأجدرها بالدراسة - فإنبقاء لغتنا عربية على رغم هجاءاتها وعلى رغم أطوارها، أجدر موضوعات تاريخها بالدراسة، وهو ما وعاه الدكتور رافي أتم وهي، على رغم ما دعا إليه غيره<sup>٣٤</sup>.

### أثر الإسلام والقرآن اللغوي التفكيري:

[١٨] لقد زلزل الإسلام العرب لغة وتفكيرها، واستحوذهم عليه بمثل «إن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»<sup>٣٥</sup>، الأصل الباقى المشروح بمثل «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، حيثما وجدها فهو أحق بها»<sup>٣٦</sup>.

إنه لما سب أبو ذر الغفارى - رضي الله عنه - غلامه بأمه قائلاً: «يا ابن السوداء»، قال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «يا أبو ذر، أغيرت به أمه؟ أئنك أمرؤ فيك جاهلية. إخوانكم خَوْلُكُمْ (خدمكم)، جعلهم الله تحييت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه ما يأكل وليلبسه ما يلبس، ولا تتكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعینوهم»<sup>٣٧</sup>، فاتتبه إلى بقية فيه من اللغة والتفكير، جاهلية تعوق إيمانه الجديد، فالقططها وأطرافها<sup>٣٨</sup>.

كان الإسلام فيما يرى مالك بن نبي، انفجاراً لغوياً تفكيراً مباغتاً، على نحو فريد في تاريخ اللغات، انبعثت به اللغة العربية كما انبعثت به الرسول العربي - صلى الله عليه وسلم - مثلاً للثقافة الجديدة والحضارة الوليدة، وأداة أدبها الجملة المنظمة، بعد أن كانت البيت الموزون<sup>٣٩</sup>.

ولولا القرآن الذي وقفت عليه الأعمى والأعمال، ونشأت له واستتبّطت منه وصدرت عنه العلوم والمعارف والخبرات، والأقوال والأفعال والإقرارات - ما كانت عربية، ولنذهب كما ذهبت اللاتينية أو السنكريتية<sup>(٣)</sup>.

### أثر علوم الأولي اللغوي التفكيري:

[١٩] ثم زلزلتهم في عصر بني العباس علوم الأولي، فوسعتها لغتهم وتفكيرهم ناصعين دقيقين بلا عوج ولا تقيد، وتطورت الأسلوب القديم التركيب، إلى الأسلوب المولد التحليلي الذي أنشأ مطافية من الكتاب رأدهم ابن المفع<sup>(٤)</sup>، تميل به العربية إلى بسط المعنى وانسياط الهيئات وأختلاسها وسهولة اللفظ:  
إذا قال القديم: «جذك حظك»، لا كذلك (عناوك)؛ فترك سامعه أن يحمل ما ركب.  
قال المولد: «إذ لم يساعدك الجد فالحركة (العناء) يخذلان (شيبة)<sup>(٥)</sup>»؛ فأخذ يهد سامعه إلى المراد.

### أثر الفكر الغربي الحديث اللغوي التفكيري:

[٢٠] ثم زلزلهم الفكر الغربي الحديث لغة وتفكير، فانقسموا إزاءه على خمسة أقسام: منهم من قبله كله وتمسك بالفكرة العربية كلها، ومنهم من قبله كله وتمسك ببعض الفكر العربي، ومنهم من قبل بعضه وتمسك بالفكرة العربية كلها، ومنهم من قبل بعضه وتمسك ببعض الفكر العربي، ومنهم من كاد يرفض الفكرين جيئا<sup>(٦)</sup>.

### مراحل الاستفادة من صحيح الفكر الحديث:

[٢١] إنني ملوقن من أنها الاتساع المنطقي التاريخية الثائرة كلها زلزل القديم حدث أو المقيم وافت، حتى إذا ما توقيع مخالقات الحكایات، وإنماز صحيحة من سقيمه، ووجب قبول صحيحة وتغيير القديم به وزرد سقيمه وحماية القديم منه، اتحدت تلك الأقسام على قلب قسم واحد لا يقوم له غيره.  
هو عمل زمان طویل، تكون فيه ضرورة من التجربة متعاقبة ربما تزامنت، هي:  
الاتباع الأعمى، ثم الاتباع البصیر، ثم الامتلاک، ثم الابداع<sup>(٧)</sup>.  
وإن تأملنا لسيرة الفاظ وتعالیز خاصة، على مثل ما سبق في الفقرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، لكفیل بأن يطلعنا على طرف من سیرتنا لغة وتفكيرًا. وإن افتقدنا مثل

ذلك على ما ينبغي له من الاستقصاء والوفاء، لدليل ضائلة علمنا بأنفسنا، وضعف وعيانا  
لحياتنا الكائنة والمتظاهرة<sup>٢٢</sup>.

### اطراغ الفكر القديم كاطراغ الفكر الحديث:

[٢٢] إن استيعاب الفكر الحديث بما فيه من آثار اللغة والتفكير الحديدين، يزيد من إنسانية الإنسان، وينصب من حياته، وينير من بصيرته، ولكن اطراح الفكر القديم بما فيه من آثار اللغة والتفكير القديمين، ينقص من إنسانية الإنسان، ويجدب من حياته، ويطفئ من بصيرته<sup>٢٣</sup>. ولأمر ما قال رسول الإسلام -صلى الله عليه وسلم- في صاحبته الذين منهم أبو ذر نفسه -رضي الله عنه- : «خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»<sup>٢٤</sup>. من ثم ينبغي ألا نعجب هنري لوسل أن دعا في مقال نشرته لوموند الفرنسية، عنوانه «اللغة العربية والحضارة العربية الإسلامية تزودان الدارس لها بنظرة جديدة إلى العالم» -إلى تدريس اللغة العربية وكتابها الأكبر «(القرآن) في المدارس الفرنسية»؛ فلم يرد لأمته إلا الإصلاح. أما العجب العاجب فلستكيفيش يدعونا نحن إلى اطراح لغتنا، بأنها قديمة!

### المَسْأَلَةُ التَّالِيَّةُ: نِظَامُ الْأَطْوَارِ

علاقة الكلم (المعان) المجتمعه أهم منها:

[٢٣] عمر، علي، خالد، الشمس، القمر، الأرض، كل مفردات متوايلات، وهي كذلك معانٌ متفرقات متوايلات، كل كلمة منفردة منها معنى منفرد، متى خطرت خطر، ومتى خطرت خطرت، وما خطور كل كلمة منها أو كل معنى إلا بمنزلة ضرب واحد في واحد أو قسمته عليه، لا زيادة ثم معتبرة.

أما إذا كانت تلك الكلم (المعان) نفسها، هكذا: عَلَيْهِ وَخَالِدُهُ حَوْلَهُ عَمَرَ وَالْقَمَرُ وَالْأَرْضُ حَوْلَ الشَّمْسِ - فهي كلام مركب متباين، وفكرتان متباينتان مجتمعتان. تدل الأولى على علاقة جماعة من الناس، وتدل الأخرى على علاقة جماعة من الجناد. إنه إذا كانت العلاقة في الأولى علامة سعي الناس إلى الاختلاف وحرصهم عليه، كانت العلاقة في الأخرى علامة ائتلاف الجناد على سنة عليا، ثم كان التقاء العلامتين كلتبيهآية الخصوص العظيمى لتقدير خالق واحد بديع عظيم، لم يملك لها ليفي شتاروس إلا أن يقول: «حين ننظر إلى جميع الم杰ارات الفكرية للإنسان بقدر ما دونت عبر العالم كله، نجد أن القاسم المشترك بينها هو ذاتها إدخال نظام من نمط ما. وإذا كان هذا يمثل حاجة أساسية لنظام في العقل الإنساني، وما دام العقل الإنساني، بعد كل حساب، ليس سوى

جزء من الكون، فإن الحاجة ربما كانت موجودة لأن ثمة نظاماً ما في الكون ولأن الكون ليس في حالة من الفوضى»<sup>(٢٨)</sup>.

ونحن إذا تأملنا على التاريخ أعمال كبار المفكرين علماء وفنانين، لم نجد قيمتها في ذخائرهم المحتشدة فيها من الكلم (المعاني) المنفردة، بل فيها يختارونه لها ويختارونها له من علاقات تُظهرها وكان لم تسمع من قبل<sup>(٢٩)</sup>.

ولأمر ما قال أبو نواس لسلم بن الوليد الفاخر في قوله:  
«رأي المهلب أَوْ بَأْسِ الأَيَازِيدِ»

بأنه لم يسبق إلى جمع (يزيد) أحد - «منْ هَا هَنَا وَهَنَّ»<sup>(٣٠)</sup>.

وللأمر نفسه قال بابي أنكلان الكاتب الأسباني: «يا لشقاء الشاعر الذي لم يجرؤ يوماً على أن يجمع بين كلمتين لم تلتقيا من قبل على الإطلاق»<sup>(٣١)</sup>.

علاقة الكلم (المعاني) المجتمعية، أهم من الكلم (المعاني) المنفرداته نفسها؛ فضلاً عن أنها التي تقدم الفكرة «دلالة علاقة الكلم (المعاني) المجتمعية»، لا المعنى المنفرد، فتظهر الكلمة أحياناً وكان لم تسمع من قبل - تُستَقِلُّ وَخَدَّها بتوسيع ما لا يحصى من الأفكار<sup>(٣٢)</sup>.

وبالقياس تكون علاقة جعل الفقرة المجتمعية، أهم من الجمل المنفردات، وعلاقة فقر النص المجتمعية، أهم من الفقر المنفردات، وعلاقة تصوص الكتاب المجتمعية، أهم من النصوص المنفردات؛ فإن التأمل يطيل النظر حتى تكتشف له رسالة الكتاب المسؤولية على تصوصه؛ فتكتشف بانكشافها قضايا النصوص، ثم أفكار الفقر، ثم فكريات الجمل؛ فتكون معانى الكلم عندئذ قيمة.

#### علاقة الكلم (المعاني) المجتمعية عمل النحو:

【٢٤】 ما علاقة الكلم (المعاني) المجتمعية، بعضها بعض إلا عمل النحو، وما تعليق مستعملها لها بعضها بعض إلا إعمال هذا النحو<sup>(٣٣)</sup>، وما الانطلاق منها إلى علاقة الجمل في الفقرة والفقير في النص والتصوص في الكتاب، إلا انطلاق من نحو الجملة القديم الدارج لدينا الآن - وعليه مأخذ تنفي عنه صفة الوفاء - إلى نحو النص الحديث المتعنى لنا<sup>(٣٤)</sup>.

### ((وجه النحو الفلسفية المُجدي)):

[٢٥] لما كان نظام اللغة مقتصرًا عند دو سوسيير عالم اللغة الغربي، على الأصوات والكلمات فقط أو مع عدد ضئيل من العبارات الثابتة والنهاذ العام، لم يكن لتكون الجملة لديه علاقة بنظام اللغة، بل بالكلام المنطوق؛ ومن ثم كان خارج إطار علم اللغة الحقيقي لأنه عندئذ نمط من الإبداع اللغوي الحر الذي لا تتحقق قواعد اللغة إلا ما اختص بصياغة الكلمات ونهاذ الأصوات؛ ثمَّ من ثمَّ لم تكن للنحو أهمية كبيرة<sup>(٣)</sup>.

ولما يكفي في فهم طبيعة الفكر البشري أن تفسر ظواهره على منهج الديكارتيين، بردتها إلى مبدأ حيوي يدعى العقل لم تكشف خصائصه بعد على نحو متباين وشامل - انطلق تشومسكي عالم اللغة الأمريكي، من حصر ديكارت نفسه إنسانية الإنسان بقدرته من خلال اللغة على التحليل والتوليد<sup>(٤)</sup>، إلى التفتيش في تلك المقدرة عن نهاذ تتبع له وضع نظام من القراءات يسمح بتوليد الجمل الممكنة في اللغة كُلُّها، يشتمل على عناصر ثلاثة هي: المكون الترجمي والمكون الصوتي والمكون الدلالي (نظريته النحو التوليدي) لا ينحصر في حدود لغة ما وإن اعتمد عليها، بل يشمل اللغات الطبيعية كلها فيضطلع بدراسة الشروط الواجبة فيها؛ فصارمه «تأصيل النحو في أعمق أعمق التربية العقلية المشتركة للغة البشرية، على أساس أن العقل عنده فطري، وأن اللغة بنيوها المنطقية متأصلة في الحياة الذهنية التي يوجهها العقل»<sup>(٥)</sup>.

لقد استحسن منهج وصف ظواهر اللغة والنشاط العقلي بأعلى درجات الدقة الممكنة ومحاولة تحرير بناء نظري يفسر تلك الظواهر ويكتشف مبادئ انتظامها وعملها ولا يربط التراكيب والأعمال العقلية المفترضة بأية آليات فسيولوجية، ولا يفسر الوظيفة العقلية من خلال أسباب فيزيائية، فراجع نظرية النحو الفلسفية أو الكلية التي نشأت في القرن السابع عشر، منطلقاً من الاعتذار بجواز الذهاب إلى أبعد مما يمكن تخيله في سبيل تفسير الملاحظ، ومن التشبه ببنيوت في محاورته لهم طبيعة حركة الكواكب، إلى المناحة عن النظرية المهجورة بأنها ليست نمطاً من النحو المعياري الذي تجاوزته الدراسة اللغوية، بل من التفسير العقلي أي تفسير حقائق الاستعمال على أساس فروض متعلقة بطبعية اللغة وطبيعة الفكر البشري<sup>(٦)</sup>.

إنه حلم بعيدُ بُعدَ أولية الإنسان في هذه الحياة، ما يطمح إليه تشومسكي من «النحو الكلية» الذي يبعث للعالم أصول لغة واحدة وتفكير واحد، كان حافز الدكتور مازن الورع إلى إقناع أساتذته ومنهم تشومسكي نفسه، بجعل رسالته للدكتوراه في دراسة التراكيب الأساسية في اللغة العربية، مستخدماً المنهج الذي وضعه العرب القدماء، مقترباً بالمنهج الدلالي التصنيفي الذي وضعه عالم الدلاليات الأمريكي ولتركوك

وبالنهاية التوليدية التحويلي الذي وضعه شومسكي وقد تلمنذ لها، من أجل وصف التركيب العربي وشرحها نحوياً ودلائياً، حتى «يمكن للنظرية اللسانية الحديثة أن تستفيد من المواد اللسانية المقدمة في هذه الدراسة»<sup>(٣٠)</sup> - فحظي باعجاب شومسكي وتصرิحة المكتوب في غرة العمل، بما فيه من إضافة إلى النظرية الغربية!

لقد اشتغل انتساب الناس إلى أمم مختلفة اللغات والتراكير، تسهر أنحاوها (أنظمتها) على رعاية اختلافها، بحيث لا يستبعد المتأمل أن لا يكون ذلك الحلم الأخاذ، إلا كابوس «العزلة» قد استغثت به ثياب «النحو العالمي»، تدعو الناس إلى أن يعتقدوا الحضارة الغربية ويتمموا إليها دون حضارتهم؛ إذ لا حياة إلا باعتماد مبادئها، ولا سيادة إلا باعتماد طرائقها، كما سبق في الفقرة الثانية عشرة، وهم لا يريدون إلا أن يستوعبوا الحضارة الغربية كما استوعبهم الغرب، لأن يكونوا، كما لم يكنهم. ولن يكونوا، لو أرادوا، بل سيكونون له، كما كان كثير من العالم الذي اغتصبه وأجبره على حضارته، فصار حظائر لخلفاته<sup>(٣١)</sup>.

ولن يفوت المتأمل أن يستظهر من تصريح شومسكي نفسه المكتوب في غرة عمل الدكتور مازن الوعر الأنف ذكره، أن الأصول المحلوم باكتشافها، هي للغة وتفكير غربيين، كما أراد ستوكيفيتش فيها استبطنه عنه من أفكار في الفقرة الثالثة!

ولكن ينبغي ألا يفوته أنه تتجل في خلال ذلك علاقة الكلم (المعانى) المجتمعـة، بعضها ببعض، التي هي أهم منها هي نفسها، والتي هي عمل النحو - عملاً لغيرها تفكيرياً؛ فيتجل النحو نظاماً لأطوار اللغة والتفكير جيـعاً مـعـاً أي السـلك الـذـي يـتـظـمـنـها لتكون على التاريخ عـقدـاً مـتـآـخـدـاًـ الـحـيـاتـ لـوـلـاهـ لـأـنـفـرـطـتـ لـغـاتـ وـتـفـاكـيرـ شـتـىـ،ـ ليـكـونـ هوـ ذـلـكـ المـوـضـعـ الـأـجـدـرـ بـالـدـرـاسـةـ مـنـ مـوـضـعـاتـ تـارـيـخـ الـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ،ـ الـذـيـ نـبـهـتـ عـلـيـهـ الفقرةـ السـابـعـةـ عـشـرـةـ،ـ بـلـةـ أـنـ يـكـونـ وـجـهـ النـحـوـ الـفـلـسـفـيـ الـمـجـدـيـ.

### نقد الدكتور ثامن حسان لعمل الدكتور عثمان أمين:

[٢٦] في خلال حديثه عن كون الإسناد في اللغة العربية قرينة معنوية مقالية من قرائن التعليق، توازرت غيرها من القرائن المقالية (المعنوية واللفظية)، ومن القرائن الحالية (المقامية) - وهذه كلها قرائن التعليق - ومن القرائن العقلية (العهدية الذهنية والمنطقية)، ومن القرائن المادية (خلفات المجرم في مكان الجريمة وما أشبه)، وأنه بهذا الشائز والتضافر نفهم معنى النص الدلالي - ذكر الدكتور ثامن حسان أن الإسناد في اللغات الغربية مقتصر إلى وساطة نوع من القرائن اللفظية يسمى الأفعال المساعدة، فليس هو فيها قرينة كما في العربية. ثم أشار إلى محاولة الفيلسوف الدكتور عثمان أمين في كتاب له،

تفضيل اللغة العربية بهذا على لغات أخرى غيرها، ثم أعرض عن هذا الضرب من البحث، لأنه مما وراء منهج اللغة الذي يعني به الفلاسفة – إن جاز أن يعني به أحد – لا اللغويون. وصرح بأنه يعني من هذه المسألة مثلاً، بكون الإسناد قرينة معنوية لتمييز المسند إليه من المسند في الجملة، في ظل ظاهرة كبرى تحكم استخدام القرآن جائعاً، هي ظاهرة «تضافر القرآن»<sup>٣٣</sup>، وهي نظرية المهمة التي قدمها بهذا الكتاب، وانطلقت منها واعتمدت عليها دراسات كثيرة.

#### دلالة عمل الدكتور عثمان أمين:

【٢٧】 إننا إذا نظرنا في كتاب الدكتور عثمان أمين، المقصود بعينه على صغره (فلسفة اللغة العربية)، وجدناه متذمراً في سبعينيات القرن العشرين، للتزعزع القومية العربية وتبيه المخدوعين بدعوى قصور اللغة العربية – مبيناً على عشرة فصول: الأول: تمييز في اللغة والأمة، والثاني: خصائص اللغة العربية، والثالث: حضور جواني، والرابع: الصدارة للمعنى، والخامس: الإعراب مطلب العقل، والسادس: ظلال وألوان، والسابع: الحركة والقوية، والثامن، اعتراض ورد، والتاسع: مصير اللغة العربية، والعشر: اللغة العربية والمثالية الفلسفية – مختتماً بقوله: إن عزة الإسلام في المحافظة على عزة العربية، وعزّةعروبة في المحافظة على الميزات الفريدة التي تميزت بها اللغة العربية: إنها لغة مثالية، ذات فلسفة واضحة، فلسفة «جوانية» موحدة، تربط القول بالفکر، وتوحد بين النظر والعمل<sup>٣٤</sup>.

إنه يبين اعتقاد الفكر العربي على امتزاج اللغة والتفكير العربين، وصدروره عنه، بحيث إذا قدّس هذا الامتزاج واستجعم، قدّس ذلك الفكر واستجعم، ولما كانت حياتنا بحياة هذا الفكر، كانت بحياة ذلك الامتزاج كذلك. وهي قضية أهملت كما اتضحت من عمل الدكتور تمام حسان، في سبعينيات القرن العشرين، لخوض التزعزع القومية، ولسيطرة المنهج الوصفي، فلما تلقيت بنا الآن أصابع العولمة، وسيطرت نظرية النحو التوليدي الساعي إلى النحو الفلسفى، عادت جلدة جديرة بالتأمل.

#### النحو العربي نظام أطوار اللغة والتفكير العربين:

【٢٨】 لقد كان ستكتيفيشن كما يتضح مما استنبطت عنه من أفكار في الفقرة الثالثة، واعياً كيف يميز النحو اللغة والتفكير، حتى ليُعدّ نحوهما جيئاً<sup>٣٥</sup>. ونحن إذا استعملنا دلالة عكس الكلام تبيّنا أنه يشير إلى بقاء اللغة والتفكير العربين ما بقي لأطوارهما النحو العربي نظاماً، وأن ليس لعجمة الكلمات (المعاني) المفردة، أو عروبتها في هذا الشأن، من

أثر. وهو قد قال في موضع آخر من كتابه نفسه: «إن اللغة العربية ليست مختلفة عن الإنجليزية مثلاً لأن كلمة (يكتب) تتضمن السابقة (ياء المضارعة) وأن الكلمة الإنجليزية *writes* لا تتضمنها. إن المنطق الدلالي والصرف واحد في الكلمتين، لقد عبر المتكلم عن أبسط فكرة عملية للحدث في الحالين... إن الاعتبارات المعجمية والصرفية ليست بعائق يحول دون التمايز المنطقي للغات، أما النحو فإنه - كما يسود في المقابلة بين الجملتين البسيطتين السابقتين? What does he do? وماذا يفعل؟ يضع هذا التمايز في خطر. إن النحو - الذي هو بناء لمنطق لغوي متكملاً ومركب يختلف اختلافاً شديداً من لغة إلى لغة أخرى. لكن النحو - في التحليل النهائي - يعد انعكاساً لأنماط فكرية تطورت من اكتشافات فكرية إلى عادات فكرية، ومن ثم إلى قوانين فكرية، ونحن عادةً نتعامل مع قواعد الفكر. إن اكتشافاتنا الفردية لأفكار جديدة نادراً ما يسمح بتطورها إلى عادات فكرية شائعة وهذا تباين، لأنها عوارض زائلة دون أن تشكل قواعد جديدة»<sup>(٣٩)</sup>.  
لكانه نظر في مثل هذه الجملة (الراديو والتلفزيون والسينما كرنفال إنترناشيونال)، وكل كلمة منها أجمالية صيغة ومعنى، فرأى كيف تضادرت بينها سائر قرائن التعليق (النحو) العربي فاستعرّبت، فلم يلق بالاً لصيغ الكلمات ومعانيها المنفرّdas، قائلاً: هذه طيور عالمية مهاجرة، فحيثما أقمت وعششت أنتسبت<sup>(٤٠)</sup>

### ظاهرة تعرّيب التعبير:

[٢٩] نحو اللغة والتّفكير العربي باقٍ من قديم إذن نظاماً لأطوارها، يحفظ عليها عروبيتها، على رغم ما استعجم أو يستعجم من صيغ الكلم ومعانيها المنفردات<sup>(٤١)</sup>. ولكن بين هذه المنزلة ومتزلة الكلمات (المعاني) المجتمعية بعلاقة تامة، متزلة التعبير ((الوحدة المعنوية الدنيا التي يحتضنها تركيب ما في الكلام ولا تحدها بنية خاصة، وتهدي إليها بقطعٍ الكلام بمراعاة ثمام المعنى»<sup>(٤٢)</sup>، المكون الجُمْلِي عند اللغويين النفسيين، الذي تتحلّ إليه الجملة خلال الفهم ثم تتعقد به<sup>(٤٣)</sup>.

لقد كثُر في هذه المنزلة حديثاً ما أخذته العربية من غيرها، حتى لقد ذكره الدكتور رافي ضمن أهم عوامل تطويرها في العصر الحاضر، قائلاً في المرتبة الخامسة: «اقتباس كثير من أخيلة هذه اللغات وتشبيهاتها وحكمها وأمثالها... وما إلى ذلك»<sup>(٤٤)</sup>. فتناوله بعض الباحثين على أنه من «التدخل الأسلوبوي»، نافذاً نفور من سياهم «الصفويين» - نسبة عجيبة إلى الصفاء اللغوياً - منه، ومثلاً بما دخل العربية منه على رغم أنفهم، من الفرنسيّة، مثل قول الفرنسيين: «ذر الرماد في العيون»، ومنها على طبيعته بين اللغات المتلاقة، وعلى جدواه على لغتنا المفتقرة إليه شغلاً لفragها، وداعياً ضرورةً إلى دراسته

دراسة معجمية اجتماعية تفسر الحضارات بالصطلاحات (الكلمات) وبالتركيب (التعابير) التي تنشئها أو تستعيدها<sup>(٣٣)</sup>.

إن تسمية هذه الظاهرة (تدخلًا)، غير سديدة؛ إذ تداخل الأساليب أن تسرب من كل منها إلى الآخر ملامح، وهو التلاقي الأنف الذكر، والمراد هنا دخول ملامح من طرف إلى آخر دون عكس، وهو لا يخرج عن التعريب، وقد عرض الباحث نفسه للدعوة المجمع إلى «تعريب الأساليب» أي التعابير<sup>(٣٤)</sup>. ولا ريب في أنفة بعض أدبياتنا على الزمان من تعريب التعبير تمسكًا «بنقاء الديباجة»، واجتهدوا - إن اضطروا - أن يخلوه ويعقدوا عقدًا عربيًّا بحثًا. هذا شأنهم المبني على اعتقادهم أن وقوع الكلمة أو التعبير المعربي في لغتهم، كوقوع قطرة الليمون في زق العسل المصنف، شر مستطير. والحق ألا أثر لذلك ما بقي كالخرق المرفوع، كسرة تمضيّها معدة النحو العربي، فاما أن تتلاعّب التعابير العربية آخذًا بعضها ببعض كرمع الثوب السبعين الحافظية التي لا باقة معها لحقيقة الثوب - فلا تلاقي ولا استعارة، بل فناء وعدم. وفيما استتبّته عن ستكتيفيشن في الفكرة السادسة من الفقرة الثالثة، ما يؤكد هذا الرأي.

أما مقدرة مثل هذه الكلمات والتعابير المسلوكة في نظام أطوار اللغة والتفكير الذي أنشأها أو الذي استعارها، متى انتزعتها منه فدرستها دراسة معجمية اجتماعية - هل أن تفسر الحضارات - ولا ريب في أن المراد تفسير ضعف الحضارة العربية وقوة الحضارة الغربية! - ف بعيدة التخيل؛ إذ القرية المتحققة مقدرة نظام أطوار اللغة والتفكير نفسه على ذلك. ولكن تلك الأولى مقيدة في الاطلاع على طرف من سيرة تلاقي الحضارات وأثر بعضها في بعض.

### تمسك دعاة التطوير بنظام أطوار اللغة والتفكير العربين:

[٣٥] تطور الثقافة حياة، وجودها موت، والفنانون ولاسيما الأدباء، أكثر الناس وعيًا لذلك؛ ومن ثم يدعون كل حين إلى اطراح نظام أطوار اللغة والتفكير، حتى إذا ما تحركت الثقافة وتتطورت على ما يرغبون، دعوا إلى التمسك بالنظام نفسه، وعيًا منهم لوظيفته الآنفة البيان.

هذا أدونيس الصاحب الشورة على نظام أطوار اللغة والتفكير العربين في «(زمن الشعر)<sup>(٣٦)</sup>. يعود في «(النص القرآني)»، إلى ما صنّبه، ليعدله ذاكرا أنه قاله في سياق آخر، داعيًا إلى التمسك بما ثار عليه؛ ففيه لا في القدامة ولا في الحداثة، يكمن الإبداع، شارحًا كيف يأبى هذا النظام «(زراعة أعضاء غريبة)<sup>(٣٧)</sup>، قاصدا فيما فهمت، شوّهه بغيره، على جهة الكذب اللغوي الذي قال فيه الدكتور شكري عياد: «إنما تفسد اللغة وتنحط

المقدرة اللغوية عندما يتعود الناس الكذب في استعمال اللغة. فكما أن الحياة الاجتماعية لا تستقيم إذا كان الكذب هو قاعدة التعامل، فكذلك الحياة اللغوية - وهي أداتها الأولى - تضطرب وتفسد حين يتعمد الناس تحريف الكلم عن مواضعه»<sup>٣٣</sup>. أما غير الفنانين من دعاة التطوير، فمطمئنون إلىبقاء عروبة الثقافة، ببقاء نظام أطوار اللغة والتفكير العربي، فضلاً عنها يختص به العرب من ظروف أخرى»<sup>٣٤</sup>.

### المَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ: مِثَالُ الاتِّصالِ

دعوى حداثة طه حسين وقدامة الرافعي:

[٢١] ذكر الدكتور زكي نجيب محمود أن هضتنا اللغوية في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، التي تخللت هضتنا الحضارية، أخذت في طريقين: «أما أحدهما فطريق سلكه فريق من الناهضين أرادوا باللغة أن تناقض العامية في وسيلة أدانها، وأما الطريق الآخر فهو الذي سلكه فريق ظن أن النهوض باللغة إنها يكون بإحياء القديم، وكان الله يحب المحسنين»<sup>٣٥</sup>!

ولا ريب عندي في أنه وضع هذا التقسيم وفي ذهنه طه حسين من الفريق الأول الناهض، ومصطفى صادق الرافعي من الفريق الآخر القاعد؛ فهما قد شارت بينهما في الفترة المذكورة، مشكلة القديم والحديث، التي مثل فيها الرافعي القديم راغباً، ومثل فيها طه حسين الحديث راضياً، بأية ما جمعه طه حسين في كتابه الذي ذكر فيه أنه «يريد أن تكون اللغة حية نامية، ومن ذكر الحياة والنسم، فقد ذكر التطور، ومن ذكر التطور وأمن به فهو من أنصار المذهب الجديد»<sup>٣٦</sup>. وأنه لا يكره أن يستغير «من اللغات الحديثة الأوروبية معاني وأساليب وألفاظاً»<sup>٣٧</sup>. وأن أسلوب الرافعي على فقهه لدقائق العربية «لا يلائم العصر الذي نعيش فيه»<sup>٣٨</sup>؛ إذ يتمسك باللغة الموروثة دون زيادة أو نقصان، وهو ضرب من النفاق أن نعيش الحياة الحديثة ونكتب اللغة القديمة»<sup>٣٩</sup>. وتنى أن «لو كتب الكاتبون في هذا الموضوع، وأعلن كل منهم رأيه فيه؛ فقد تنتهي المناقشة بنا إلى الاتفاق على قاعدة يحسن أن نتفق عليها منذ الآن، فتنتهي هذا الاضطراب الذي نشهده في التر والشعر وأساليبهما، ونتنقى شيئاً آخر تقليلاً منكراً هو سخط الأدباء والكتاب إذا نقدمهم ناقد وأخذهم كاتب بما لا يجيرون»<sup>٤٠</sup>.

**حكم ستكييفتش مذهب طه حسين على مذهب الرافعي:**

[٣٢] لأنها أراد ستكييفيتش بعمله الذي أفضى إلى ما استنبطته عنه في الفقرة الثالثة، ولاسيما الفكرتان الأخيرتان - أن يجبر دعوة طه حسين ويتحقق أمنيته، عفوًّاً بما عرف عنه من أنه من القسم الثاني من أقسام العرب المترلزين بالفكرة الغربي الحديث، الذي قبله كله وتمسك ببعض الفكر العربي<sup>(٤)</sup> - وبما لم يُخفِ الرافعي من رفض الفكر الغربي الحديث<sup>(٥)</sup>؛ فحكم معتسفاً دون موازنة، مذهب طه حسين اللغوي التفكيري الغربي، بالنجاح والبقاء، وعلى مذهب الرافعي اللغوي التفكيري العربي، بالفشل والفناء.

مادة الموازنة:

[٣٣] لقد ذهبت في أعمال طه حسين والرافعي، ألتمنس من نصوصها ما يؤهله التوارد للموازنة، فحصلت على نصين متشابهين رسالة ومقداراً، أوردهما فيها يلي مشفوعين بجدال العناصر الدالة، تمهيداً للنظر المراد.

ولما كانت أولى حواشى كل بحث جزءاً منه تأخر لحكمة، أخرت شرح العمل بالجدال و ما أشبهها بما يأتي معها أو بعدها - وهو جزء من البحث مهم جداً - إلى بيان الحواشى المرقمة، درعاً للشبهة التزييد والتعليق، ويسيراً للتأمل القارئ للتصين ولتسليح تأمين لها.

وريما كان من تمام المقصود أن أؤخر الجداول وما أشبهها كذلك، ولكنني رأيت  
إيرادها هنا منها لتصور مسيرة البحث، وريما لم يمتحج قارئ إلى مراجعة بيان الحواشى  
لظهور الماء.

نَصْرٌ طَهُ حُسَيْنٌ

«انظرْ - يا سيدى - ) إلى يمينك / فخذْ بحذلوك من المخزن، / وانظرْ إلى شمالك / فخذْ بحذلوك من الشرور؛ / فلا خير في الحياة إذا لم تكن حزناً وسروراً، ولذةً وألمًا،  
و جداً وفجوةً. /

أنظر عن يمين، / وانظر عن شمال، / ثم انظر أماكٍ إلى هذا البلد الخزبين التّبع،  
الذِي يَعْدُو عَلَى حُقُوقِ أَصْحَابِ الْجَنْدِ (وَيَلْهُو بِمَا فِيهِ أَصْحَابُ اللَّهِ)». وَهُوَ يَتَّهِمُ  
عُذُونَ أَوْلَيْكَ (وَيَتَّهِمُ لَهُ هُؤُلَاءِ). تَخْرُوتَا حِينًا، مَسْرُورًا حِينًا آخَرَ، سَاخِرًا مِنْ  
أَوْلَيْكَ وَهُؤُلَاءِ دَائِيَّا، لِأَنَّهُ تَذَبَّلا مِنَ الدَّهْرِ خَيْرَةً وَشَرَّةً، وَذَاقَ مِنَ الْأَيَّامِ حُلُوها وَمُرْهَا،  
وَوَقَّتٍ يَأْنَى عَذَّلَ اللَّهَ قَرِيبٌ، وَيَأْنَى الْحَقْ مُتَصَرِّرٌ. مَهْنَاهَا يَتَّصِلُ سُلْطَانُ الْبَاطِلِ)». وَيَأْنَى  
صَرْخَ الْجَنْزِرِ مُنْذِكٌ، / مَهْنَاهَا يُشَيَّدُ بِأَضْخَمِ الْأَخْجَارِ وَأَضْلَبِ الصُّخُورِ / .

## نص الرافعي<sup>(٤)</sup>

«وَيَحْكَ / لَمْ تَبْتَشِّرُ، / أَيْهَا الْفَقِيرُ؟»

الْغَنِيُّ يُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَ حُظُوطَ النَّاسِ جَمِيعًا حَظًّا وَاحِدًا، لِيَخْتَصُّ نَفْسَهُ بِهَذَا الْحَظْ، /  
وَأَنْتَ تُرِيدُ أَنْ يَخْتَصَّ بِحَظِّ الْغَنِيِّ؛ / فَإِذَا تَرَكْتُهُ اللَّهُ يُؤْتِي الْمُلْكَ مِنْ يَشَاءُ، وَيَنْتَعِي الْمُلْكُ مِنْ  
يَشَاءُ؟ /

إِنَّ اللَّهَ قَدْ اتَّمَنَكَ عَلَى أَثْمَنِ الْفَضَائِلِ وَأَعْزَّهَا مِنَ الصَّنِيرِ وَالْقَنَاعَةِ وَشَرَفِ الْفَصَمِيرِ،  
وَأَشَرَّفَ إِلَيْكَ عَلَى مَصَارِعِ الْأَغْنِيَاءِ؛ فَرَأَيْتَ كَيْنَتْ يَخْتَصُّ قَلْبُ أَخْدِيْهِمْ وَهُوَ يَخْتَصُّهُ كُرَّةً  
الْأَرْضِ زُرْنِلَتْ زِلْزَاهَا، وَكَيْفَ تَطْرُفُ عَيْنَهُ وَهُوَ يَتَوَهَّمُهَا اللُّجَّةُ الَّتِي تَبْتَلِي كُلَّ مَا فِي رَأْسِهِ  
مِنَ الْأَخْلَامِ، وَكَيْفَ يَمُوتُ وَهُوَ يَرِي كُلَّ مَا كَانَ فِي يَدِهِ كَالظَّلَّ عَلَى الْمَاءِ لَا يَذُوبُ مَاءً،  
وَلَا يَتَفَقَّ ظِلًا، وَيَرِي أَنَّهُ كَانَ يَشْتَرِي الْمَالَ الَّذِي لَا حَدَّلَهُ بِالْعُنْزِيْرِ الْمُخْدُودِ، فَلَمَّا أَفْلَسَ مِنْ  
هَذَا خَيْرَ الْإِثْنَيْنِ جَمِيعًا .»<sup>(٥)</sup>.

## الجدول الأول<sup>(٦)</sup>

ضمير غيبة	مضاد للعرف بالأن	نكرة	ضمير تكلم	ضمير خطاب	المستدال إليه
				٧	فعل أمر
١	١		١		فعل مصارع
		١			شبـه جملـة ظـرفـي زـمانـي
			١		جملـة ( فعل مصارع و مضاد إلى عرف بالأن )
		١			جملـة ( فعل مصارع و ضـمير غـيبة )

الجدول الثاني (٨٦)

المستند إليه	المستند	ضمير خطاب	ضمير تكلم	معرف بالـ	علم
فعل ماض		٢			
فعل مضارع		١	١		
جملة (فعل مضارع وضمير غيبة)				١	
جملة (فعل مضارع وضمير خطاب)		١			
جملة ( فعل ماض وضمير غيبة)				١	

الجدول الثالث (٨٧)

المجموع	٣	٢	١	٠	٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١	الجملة
١٤٤	٨	٤	٤	٧	٧١	٤	٣	١٩	٧	٤	٧	٣	٣	عدد الكلم
٤٩	٥	٣	٢	٣	١٦	٢	٢	٤	٣	٢	٣	٢	٢	عدد العلاقات
٢,٩٣	٦١	٣٣	٢	٣٣	٣٣	٢	٥١	٦٦	٣٣	٢	٣٣	٥١	٥١	متوسط العلاقة

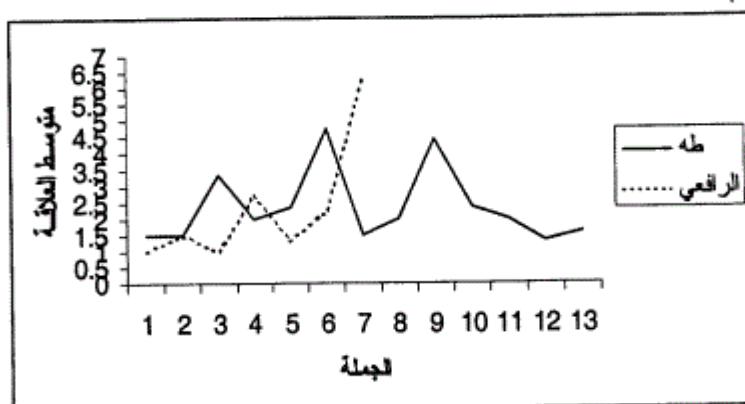
الجدول الرابع (٨٨)

المجموع	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١	الجملة
١٥٣	١٠٦	١٦	٨	١٦	٢	٣	٢	عدد الكلم
٤٧	١٧	٧	٦	٦	٢	٢	٢	عدد العلاقات
٣,٦٤	٢,٢٤	٢,٢٨	١,٣٣	٢,٦٦	١	١,٥٠	١	متوسط العلاقة

الجدول الخامس (٨٩)

المجموع	١٧	١٦	١٥	١٤	١٣	١٢	١١	١٠	٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١	٠
٣٩		-	٢	٤	١١	٧	٨	٦	٧	٣	٢	٤	١	٢	٣	٢	١	٣٩
٣٩	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	٣٩

رسم البيان (٩٠)



الجدول السادس (٩١)

علاقتها	خبرية	علاقتها	إثنانية	الجملة اللاحقة الجملة السابقة
٢ الاهتزاز ١ الاستئناف	٣	٢ الاهتزاز ٥ العطف ١ الاستئناف	٨	إثنانية
		الاستئناف	١	خبرية

## الجدول السابع (٩٢)

ملاطفها	خبرية	ملاطفها	إثنانية	الجملة اللاحقة الجملة السابقة
الاستفاف	٢	الاستفاف	٢	إثنانية
العطف	١	الاستفاف	١	خبرية

### الرسالة والأسلوب:

[٣٤] إنَّ من التَّوَارُدِ المُهْمَل صدور طبعتي الكتابين المعتمدين هنا عفْرَا لا قصدًا، عن مكان واحد (بيروت)، في زمان واحد تقريباً (١٩٨٣، ٢)، غير أنه لا يخلو من أن يدل على طلب القارئ العربي لها جيئاً!

لقد كانت رسالة نص طه حسين تصبير البلد، ورسالة نص الراافي تصبير الفقير. أما صبر البلد المرجو في الأول، فعل ظلم حكامه الجادين واللاهين جيئاً؛ فعما قريب يتتصف منهم، وأما صبر الفقير المرجو في الآخر، فعل قيد الفقر؛ إذ هو مقام من مخاسن الفضائل فيه وقاوه من نقائص الأغنياء المهلكة.

لقد كان طه حسين ناصحاً واقعياً ثائراً، والراافي ناصحاً مثالياً هادئاً. أما ناصحيتها فواضحة من رسالتى نصيهما المذكورتين آنفًا؛ فثم أزمة يطلع عليها كل منها، ويلتمس للمازوم فيها سبيل النجاة منها، ولكن تخير الأول من البلد فرداً، لقد أراد الآخر بالفرد جنساً. وأما واقعية طه حسين دون الراافي، فمن ملاحظته البلد حوله مكاناً وناساً، والتهابه بها تؤديه الملاحظة، دليل ما يريد<sup>(٣٣)</sup>. وأما مثالية الراافي دون طه حسين، فمن تأمله سر الحُلُق في نفس الجنس، والتهابه بها يؤديه تخيله، دليل ما يريد<sup>(٣٤)</sup>. ولقد يكون من جرائر مثاليته تعلقه بالصورة المركبة المتداخلة الأجزاء، التي تتجلّى في جملة نصه السابعة الأخيرة - على حين كان من جرائر واقعية طه حسين تعلقه بالصورة المركبة المتجاورة الأجزاء، التي تتجلّى في جملة نصه التاسعة. فإذا جاز أن نذكر من أسرار هذه الصورة، عمى طه حسين الذي كان يحمله على المتابعة والمعاقبة، وكان الأحداث تتحاطف سمعه؛ فهو في ملأ من ذنه<sup>(٣٥)</sup>. جاز أن نذكر من أسرار تلك الصورة، صمم الراافي الذي كان يحمله على التوليد والتشقيق، وكان المشاهد تحاطف بصره؛ فهو في ملأ من عينه<sup>(٣٦)</sup>.

## الاعتذار عن اعتقاد الإحصاء:

[٣٥] أغبط على إنا القدماء على ما رزقونا من اليقين (أن أيقنوا بجدوى النظر في الكلام العربي)، خافقاً شكي، والإخلاص (أن أخلصوا للحق نظرهم في الكلام العربي) خافقاً رياضي، والانقطاع (أن انقطعوا خلال نظرهم في الكلام العربي، مما سواه) خافقاً شغلي، والذوب (أن دأبوا على النظر في الكلام العربي حتى تظهر الجدوى) خافقاً فتوري، وهي أحوال مختلفة موتلقة، لو بقيت لأمثالي من الباحثين، لأنفتحنا عن التمهيد لنظرنا في الكلام العربي دائمًا طمأنة لأنفسنا ولغيرنا، بمثل تلك المقدمة المجدولة من إحصاء العناصر الدالة السابقة في الفقرة الثالثة والثلاثين؛ إذ ليس كمكافحة النص استبطاناً واستيعاباً.

## نقد جهتي الخطاب المستولي على النصين:

[٣٦] إذا تأملنا («يا سيدى») ثانية جمل طه حسين، و(«أيها الفقر») ثالثة جمل الرافاعي، معًا وكلتاها نداء، اطعننا على فرق ما بين جهتي الخطاب المستولي على نص كل منها الذي يتبه الجدولان الأول والثانى.

(«يا سيدى») من لوازم الحديث البوسي العادى، يتباينا المتلاقون في البيوت والشوارع والأندية، كل يحملها ما شاء من مشاعره رضاً أو سخطاً وإقراراً أو إنكاراً.  
و(«أيها الفقر») ليست من ذلك الباب، بل تكاد لا يقوها إلا شخص بعينه لشخص بعينه، ويكاد لا يحملها إلا الأسف.

كأنما اشتاق طه حسين إلى خلط من يسمعهم ولا يراهم، ولا يخلو («انظر») قبل تلك الجملة وبعدها، من دلالة - على حين أقبل الرافاعي على نفسه دون غيره من لا يسمعهم ولا يتبع لهم، حتى ليبدو هو الفقير المذكور.

جهة الخطاب المستولي على نص طه حسين إذن، حقيقة، لا يتحقق لها أنه كان يخاطب عامله الكاتب عنه<sup>(٣٣)</sup>، بل ما في نصه من علامات شوقه إلى مجتمع الناس أن يحضرروا إليه لما امتنع عليه أن يحضر إليهم: (انظر، يمين، خذ، انظر، شمال، أمامك، هذا...). وجهة الخطاب المستولي على نص الرافاعي إذن، مجازية، من باب التجريد المحسن<sup>(٣٤)</sup>، لا لأنه ليس ثم مدعواً للإقبال<sup>(٣٥)</sup>، بل لما في نصه من علامات شغله بنفسه يصفها من داخل، كي يصدق الوصف من قبل أن يصدقه غيره، (تبشّس، ترید، تختص، تركتها، اتمنك، أشرف بك، رأيت كيف وكيف...).

## **بين فعل الأمر الطَّهْسَنِي والفعل الماضي الرافعي:**

[٣٧] بنظرة أخرى إلى الجدولين الأول والثاني، يتبيّن اختصاص نص طه حسين بفعل الأمر دون نص الرافعي، واحتصاص نص الرافعي بالفعل الماضي دون نص طه حسين، وذلك أثر طبيعي؛ فالماضي خاتِرٌ حكيمٌ لا يكتم الحق، إذا أتصف خُلُقاً لم يقع للإمكان أبدع منه، يشتغل به الملايين الماحدثون المعتزلون الراضيون، ومن هؤلاء جميعاً الرافعي في نصه المختار - والحاضر وما تعلق به من المستقبل جَلْبَةً وصَحْبٌ، لا يتصرف فيه إلا الجسور، يشتغل به الواقعيون الثائرون المتحرّرون الساخطون، ومن هؤلاء جميعاً طه حسين في نصه المختار.

## **اختلاف علاقات الكلم والجمل بين النصين:**

[٣٨] كلام نص طه حسين وكلم نص الرافعي - وإن زادت هذه قليلاً - اللوائق بينها الجدولان الثالث والرابع، متقاريات عدداً. وعلى رغم هذا اجتمعت كلّم نص الرافعي في سبع علاقات تامات (جل)، بمتوسط (٢١,٨٥) كلمة في الجملة الواحدة، على حين اجتمعت كلّم نص طه حسين في ثلاث عشرة، بمتوسط (١١,٠٧) كلمة في الجملة الواحدة. واجتمعت بالمتوسط في العلاقة الناقصة الواحدة داخل الجملة (التأسيس أو التكميل)، (٢,٩٣) من كلّم جملة طه حسين، و(٦٤,٣) من كلّم جملة الرافعي. فإذا قسمنا متوسط نصيب العلاقة التامة على متوسط نصيب العلاقة الناقصة، حصلنا في نص طه حسين على (٣,٧٧)، وفي نص الرافعي على (٦)، وهو بيّن في أن علاقة الكلم (المعانى) المجتمعة، التي هي عمل النحو الذي هو نظام أطوار اللغة والتفكير - أكثر تعقداً في نص الرافعين منها في نص طه حسين، وكأنه ما توجّس منه ستكيفيتش في الفكرة الثامنة الأخيرة التي استبّطتها عنه في الفقرة الثالثة!

إذا تأملنا رسم البيان السابق في الفقرة الثالثة والثلاثين، تبيّنا كيف تتنامي درجات تعقيد علاقات الكلم (المعانى) المجتمعة في نص الرافعي، صاعدة إلى غاية الرسالة المرادة - على حين تضطرب قريبتها في نص طه حسين صعوداً وهبوطاً، حتى إنها تعود إلى قريب جداً مما كانت عليه.

وإذا تأملنا علاقات الجمل التي بينها الجدولان السادس والسابع، تبيّنا غلبة العطف على نص طه حسين، وغلبة الاستئناف على نص الرافعي، واحتصاص نص طه حسين بالاعتراض دون نص الرافعي.

ما من إشكال لدى في اختلاف عمل النحو بين طه حسين والرافعي، في شيءٍ مما في هذه الفقرة إلا اختصاص نص طه حسين بالاعتراض علاقة جمل، دون نص الرافعي؛ فظاهره نقىض سواء من الظواهر السابقة!

أن يختلف عمل النحو بين مستعمله الهايدي ومستعمله الثاير، فيحزم أولها في حُزْمة العلاقة من الكلم أكثر مما يحزم الآخر، ويتأتى دون الآخر بتدريج ذلك، وبخلاف بين جمله خبراً وإنشاءً فيستأنفها على حين يزال الف الآخر فيعطى - هذا كله مفهوم معروف غير منكر، جار على سنته اختلاف الآلة - وهي طبيعة الهايدي - والعجلة، وهي طبيعة الثاير<sup>(٣)</sup>. أما أن يختص نص الثاير المتوجل بالاعتراض علاقة جمل، وهي يتبعى أن تكون من سمات نص الهايدي المتأخر - فمشكل تحتاج إلى تأمل.

كل ما بين قوسين في نص طه حسين، اعتراض؛ فيكون ثم أربعة اعتراضات. أما أولها فجملة «يا سيدى» الآنفة الذكر في الفقرة السادسة والثلاثين، التي يخرجها كونها من لوازم الحديث اليومي العادي، من الإشكال. وأما الاعتراضان الثاني والثالث، فمن آثار تكميل المتوجل كلامه؛ إذ تخطر له مكملات فيضيقها فتعلق بأجزاء متقدمة من كلامه فتفضي إلى اعتراض المتأخر، هكذا: كانت جملة «يلهوا بمنافعه أصحاب اللهو»، معطوفة على «يعدو على حقوقه أصحاب الجد»، وجملة «يتحمل هو هؤلاء»، معطوفة على «(يتحمل عدوان أولئك)»، فلما خطر لهذا الثاير المتوجل تكميل ما تقدم بتقييد مطلقه فلعل «(يعدو) هذه الحال» («وهو يتحمل عدوان أولئك...»)، وعلق «(يتحمل) هذه الأحوال «عزوئاً...» - صارت الجملتان العاشرة والحادية عشرة معتبرتين لأجزاء الجملة التاسعة. وأما الاعتراض الرابع الأخير فمن آثار احتراس المتوجل من أن يساء فهمه؛ إذ هو لم يتبينه من أوله بحديث يمنع سوء الفهم. لقد كان ماضياً إلى عطف «(بأن صرح الجور من ذلك)»، على «(بأن الحق متصر)»، فخطر له ما في بقاء الباطل من تثبيط وتبسيس، فقال: «مهما يتصل سلطان الباطل»، ثم ارتاح إلى ما فعل فكرره أخيراً، فصارت الجملة الثانية عشرة معتبرة لأجزاء الجملة التاسعة، والجملة الثالثة عشرة معتبرة بعد الجملة التاسعة.

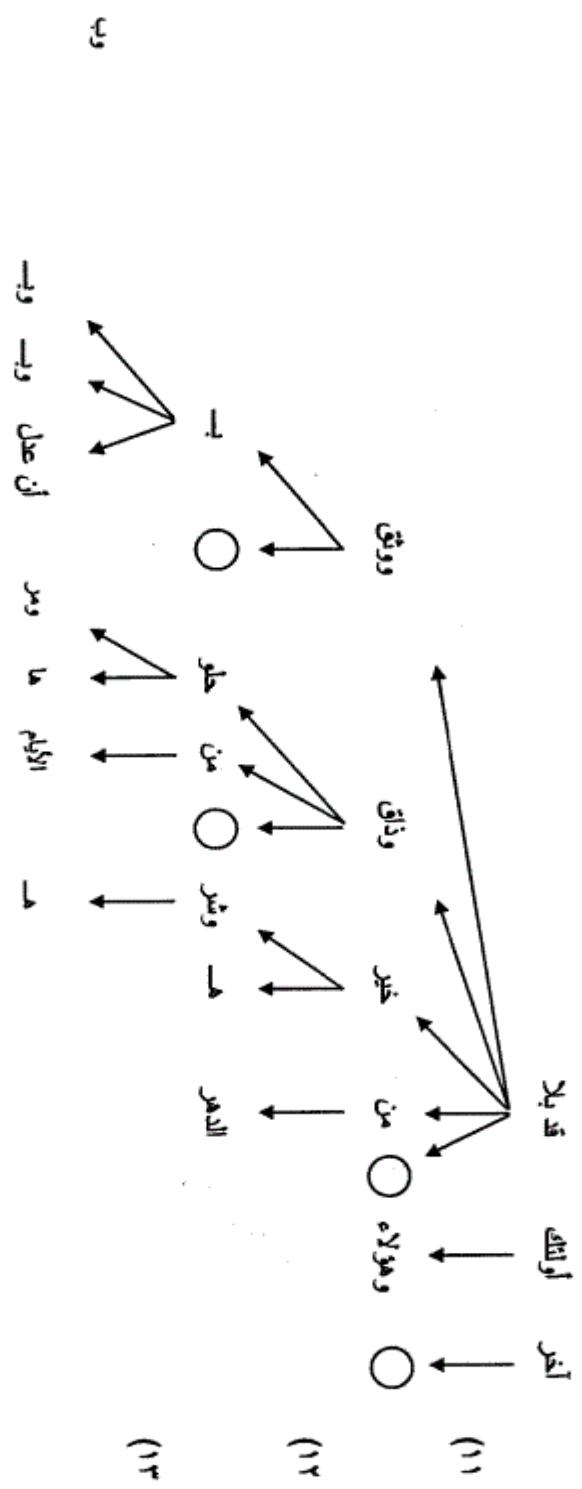
في هذا من إيضاح الإشكال بلاغ، وفيه بيان طرف من المتابعة والمعاقبة اللتين سبق في الفقرة الرابعة والثلاثين ذكر اتصاف نص طه حسين بهما، على حين اتصف نص الرافعي بالتوليد والتشقيق. ولكنه بيان غير كاف؛ إذ انحصر في علاقة ناقصة واقتصر على أحد المؤازنين.

### **تحليل علاقات أبرز جمل النصين:**

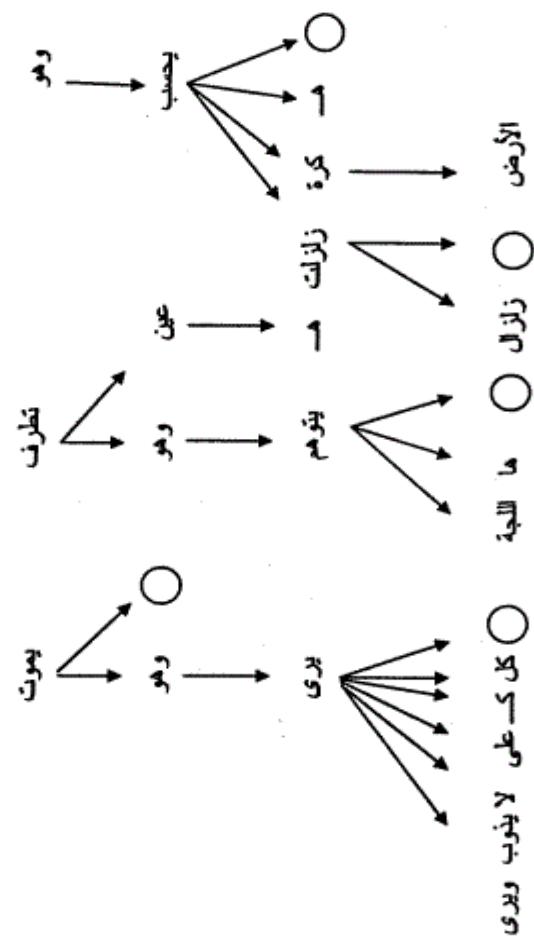
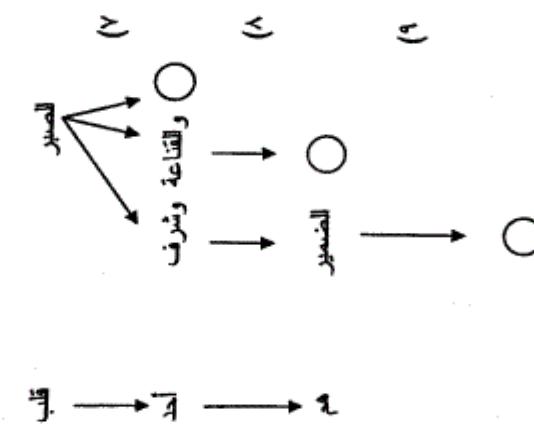
[٣٩] في الجملة التاسعة من نص طه حسين كما سبق في الفقرة الرابعة والثلاثين، تتجلى المتابعة والمعاقبة المفضييان إلى الصورة المركبة التجاورة الأجزاء، وفي الجملة السابعة من نص الراافي يتجلى التوليد والتشقيق المفضييان إلى الصورة المركبة المتداخلة الأجزاء. وفي الجدول الخامس حللت كلًا منها إلى كلمتها وعلاقتها؛ فاتضح لي أن إحدى عشرة علاقة من سبع عشرة (مجموع علاقات جملة الراافي) أي ٦٤٪، زادت حزم كلمتها على قرينتها، وأن ثلاث علاقات من ست عشرة (مجموع علاقات جملة طه حسين) أي ١٨٪ فقط، زادت حزم كلمتها على قرينتها، وهو بين في أن ارتفاع درجة تعقد علاقات الجملة، ينبع عند الراافي من كل جهة من جهاتها قصدًا، وينهض عند طه حسين من بعض جهاتها عفواً.

ولا ريب في أن موازنة نهضة الارتفاع في جملة طه حسين أي العلاقات (١٢، ١١، ١٢)، بمثال من نهضات الارتفاع في جملة الراافي كما في العلاقات (٧، ٨، ٩) - مما يقتضيه البيان<sup>(٣٩)</sup>:

**مثال طه حسين**



**مثال من الباقي**



مصادر العلاقة الأولى من هذين المثالين، ثلاثة في الأول وخمسة في الآخر، ومصادر العلاقة الثانية أربعة في الأول وسبعة في الآخر، ومصادر العلاقة الثالثة أربعة في الأول وخمسة في الآخر. وليس بعد هذا التدنس إلى مُضمن طوابي علاقة الكلمات (المعاني) المجتمعية التي هي عمل النحو الذي هو نظام أطوار اللغة والتفكير، من زيادة بيان لمستزيد.

إن الآناء التي مكنت الرافعي من أن ينتقل بين جهات جلته المختلفة يشقق لها العلاقات الكثيرة المختلفة المتراكبة طبقاً عن طبق التي يجزم بها الكلم الكثيرة المختلفة المتدايرة يميناً وشمالاً - لفتقرة في استيعابها إلى آناء مثلها بل أطول منها؛ إذ قد عمل الرافعي على يقين ما يوم، على حين يعمل المتلقى عنه على شك ما رأى الرافعي أمه. أما العجلة التي أضفت بطيء حسين إلى أن يكتفي من ذلك بأقله، فمكتفية في استيعابها بعجلة مثلها بل أقل منها؛ إذ قد عمل طه حسين مأزوماً بمنازعة الخواطر، على حين يعمل المتلقى عنه وادعاً غير مأزوم.

### طَوْرُ الثَّوْرَةِ وَالْعَجَلَةِ، وَطَوْرُ الْمَذَاهَةِ وَالآنَاءِ:

[٤٠] لقد جرى في نصي طه حسين والرافعي على رغم اختلافهما ثورة وهداة وعجلة وأناء، عمل النحو العربي نفسه، فإذا ثبت أن أحدهما عربي اللغة والتفكير لم ينخلع قط من عروبيتها بل هو فيها على النهج القديم كما سبق في الفقرتين الحادية والثلاثين والثانية والثلاثين، ثبت أن الآخر مثله، وإذا ثبت أن أحدهما ناجح باق، ثبت أن الآخر مثله، وأن ليس ثم - إن تمسكتنا بالاختلاف - غير طور من اللغة والتفكير بعد طور أو معه، يحفظ عروبيتها نظامها الباقى (النحو العربي). قال طه حسين: «يغلو قوم متأثرون بإشار القديم فيضيقون وفي الحياة سعة. ويغلو قوم متأثرون بإشار الجديد فيرتفعون عما ألف الناس. ومع ذلك فالقصد أساس الخير في كل شيء. لست أنا أبناء القرن الخامس للهجرة، ولست أنا أبناء القرن السادس عشر للهجرة، وإنما نحن أبناء القرن الرابع عشر للهجرة، وبينما وبين الماضي أسباب متصلة، وبيننا وبين المستقبل أسباب مستصل»<sup>(٣٣)</sup>، وما هذه الأسباب إلا النظام (النحو العربي) الذي يتنظم ماضي اللغة والتفكير العربين وحاضرها ومستقبلها جميعاً معاً في عقد الفكر العربي.

## خاتمة

يظل المرء في شأنه سادرا حتى يطّلع من غيره على ما يتباهى إلى ما هو عليه مما تخفيه عنه العادة. وربما استفز هو غيره إلى نقاذه، أو بدأه غيره. وسواء لدّيه أَصْدَقَهُ غَيْرُهُ أَمْ كَذَبَهُ؛ فسيتباهى إلى ما لم يكن ليتباهى إليه وحده.

لقد ركّن العربي إلى حضارته القوية، وأخلد إلى غطّة لم يتزعّه منها غير صخب عدوان حضارة غيره، ففزع إلى ماديات حضارته فوجدها عليلة كليلة، وإلى معنوياتها فوجد عدوه قد بثّ ألسنته تفّرّه منها أو تصغرّها عنده بعد أن كان يظنّها لا يجترئ عليها أحد: أما عقيّدته التي ساح في أرجاء الأرض يدعو إليها، لا يبتغي إلا أن يهتدى به غيره فيفوز عند ربه فورًا عظيمًا - فصارت مُهْزَمَة، وابناني له أن يستبدل بها ما لدى غيره من عقائد الانتصار. وأما لغته التي يراها فيرى عقيّدته والعلوم والمعارف والخبرات والأقوال والأفعال والإقرارات التي تعلقت بها منذ اعتقادها وإلى وقته الذي هو فيه - فصارت شيخة فانية، مُشَحَّثًا مُعْلَقاً، وابناني له أن يستبدل بها ما لدى غيره من لغات الفتّرة.

إنه إذا كان قدّيماً يجيئ لغته حتى ليرى من لم يتكلّمها أَعْجمَ بمنزلة العجمّاوات، ويستغرب بلاده صارخًا «لعن الله بلادًا ليس فيها عرب»، رائياً نفسه فيها «غريب الوجه واليد واللسان» - فقد اطلع حديثاً من غيره على أنه مثله، يرى لغته كما يرى هو لغته، حتى إنه ليعدّ غيرها نباح كلاب، ويستحلّ الكذب بها<sup>(٣٠)</sup>! وما أطرف دلالة أنه «عندما يكون الرجل الإنجليزي غير مفهوم فإنه يقول لمحثه: وهل أنا أتكلّم العربية. وعندما يكون العربي غير مفهوم فإنه يقول لمحثه: وهل أنا أتكلّم الصينية. وعندما يكون الصيني غير مفهوم يتساءل إن كان يتحدث الإنجليزية»<sup>(٣١)</sup> - على تمسّك كلّ بلغته!

من هذا الباب نفسه أي باب اللغة (أصل الاتصال البشري الباقى المستمر في وسائله المختلفة)، وعلى منهج العولمة (ظاهرة الاتصال الحضاري المستمرة في حاولاته المختلفة)، تطوع حديثاً بعض المستشرقين الذين طوفوا في بلادنا العربية من شرقها إلى غربها، وتأملوا من كثب، وعرفوا دون غيرهم كثيراً، ودرسوا تطور اللغة العربية ألفاظاً وتعابير، وتتطور التفكير اللغوي عند العرب في العصر الحديث، وجهاز رجال النهضة أدباء وعلماء تحديّت اللغة العربية وجعلها وافية بمقتضى الحياة - بملاحظة اقتراب اللغة العربية من عائلة لغات الثقافة الغربية، ثم ببيان ما يتبغي للغة العربية - والمراد العرب - أن تصطونه لتصبح عضواً عاملاً مؤثراً في تلك العائلة.

لقد خلط فيها انتهى إلى أفقاً ضعيفة منكراً وأخرى قوية معجّبة؛ فحفّزني إلى النظر فيها وفي لغتنا العربية التي نصّ منها على نياذج معينة؛ فانتهىت إلى ما يلي:

- فكرة «اللغة أداة» على اختلاف ما هي أداته، خطأً منها راجت على ألسن الكبار والصغرى.
- بين الفكر الذي هو إعمال الخاطر في الشيء، والتفكير الذي هو مبالغة في الفكر استغنى بها عنه لكثرة هذا الحديث وتعلق حياة الإنسان به، والفكر الذي هو ثمرة الفكر والتفكير - فروق واضحة.
- علاقة اللغة بالفِكْر هم الفلاسفة اللازم.
- علاقة اللغة بالتفكير من هموم النفسين اللغويين (اللغويين التفسيين).
- علاقة اللغة بالتفكير أساس عمل التقنيين علماء هندسة المعرفة والذكاء الاصطناعي.
- وعي علاقة اللغة بالتفكير، أصبح في ثقافتنا العربية.
- دلالة بعض الأفكار الاستشراقية على أن العرب الآن يفكرون بغير اللغة، أو لا يفكرون إذ لا لغة لهم - واهية نظرًا وعملاً.
- لا وجه لدلالة انقسام اللغة العربية إلى نعطيين: مبتذر مستهلك، ومتبع مصون، على أن العرب الآن مضطربون لغة وتفكيرًا.
- فيها قدم الدكتور علي عبد الواحد وفي من بحث للتطور اللغوي العام ولتطور اللغة العربية قديماً وحديثاً، بيان شاف كاف في رد وضمنها بالجمود، وفقه دقيق لمزالتها حديثاً منها قديماً، ومتزالتها قديماً منها حديثاً.
- كانت للإسلام والقرآن قديماً ثم لعلوم الأوائل وسيطاً ثم للفكر الغربي حديثاً، آثار لغوية تفكيرية بينة الدلالة على الحياة لا الجمود.
- للاستفادة من صحيح الفكر الحديث، مراحل أربع: الاتباع الأعمى، ثم الاتباع البصير، ثم الامتلاك، ثم الابتداع.
- اطراح الفكر القديم كاطراح الفكر الحديث، خسارة فادحة.
- علاقة الكلم (المعاني) المجتمعية، أهم من الكلم (المعاني) المنفردات أنفسها.
- علاقة كل الجملة (المعاني) المجتمعية، أهم من الكلم (المعاني) المنفردات أنفسها، وبالقياس تكون علاقة جمل الفقرة المجتمعية أهم من الجمل المنفردات، وعلاقة فقر النص المجتمعية أهم من الفقر المنفردات، وعلاقة نصوص الكتاب المجتمعية أهم من النصوص المنفردات؛ فإن التأمل يطيل النظر حتى تكتشف له رسالة الكتاب المستولية على نصوصه؛ فتكتشف بانكشافها قضايا النصوص، ثم أفكار الفقر، ثم فكريات الجمل، فتكون لمعان الكلم عندئذ قيمة.



## حوائي الفصل الأول وكتبه

- ١ - ستكيفيتش (الدكتور جاروسلاف): ((العربية الفصحي الحديثة: بحوث في تطور الألفاظ والأساليب)), ترجمة وعلق عليه الدكتور محمد حسن عبد العزيز، طبعة دار التمر بالقاهرة، سنة ١٩٨٥ م، ص ٢٨٤ - ٢٨٥ . والكتاب كما أخبرني الدكتور خليل الشيخ الأستاذ يقسم اللغة العربية من كلية الآداب بجامعة السلطان قابوس، الذي يعرفه هو مؤلفه وطريقاً من أخباره ويشير على عقله ونشاطه - رسالته للدكتوراه.
- ٢ - فك (يوهان): ((العربية: دراسات في اللغة واللهجات والأساليب)), ترجمه وقدم له وعلق عليه وصنع فهارسه الدكتور رمضان عبد التواب، طبعة المطبعة العربية الحديثة سنة ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م، نشرة مكتبة الخانجي بالقاهرة، ص ٢٣٨ - ٢٤٢؛ ففي فصل عنوانه ((نظرة خاطفة)), أشار إلى مثل ما رصد له ستكيفيتش كتابه، فافتقت بينها أفكار وأراء، واختلفت أخرى.
- ٣ - ابن منظور (أبو الفضل محمد بن مكرم المصري): ((السان العرب)), طبعة دار المعارف بالقاهرة، مادة أدو.
- ٤ - حسين (الدكتور طه): ((حديث الأربعاء)), الطبعة الحادية عشرة، نشرة دار المعارف بالقاهرة، ٢٩/٣.
- ٥ - شاكر (محمد محمد): ((أباطيل وأسماء)), طبعة المدى، الثانية سنة ١٩٨٢ م، ص ٥١٣.
- ٦ - في مجلس لأستاذنا محمود محمد شاكر سنة ١٩٩٢ م، حضره جماعة من العلماء: منهم الدكتور محمود محمد الطناхи - رحمه الله - والأستاذ عبد الحميد بسيوني، والأستاذ رضوان دعبول صاحب مؤسسة الرسالة (دار النشر المشهورة)، وغيرهم، سأله الأستاذ رضوان عقب حديث نشر الكتب العربية ذي الشجون: بم ترى لنا أن نبدأ الآن، يا أستاذ؟ فقال: بلسان العرب (المعجم)؛ فاللغة أهم ما تخذلون رسالة نشر، أو كما قال رحمه الله، ثم خاض في بيان مكان اللغة من الثقافة عامة، ومكان لغتنا من ثقافتنا خاصة.
- ٧ - ناصف (الدكتور مصطفى): ((اللغة بين البلاغة والأسلوبية)), العدد ٥٣ من كتاب النادي الأدبي الثقافي بجدة، بليادي الأخيرة ١٤٠٩ هـ - يناير ١٩٨٩ م، ص ٥١٩ - ٥٢١.
- ٨ - الجابري (الدكتور محمد عابد): ((نقد العقل العربي (١) تكوين العقل العربي)), الطبعة السابعة في أكتوبر ١٩٩٨، نشره مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، ص ٧٧.
- ٩ - يوسف (الدكتور جمعة سيد): ((سيكلولوجية اللغة والمرض العقلي)), العدد (١٤٥) من كتاب عالم المعرفة، ليناير ١٩٩٠ م، نشرة المجلس الوطني الكويتي؛ فقد وضع في العناوين، ((النكر)) بين قوسين بعد التفكير دون تفريق، وبهادر (الدكتورة سعدية محمد علي): ((في

- ٨١. سيكولوجية المراهقة)، طبعة سنة ١٩٨٠ م، نشرة دار البحوث العلمية بالكويت، ص ٨١ - ٨٢، وعلی، ص ١٣٩، ٣٣٦ - ٣٣٧.
- ١٠. ابن منظور، مادة (فکر).
- ١١. دي بونو (ادوارد): ((تعليم التفكير))، ترجمة الدكتور عادل عبد الكريم ياسين والأساتذين إيمان أحمد ملحم وتوفيق أحمد العمري، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٩ م، نشرة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي بالكويت، ص ٤٢.
- ١٢. محمود (الدكتور زكي نجيب): ((تجديد الفكر العربي)), طبعة دار الشروق بالقاهرة، الثامنة سنة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م.
- ١٣. محمود (الدكتور زكي نجيب): ((قشور ولباب)), طبعة دار الشروق بالقاهرة سنة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، ص ١٧٣.
- ١٤. الجابری، ص ٧٦.
- ١٥. ابن منظور، مادة نقط.
- ١٦. عبده (الدكتور داود): ((دراسات في علم اللغة النفسي)), طبعة سنة ١٩٨٤ م الأولى، نشرة جامعة الكويت، ص ٩ - ١٠؛ فقد سُرِّى بين المصطلحين: علم النفس اللغوي وعلم اللغة النفسي.
- ١٧. المساي (الدكتور عبد السلام): ((قراءات مع الشاعر والمتسلبي والباحثين وابن خلدون)), طبعة سنة ١٩٩٣ م الرابعة، نشرة دار سعاد الصباح بالقاهرة، ص ٦٩ - ٧٠.
- ١٨. عبده، ص ١٠.
- ١٩. يوسف، ص ١٥٢ - ١٥٠.
- ٢٠. السابق، ص ١٩٨ - ١٩٩، ٢٣٢ - ٢٣١.
- ٢١. عطية (الدكتورة نوال محمد): ((علم النفس اللغوي)), طبعة سنة ١٩٩٥ الثالثة، نشرة المكتبة الأكاديمية بالقاهرة، ص ١٥ - ١٩.
- ٢٢. علي (الدكتور نبيل): ((العرب وعصر المعلومات)), العدد ١٨٤ من كتاب عالم المعرفة لشهر شوال ١٤١٤ هـ - إبريل ١٩٩٤ م، نشرة المجلس الوطني الكويتي، ص ١٤٠ - ١٤١، ٣٣٦ - ٣٣٧.
- ٢٣. سبويه (أبو بشر عمرو بن قبتر): ((الكتاب)), تحقيق عبد السلام هارون، طبعة المدى الثالثة سنة ١٩٨٨ م، نشرة مكتبة الشانجي بالقاهرة؛ ففي كل موضع منه يتأمل الكلمات منفردة و مجتمعة: لم كانت على ذلك النحو ولم تكن على هذا، سائلًا نفسه أو أستاذه، رادًا الأمر إلى تفكير التكلم. والجرجاني (أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن النحوي):

((دلائل الإعجاز)), قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر، طبعة المدى سنة ١٩٨٤م، نشرة الخانجي بالقاهرة؛ فهو في بيان نظم الكلام والمعنى.  
وقد أفضى أستاذى الدكتور محمد حامد عبد اللطيف فى كتابه: ((النحو والدلالة: مدخل إلى دراسة المعنى النحوي الدلالي)), طبعة مطبعة المدينة، الأولى سنة ١٩٨٣ في بيان وحدة النظرية بين سببها وأجرجاني، وإكمال الخالق منها عمل السالف.

ومن الطريق هنا أنه لما كان الأستاذ الشايب قد فهم من كلام الجرجاني أنه يقول بأسلوب لفظي مصوغ على مثاله، وجدت الدكتور شكري محمد عياد استنكر ذلك قائلاً: ((وضع الأستاذ الشايب لقضية اللفظ والمعنى يتتجاوز كل ما كتبه عبد القاهر حول هذا الموضوع. فلم يذهب عبد القاهر فقط إلى مثل قول الأستاذ الشايب إن هناك أسلوبًا معنويًا وأسلوبًا لفظيًّا يتكون على مثاله. ولاشك أن هذا تبسيط شديد للعلاقة بين اللغة والذكرا، ولكن الإجماع منقددين الباحثين في اللغة والأدب والأثر وbiology وعلم النفس على أن العلاقة بين اللغة والذكرا لا تتم من جانب واحد يمكن أن يعد أحدهما أصلًا والآخر صورة له)), ص ٢٩ من كتابه: ((اللغة والإبداع: مبادي علم الأسلوب العربي)), طبعة سنة ١٩٨٨م الأولى، نشرة إنترناشونال برس بالقاهرة.

وكذلك ناصر (الدكتور مصطفى): ((نظرية المعنى في النقد العربي)), طبعة دار الأندرس بيروت، ولاسيما ص ٣٨ التي قرب فيها استعمالات العرب القدماء لكلمات المعنى واللفظ.  
وبين يديّ كتيب لعنير (الأستاذ أحد محمد): ((قضية الأدب بين اللفظ والمعنى أو بين الأشكال والدلالات قديماً وحديثاً)), طبعة دار الكتاب العربي بمصر (محمد حلمي المياوي)، في أغسطس ١٩٥٤م - متواضع متجاوز، غير أن فيه طرافة باقية يوصوله من خلال استفتاء جمع كبير من الأدباء، منهم من ملا الدنيا بعد ذلك، إلى أن المعنى والعبارات تتكون في الذهن في وقت واحد معاً.

- ٢٤ - على، ص ١٣٩.

- ٢٥ - التوحيد (أبو حيان): ((كتاب الإمتناع والمؤانسة)), صحيحه وضبيطه وشرح غريه أحد أمين وأحمد الزين، نشرة لجنة التأليف والترجمة والنشر، بالقاهرة، والمكتبة العصرية بيروت، ١٠٩ / ٤١٢٨ - ٤٢٦، فيه نص مناظرة أبي سعيد السيرافي وأبي بشر القناني سنة ٣٢٦هـ في أن يونان على ما يؤدبه منطقهم المترجم عنهم، دون غيرهم من الأمم ((أصحاب عناية بالحكمة والبحث عن ظاهر هذا العالم وباطنه، وعن كل ما يصل به وينفصل عنه، ويفضل عنايتهم ظهر ما ظهر وانتشر ما انتشر وفتشا ما فتشا ونشأ ما نشأ من أنواع العلم وأصناف الصنائع؛ ولم نجد هذا لغيرهم)), وهو ما كان أبو سعيد رآه دعوة إلى اللغة اليونانية. كذلك شاكر، فصل ((... وهذه هي أخطارها)). إنها سنة غريبة قديمة مأثورة مستمرة.

- ٢٦ - الجابري، ص ٧٩ - ٨٠.

- ٢٧ - وافي (الدكتور علي عبد الواحد): ((فقه اللغة)), طبعة دار نهضة مصر، بفجالة القاهرة ص ١٥٣.
- ٢٨ - السابق، ص ١٦٠.
- ٢٩ - أونج (والتر. ج): ((الشفافية والكتابية)), العدد ١٨٢ من كتاب عالم المعرفة، لشعبان ١٤١٤ هـ - فبراير ١٩٩٤ م، نشرة المجلس الوطني الكوري، ص ٢٠٣. ولللغة القديمة فيها سبق من بحثنا، هي اللغة المكتوبة عنده.
- ٣٠ - وافي: ((علم اللغة)), طبعة دار نهضة مصر بفجالة القاهرة، التاسعة.
- ٣١ - وافي: ((فقه اللغة)) السابق.
- ٣٢ - السابق، ص ١٥٤ - ١٥٣.
- ٣٣ - برجشترا مر (ج): ((التطور النحوي للغة العربية)), أخرجه وصححه وعلق عليه الدكتور رمضان عبد التواب، طبعة ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م، نشرة الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض؛ ففي عربة القرن الأولى بعد الهجرة ألقى برجشترا مر الألماني، سنة ١٩٢٩ م بالجامعة المصرية، محاضراته العربية في المسائل التاريخية الخاصة باللغة العربية في طورها كما لها. ثم تبه على الحاجة إلى بيان تاريخها متذبذبة إلى الآن، وأن أهم موضوعاته تكون لهجات الدارجة على اختلافها. وأشار إلى أن في النظر إلى اللغة العربية من الوجهة التاريخية فائدتين: الأولى إكمال معرفتها، والأخرى معرفة طريق علم اللغة الغربي الذي يحسن استيعاب العرب له من خلال لغتهم!
- ٣٤ - سورة الرعد، من الآية ١١.
- ٣٥ - ابن ماجه (أبو عبدالله محمد بن يزيد القرزياني الحافظ): ((ستن ابن ماجه)), حققه الأستاذ محمد فؤاد الباقى، نشرة دار الكتب العلمية بيروت، ١٣٩٥ / ٢.
- ٣٦ - البخاري (أبو عبدالله محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن المغيرة بن بزدزبه الجعفسي): (( الصحيح البخاري)), نشرة دار إحياء التراث العربي، ١ / ١٤، والعسقلاني (أحمد بن علي بن حجر): ((فتح الباري بشرح صحيح البخاري)), قام عليه عبد العزيز بن باز ومحمد فؤاد عبد الباقى ومحب الدين الخطيب، نشرة دار المعرفة بيروت، ١ / ٨٦.
- ٣٧ - محمد (الدكتور محمد سيد): ((الإعلام واللغة)), طبعة ١٩٨٤ م، نشرة عالم الكتب بالقاهرة، ص ٤٥ فقد ذكر عن سارتر أنه لما قال طالب فرنسي لصديقه الزنجي: ((تشتعل الآن كما يشتعل الزنجي)) - وإن لم ينطق الكلمة الأخيرة، فقد فهمت من هذا المثل التعبيري - هجره صديقه إلى غير لقاء آسفًا لهذه البقية العنصرية (الجاليلية) التي لم يطرحها من لغته وتفكيره!

- ٣٨- ابن نبي (مالك): ((الظاهرة القرآنية)), ترجمة الدكتور عبد الصبور شاهين، طبعة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بدمشق، ص ١٨٤، ١٨٥.
- ٣٩- عبد التواب (الدكتور رمضان): ((قصول في فقه العربية)), طبعة سفنكس الثانية سنة ١٤٠٤ هـ = ١٩٨٣ م، نشرة مكتبة الحانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض، ص ١٠٨، ١١٥.
- ٤٠- ضيف (الدكتور شوقي): ((البلاغة تطور وتاريخ)), طبعة دار المعارف بالقاهرة، السادسة، ص ٢٠.
- ٤١- عابدين (الدكتور عبد المجيد عابدين): ((الأمثال في الشعر العربي القديم مع مقارتها بنظائرها في الأدب السامي الأخرى)), طبعة دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية، سنة ١٩٨٩ م، ص ١٨١.
- ٤٢- عمود: ((تجديد الفكر العربي)), ص ٢٩٢.
- ٤٣- العقاد (عباس محمود): ((شعراء مصر ويتلهم في الجيل الماضي)), العدد ٢٥٢ من كتاب الملال المصري، لشهر ذي القعدة ١٣٩١ هـ - ١٩٧٢ م، ص ٨٩ - ٩٠؛ فقد نظرتُ فيها ذكرٌ من ضروب تجريب الجديد، إلى ما ذكر من مراحل مرور الشعر من الركود والجمود إلى النهضة والجودة، وهي: التقليد الضعيف أو التقليد للتقليد، والتقليد المحكم أو التقليد المترج بشيء من القدرة، والابتکار الناشئ من شعور بالحرية القومية، والابتکار الناشئ من شعور بالحرية الفردية. والعجب للدكتور زكي نجيب محمود، جعل العقاد في القسم الأول مما سبق، الذي قيلَ الفكر الغربي كله وعمسك بالفكر العربي كلِه، ولم يكن منه، بل من القسم الرابع الذي قبل بعضاً من كُلِّ منها دون بعض، تشهد لذلك أعياله. ومن الطريف دلالةً، أنني سمعت قريباً حدث العقاد المتألف الوحيدة، مرة أخرى، وفيه للمتأنل ما يجعله في القسم الرابع حتى!
- ٤٤- ناصف: ((اللغة بين ...)), ص ١٣٩ - ١٤٠، ١٤١، ١٤٢ - ١٨٥، ١٨٦ - ١٨٧.
- ٤٥- محمد، ص ٣٠، والجزيرية (القناة الفضائية القطرية): ((بلا حدود)), ٤/١ - ١٤٢٢ هـ = ٢٠٠١/٣/٢٩، موقع الجزيرة على الإنترنت، من قسم البرامج الحية، Page 12 of 21؛ فقد أشار الدكتور نبيل علي عالم هندسة المعرفة والذكاء الاصطناعي، ضيف البرنامج، إلى مؤتمر لليونسكو حضره أخيراً، في قضية التنوع اللغوي وخطورة الانقراض المخوف على لغات العالم، وأمساكه انقراض لغة منها كل أسبوعين، ((بكل ما يعنيه هذا من اختفاء رصيد ثقافي عظيم جداً)).
- ٤٦- العسقلاني، ٦/٣٨٧.

- ٤٧ - أمين (الدكتور عثمان): ((فلسفة اللغة العربية)), العدد ١٤٤ من المكتبة الثقافية، لشهر نوفمبر ١٩٦٥ م، نشرة الدار المصرية للتأليف والترجمة، توزيع مكتبة مصر بفجالة القاهرة، ص ٩ وما يليها.
- ٤٨ - أبو ديب (الدكتور كمال): ((الرؤى المقنعة: نحو منهج بنبوبي في دراسة الشعر الجاهلي (١) البنية والرقابة)), طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٨٦ م، ص ٢٥.
- ٤٩ - ابن الأثير (أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن أبي الكرم محمد الشيباني الجزري): ((المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر)), قدم له وحققه وعلق عليه الدكتور أنـه الحوفي ويدوي طباعة، نشرة دار ثقافة مصر بالقاهرة، ١٦٦/١، ور تشارذ (أ.أ.): ((العلم والشعر)), ترجمة الدكتور مصطفى بدوي، وراجعته الدكتورة سهير القلواوي، نشرة مكتبة الأنجلو المصرية، ص ٤٦، وفيشر (إرنست): ((ضرورة الفن)), نقله إلى العربية الدكتور ميشال سليمان، نشرة دار الحقيقة بيروت، ص ٢٠٤، ووات (سكوت): ((كيف تضاعف ذكاءك)), طبعة سنة ٢٠٠٠ م الأولى، نشرة مكتبة جرير برباض السعودية، ص ٤٩ - ٥٣، وفيما أورده الباحث الأخير وهو محل اقتصادي، دليل عموم التسليم بداعية هذه الفكرة الآن.
- ٥٠ - المرزباني (أبو عبيد محمد بن عمران بن موسى): ((الموشح: مأخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر)), تحقيق علي محمد البحاري، طبعة دار الفكر العربي بالقاهرة، ص ٣٥٦.
- ٥١ - فضل (الدكتور صلاح): ((نظرية البنائية في النقد الأدبي)), طبعة سنة ١٩٩٢ م، نشرة مؤسسة مختار بالقاهرة، ص ٤٥٦.
- ٥٢ - علي (الدكتور نبيل)، ص ١٤٢.
- ٥٣ - البرجاني، ص ٨١ - ٨٣، ٩٨، ٨٤، ٩٨، وحسان (الدكتور علام): ((اللغة العربية: معناها ومنابها)), طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، الثانية سنة ١٩٧٩ م، ص ١٨٥ - ١٩٠، وعبد اللطيف، ص ٩٩ - ١٠٢، ١٠٣ - ١٠٤، ١٠٥ - ١٠٦، وناصف: ((اللغة بين...)), ص ٢٥٣ - ٢٥٤، ٢٤٨ - ٢٤٦، ٢٥٨، ٢٧٢ - ٢٧٣، ٢٧٧، وعبد المطلب (الدكتور محمد): ((البلاغة والأسلوبية)), طبعة دار نوبار بالقاهرة سنة ١٩٩٤ م، نشرة مكتبة لبنان بيروت والشركة المصرية العالمية (لونجينيان) بمصر، ص ٥٥.
- ٥٤ - مصلوح (الدكتور سعد): ((العربية من نحو (الجملة) إلى نحو (النص))), بحث بالكتاب التذكاري (عبد السلام هارون: معلماً ومؤلفاً ومحفظاً)، الذي أصدره الدكتوران وديعة طه النجم وعبد بدوي، نشرة سنة ١٤١٠ هـ = ١٩٩٠ م، ص ٤٣١ .

- ٥٥ - تشومسكي (نعمون): ((اللغة والعقل)), ترجمة يسأدان علي العلكاوي، ومراجعة الدكتور سليمان داود الواسطي، طبعة دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية)، سنة ١٩٩٦ م، ص ٣١-٣٢.
- ٥٦ - علي، ص ١٣٩، وإبراهيم (الدكتور زكريا): ((مشكلات فلسفية ٨: مشكلة البنية)), طبعة سنة ١٩٩٠ م، نشرة دار سخنون بتونس ومكتبة مصر بالقاهرة، ص ٦٨.
- ٥٧ - إبراهيم، ص ٦٧، وزكريا (الدكتور ميشال): ((الألسنة (علم اللغة الحديث) المبادئ والأعلام)), الطبعة الثانية سنة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، نشرة المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ص ٢١٢.
- ٥٨ - تشومسكي: ٢٤-٢٦.
- ٥٩ - الوعر (الدكتور مازن): (( نحو نظرية لسانية عربية حديثة لتحليل التركيب الأساسية في اللغة العربية)), الطبعة الثانية سنة ١٩٩٢ م، نشرة دار طлас بدمشق، ص ٢٥٠.
- ٦٠ - بورا (ك. موريس): ((الفناء والشعر عند الشعوب البدائية)), ترجمة يوسف شلب الشام، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٢ م، نشرة دار طлас بدمشق، ص ٣٦-٣٧.
- ٦١ - حسان، ص ١٩٣.
- ٦٢ - أمين، ص ١٠٥.
- ٦٣ - صادق (الدكتورة آمال أحد خثار): ((لغة الموسيقا: دراسة في علم النفس اللغوي وتطبيقاته في مجال الموسيقي)), الطبعة الأولى سنة ١٩٨٨ م، نشرة مركز التنمية البشرية والمعلومات بالقاهرة، ص ١٠٨؛ فقد استعملت مصطلح ((النحو الإيقاعي)) لنحو الإيقاع، ولما كانت الموسيقا عند أهلها تفكيراً معرفياً، جاز مصطلح نحو التفكير جوازاً حسناً! ستيفيتشن ص ٢٧٨.
- ٦٤ - الوعر، ص ١٨-١٩.
- ٦٥ - الطراطلي (الدكتور محمد الهادي): ((خصائص الأسلوب في الشوقيات)), طبعة سنة ١٩٨١ م، نشرة الجامعة التونسية، ص ٣١٨.
- ٦٦ - عبد، ص ٢١.
- ٦٧ - وافي: ((فقه اللغة)), ص ١٥٢.
- ٦٨ - الحمزاوي (الدكتور محمد رشاد): ((العربية والحداثة أو الفصاحة فصاحتا)), طبعة سنة ١٩٨٢ م، نشرة المعهد القومي لعلوم التربية بتونس، ص ١٥٩ - ١٧٠.

- ٧٠ - عياد، ص ٣٢ - ٣٣، وعبد المطلب، ص ١٢٩ - ١٣١؛ ففيها من سيرة مصطلح ((الأسلوب)) في كتب النقد العربي من قديم إلى حديث، ما ينكر تسمية مثل هذه التعبيرات، أساليب.
- ٧١ - أدونيس (علي أحد سعيد): ((زمن الشعر)), الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٣ م، نشرة دار العودة بيروت، ١٣، ٤٠، ١١٣، وغيرها.
- ٧٢ - أدونيس: ((النص القرائي وأفاق الكتابة)), طبعة سنة ١٩٩٣ م، نشرة دار الآداب بيروت، ص ٩٦ - ٩٨ - وراجع الخراط (إدوار): ((أنا والطابور: مقاطع من (سيرة ذاتية للكتابة) عن السلطة والحرية)), مقال بالعدد (٣) المجلد (١١) من مجلة فصول خريف ١٩٩٢ م، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ٤٦، ٤٤٧؛ فقد طبع إلى أن يتحرر من نظام اللغة والتفكير، ثم خاف من هذه الحرية.
- ٧٣ - عياد، ص ١١٠ - ١١١.
- ٧٤ - محمود: ((تجديد الفكر العربي)), ص ٣٦٢ - ٣٦٥.
- ٧٥ - السابق، ص ٢٢٣.
- ٧٦ - حسين، ٣٠ / ٣.
- ٧٧ - السابق، ١٣ / ٣.
- ٧٨ - السابق، ١٢ / ٣.
- ٧٩ - السابق، ٣٥، ٢٩ / ٣.
- ٨٠ - السابق، ١٣ / ٣.
- ٨١ - محمود: ((تجديد الفكر العربي)), ص ٢٩٢.
- ٨٢ - الرافعي (مصطفى صادق): ((وحي القلم)), خبيثه وضاحمه وعلق حواشيه محمد سعيد العريان، نشرة دار الكتاب العربي بيروت؛ فقد سخر من السخر في مقاله الحواري (اللسان المرقع) مثلاً، من (حضررة صاحب السعادة) الذي خير منه قروي ساذج يكون لقبه (حضررة صاحب الجاموسة)، مستهلاً بقوله: ((وقال صاحب سر (م) باشا: جاء حضررة صاحب السعادة) فلان لزيارة الباشا. وهو رجل مصرى ولد في بعض القرى، ما نعلم أن الله - تعالى - ميزه بجوهر غير الجوهر، ولا طبع غير الطبع، ولا تركيب غير التركيب، ولا زاد في دمه نقطة زهو، ولا وضعه موضع الوسط بين فتى من الخلقة - غير أنه زار فرنسا، وطاف بإنجلترا، وساح في إيطاليا، وعاج على ألمانيا، ولوّن نفسه ألواناً، فهو مصرى ملون؛ ومن ثم كان لا يرى في بلاده وقومه إلا الفروق بين ما هنا وبين ما هناك، فما يظهر له دين قومه إلا مقابلًا لشهوات أحبتها وغامر فيها، ولا لغة قومه إلا مقرونة بلغة أخرى وذلو كان من أهلها، ولا تاريخ قومه إلا مُفْعَى عليه، كالمليت بين تواريخ الأمم. هو

كغيره من هؤلاء المترفين المتعمين، مصرى المال فقط؛ إذ كانت أسبابهم ومستغلاتهم في مصر، عربيُّ الاسم لا غير؛ إذ كانت أسبابهم من جناتة أهلיהם بالطبيعة، مسلمٌ ما مضى دون ما هو حاضر؛ إذ كان لا حيلة في أسبابهم التي انحدروا منها. هو كغيره من هؤلاء المترفين المتعمين المفتونين بالمدنية، لكل منهم جنسه المصري، ولتفكيره جنس آخر. قال: وكان حضرة صاحب السعادة يكلم الباسا بالعربية التي تلعلها العربية، مرتفعاً بها عن لغة الفصيح ارتفاعاً منحطأً، نازلاً بها عن لغة السوقة نزوأً (عليها)، ٢٩٦/٢.

٨٣ - حسين: (بيَنَ بيَنَ)، الطبعة الثانية عشرة سنة ١٩٨٣م، نشرة دار العلم للملائين بيروت، ص ٤١. وقد أعدت ترقيم النص كما ينبغي، وأثبتت عليه علامات تقسيمه إلى جمله. وفيه ((بل)) هكذا، المشهور في رسم هذه الألف الرواية الأصل ((بلا)) على ما آثرت. والرجل ثُمَّ لا كتاب!

٨٤ - الرافعي: (حدث القمر)، الطبعة الثامنة سنة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، نشرة دار الكتاب العربي بيروت، ص ٤٠. وقد أعدت ترقيم النص كما ينبغي، وأثبتت عليه علامات تقسيمه إلى جمله كذلك.

٨٥ - جدولت هنا نوعي المسند والمسند إليه في كل جملة من جمل نص طه حسين الثلاث عشرة، على حسب ورودها فيه. أما المسند فال فعل أو الخبر، وأما المسند إليه فالفاعل أو المبتدأ، وقد تعارف البلاغيون الذين يتمسكون بهذه المصطلحين، ولا سيما متأخرون، على البدء بالمسند إليه بما يقتضي أن يوضع في يمين الجدول، السيوطي (جلال الدين): ((شرح عقود الجماعة في علم المعانى والبيان)), طبعة مصطفى الباجي الحلبى، سنة ١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م، وصقر (الدكتور محمد جمال): ((الأمثال العربية القديمة: دراسة نحوية)), طبعة المدى ب BASA القاهرة، سنة ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، ص ٣٠، ولكنني أثربت هنا أن أضع في يمين الجدول المسند؛ فلن أقف عند أي من مؤسسي الجملة (المسند والمسند إليه)، بل أتناولها بها؛ فما هي إلا مركب لغوي من عنصرين مؤسسين ينتهي علاقته إسناد، ربما ارتبطت بأحد هما أو كليهما عناصر أخرى مكتملة أو ملوئنة. ثم المسند موطن الفائدة الطبيعي منها.

٨٦ - جدولت هنا نوعي المسند والمسند إليه في كل جملة من جمل نص الرافعي السبع، على حسب ورودها فيه كذلك.

٨٧ - جدولت هنا عدد كلام كل جملة من جمل نص طه حسين، وعدد علاقاتها، ثم استخرجت بقسمة الأولى على الثاني، متوسط نصيب العلاقة من الكلم في الجملة المعينة وفي الجمل كلها. والكلمة المقصودة هنا عنصر لغوي من الجملة، يؤسسها مع قسميه أو يكتمل أحد مؤسسيها أو كليهما، أو يلتوها أي يؤدي معنى طارقاً عليها أو على أي من عناصرها المؤسسة أو المكتملة. هو تعريف يراعي وظيفة الكلمة في الجملة كثيراً، فلا يعد (ها)

التبهية، ولا (أـ) الموصولة، ولا (كـ) الخطابية وما أشبهها، كـلم، بل أجزاء كـلم، على حين يـعد من الكلـم (يـا) النـائية، و(قدـ) التـحقيقـة، و(تـ) الفـاعلـية وما أـشبهـها. أما العلاقة المقصودـة هنا فـربـاطـ الكلـمـ التـأسيـيـ (الـإـسـنـادـ) أوـ التـكـسـيلـ (التـقـيـدـ) فـقطـ؛ إذـ لـماـ كانـتـ المـلـوـنـاتـ تـضـافـ إـلـىـ ماـ لـوـنـتهـ، لمـ نـعـدـ بـرـبـاطـهـاـ التـلوـينـيـ.

جـدولـتـ هـنـاـ مـنـ كـلـ جـلـةـ مـنـ جـلـ نـصـ الرـافـعـيـ، عـلـ مـثـالـ الجـدـولـ الثـالـثـ.

جـدولـتـ هـنـاـ مـنـ الجـمـلـتـينـ التـاسـعـةـ بـنـصـ طـ حـسـينـ وـالـسـابـعـةـ بـنـصـ الرـافـعـيـ وـهـاـ أـبـرـزـ جـلـهـاـ جـيـمـاـ كـمـ يـتـضـعـ مـنـ الجـدـولـنـ السـابـقـينــ كـلـمـ كـلـ عـلـاقـةـ. وـقـدـ نـقـصـتـ كـلـمـ كـلـ مـنـ التـصـينـ، كـلـمـتـينـ كـانـتـ مـفـتـحـ التـعـلـقـ، وـخـلـتـ عـلـاقـةـ جـلـةـ طـ حـسـينـ، السـادـسـةـ عـشـرـةـ، مـنـ الـكـلـمـ، لـاستـارـهـ.

٩٠ـ بـنـيـتـ هـنـاـ مـنـحنـيـ مـتوـسـطـ كـلـمـ العـلـاقـةـ (الـمـحـورـ (صـ))ـ فـيـ كـلـ جـلـةـ (الـمـحـورـ (سـ))ـ مـنـ جـلـ نـصـ طـ حـسـينـ بـالـخـطـ المـتـصلـ، وـمـنـ جـلـ نـصـ الرـافـعـيـ بـالـخـطـ المـتـقطـعـ. وـالـمـادـةـ مـسـتـفـادـةـ مـنـ الجـدـولـنـ الثـالـثـ وـالـرـابـعـ.

٩١ـ جـدولـتـ هـنـاـ عـلـ حـسـبـ الـرـوـرـودـ، عـلـاقـاتـ جـلـ نـصـ طـ حـسـينـ الـاثـنـيـ عـشـرــ إـذـ الـأـخـيـرـةـ غـيرـ مـتـعـلـقـ بـشـيـءـ بـعـدـهــ مـرـاعـيـاـ مـنـ أحـوـالـ الـجـمـلـ خـبـرـيـهـاـ وـإـنـشـائـيـهـاــ إـذـ هـيـ الـحـالـ الـمـعـتـبـرـةـ هـنـاـ، رـاجـعـ اـبـنـ هـشـامـ (الـأـنـصـارـيـ الـمـصـرـيـ)ـ:ـ ((مـغـنـيـ الـلـيـبـ عـنـ كـتـبـ الـأـعـارـيبـ))ـ، طـبـعـةـ عـيـسـىـ الـبـاـيـ الـلـهـبـيـ بـالـقـاهـرـةـ، ٢٠٠٠ـ /ـ ٢ـ، وـحـسـنـ (عـبـاسـ)ـ:ـ ((الـنـحـوـ الـوـافـيـ))ـ، طـبـعـةـ دـارـ الـمـعـارـفـ بـمـصـرـ، السـادـسـةـ، ٦٥٢ـ /ـ ٣ـ، وـقـاصـداـ بـعـلـاقـةـ الـعـطـفـ ضـمـ الـلـاحـقـةـ بـأـدـاءـ خـاصـةـ إـلـىـ السـابـقـ، وـعـلـاقـةـ الـإـسـتـنـافـ جـوـارـ الـلـاحـقـةـ لـلـسـابـقـ، وـعـلـاقـةـ الـاعـتـراضـ اـشـتـئـالـ السـابـقـةـ عـلـ الـلـاحـقـةـ بـيـنـ أـجـزـائـهـاـ.

٩٢ـ جـدولـتـ هـنـاـ عـلـ حـسـبـ الـرـوـرـودـ، عـلـاقـاتـ جـلـ نـصـ الرـافـعـيـ السـتـــ إـذـ الـأـخـيـرـةـ غـيرـ مـتـعـلـقـ بـشـيـءـ بـعـدـهــ عـلـ مـثـالـ الجـدـولـ السـادـسـ.

٩٣ـ وـهـبـهـ (للـدـكـتـورـ مـحـمـدـ)ـ:ـ ((مـعـجمـ مـصـطـلـحـاتـ الـأـدـبـ))ـ، نـشـرـةـ مـكـبـةـ لـبـنـانـ بـبـيـرـوـتـ، صـ ٤٦٧ـ؛ـ فـقـيـهـ بـيـانـ لـلـوـاقـعـيـةـ يـؤـيدـ مـاـ نـسـبـتـ إـلـيـهـ طـ حـسـينـ فـيـ نـصـهـ الـمـخـتـارـ، وـلـاـ عـلـيـهـ أـلـاـ يـكـونـ كـذـلـكـ فـيـ غـيرـهــ.

٩٤ـ السـابـقـ، صـ ٢٣٤ـ؛ـ فـقـيـهـ بـيـانـ لـلـمـثـالـيـةـ يـؤـيدـ مـاـ نـسـبـتـ إـلـيـهـ الرـافـعـيـ فـيـ نـصـهـ الـمـخـتـارـ، وـلـاـ عـلـيـهـ أـلـاـ يـكـونـ كـذـلـكـ فـيـ غـيرـهــ.

٩٥ـ هيـكلـ (الـدـكـتـورـ أـحـدـ)ـ:ـ ((تـطـورـ الـأـدـبـ الـخـدـيـثـ فـيـ مـصـرـ مـنـ أـوـاـلـ الـقـرنـ الـتـاسـعـ عـشـرـ إـلـىـ قـيـامـ الـحـرـبـ الـكـبـرـيـ الـثـانـيـ))ـ، طـبـعـةـ دـارـ الـمـعـارـفـ بـالـقـاهـرـةـ، السـادـسـةـ سـنـةـ ١٩٩٤ـ مـ، صـ ٣٨٠ـ.

٩٦ـ السـابـقـ، صـ ٣٨٧ـ.

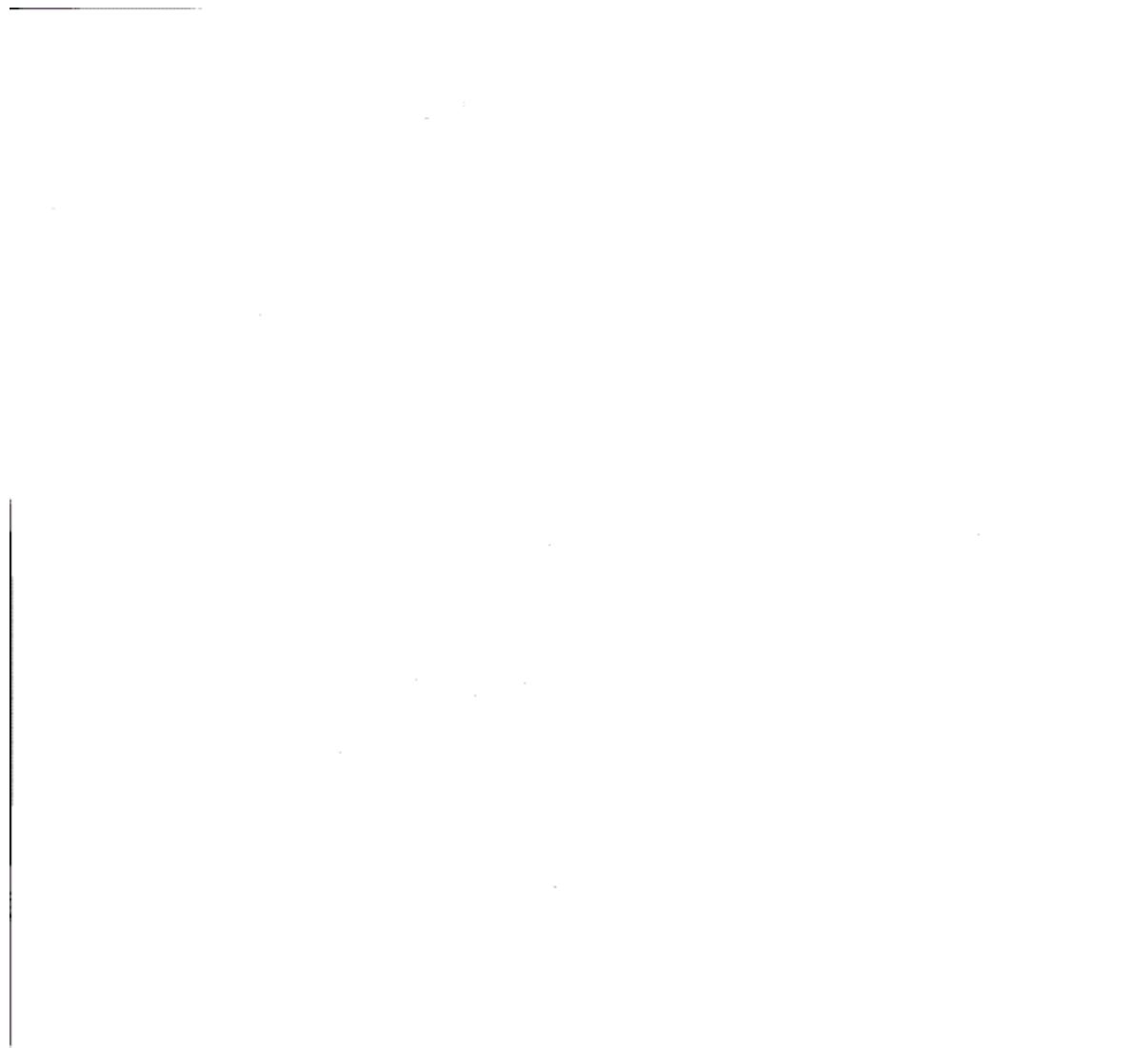
- ٩٧ - السابق، ص ٣٨٠.
- ٩٨ - طباعة (الدكتور بدوي): ((معجم البلاغة العربية)), الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٨ م، نشرة دار المدارس بجدة ودار الرفاعي بالرياض، ص ١٢٥؛ فيه أن التجريد المحسن أن يكون ظاهر خطاب المتكلم، لغيره، وهو لنفسه.
- ٩٩ - حسن، ٤/١.
- ١٠٠ - فندرس (جوزيف): ((اللغة)), تعریب عبد الحميد الدوادلي و محمد القصاص، طبعة سنة ١٩٥٠ م، نشرة مكتبة الأنجلو المصرية، ص ١٩٥، وصفق، ص ٢٠٢، ٢٠٣.
- ١٠١ - يقوم التحليل الذي أجمله الجدولان الثالث والرابع، وفصله الجدول الخامس، وبينه تشجير المثالين التاليين - على تفرق الكلم (المعان) المجتمع، وضبط علاقة السابقة منها باللاحقة بهم يخرج من الأولى إلى الآخرة، وسواء أكانت أيًّا منها مذكورة محسوبة، أم غير مذكورة ولا محسوبة حالة محلها الدائرة المفرغة، على نيع كأنه إعراب بالأسم - ثم على عد جميع ما في درجة واحدة من الكلمات منها اختلفت مصادر علاقتها، علاقة واحدة - جاريًا على النظر النحوى المشهور المتداول من قديم إلى حديث.
- ولقد كان ضبط التشجير نتيجة تناظري فيه أنا وأخى العزيز الدكتور محمد نادر عبد الحكيم مدرس علم اللغة الحديث بقسم اللغة العربية من كلية الآلسن بالقاهرة وكلية الأدب بمسقط.
- ١٠٢ - حسين، ٣/١٢.
- ١٠٣ - علي، ص ٣٤٧.
- ١٠٤ - محمد، ص ١٣.
- ١٠٥ - دعا أستاذنا محمود محمد شاكر، العقاد - رحهما الله - أستاذ، فأنكر العقاد ذلك وكأنه استمع إليه، فذكر أستاذنا أنه تعلم منه طرقًا مما يقال عن الإسلام. وللعقاد كتاب بهذا الاسم ((ما يقال عن الإسلام)) مهم، غير أن المقصود - لا ريب - أكبر. ولقد اجتهدت أن أستوعب عن أستاذنا سألاً وقراءة، طرقاً مما عليه من ذلك وما به عليه، ثم تيسر لي سنة ١٩٩٩ م، تدريس مقرر الاستشراق بجامعة السلطان قابوس بمسقط، فتأملت مالاً يتأمله إلا من درس أو ألف، ولasisياً أنني حصرت المقرر في اللغة العربية.

الفَصْلُ الثَّانِي

هَلْهَلَةُ الشِّعْرِ الْعَرَبِيِّ

الْقَدِيمِ

جَزَالَةُ أَوْ رَكَاكَةُ



## مقدمة

### هللة الشعر

[١] عَدِيُّ مُهَلْهَلٍ بْنُ رَبِيعَةَ التَّعْلَبِيُّ أَخْرُو وَالْأَنْكَبِ، شَاعِرٌ جَاهِلِيٌّ قَدِيمٌ، عَاشَ آخِرَ الْقَرْنِ الْمِيَلَادِيِّ الْخَامِسِ وَأَوَّلَ السَّادِسِ<sup>(١)</sup>، وَذَكَرَهُ بِأَوْلَى الشِّعْرَاءِ، لِبِيدُ بْنُ رَبِيعَةَ، وَحَارِثَةُ بْنُ بَدْرِ الْغَدَانِي - وَهُما مُخْضَرُ مَانَ - وَسَرَاقةُ الْبَارِقِيِّ، وَفَرَزَدْقُ - وَهُما إِسْلَامِيَّانَ - مِنَ الشِّعْرَاءِ، وَذَكَرَهُ بِأَوْلَى الْمُقْصَدِيْنِ ابْنُ سَلَامِ الْجَمْعِيِّ، وَابْنُ قَتِيَّةِ، وَنَعْلَبُ، وَأَبُو حَاتِمِ الرَّازِيِّ، وَالْأَصْفَهَانِيُّ، وَأَبُو هَلَالِ الْعَسْكَرِيِّ، وَابْنُ رَشِيقِ الْقِيرَوَانِيِّ، وَالْقَلْقَشَنْدِيُّ، وَأَبُو عَلَيِّ الْقَالِيِّ، مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَخَالِفَهُمْ امْرُؤُ الْقَيْسُ بْنُ حَجْرِ الْكَنْدِيِّ - وَهُوَ ابْنُ أَخِتِ مُهَلْهَلٍ - مِنَ الشِّعْرَاءِ، وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، وَمَصْبُعُ الْبَيْرِيِّ، وَأَبُو حَاتِمِ السَّجَسْتَانِيِّ، وَأَبُو زِيدَ الْقَرْشِيِّ، وَالْأَمْدِيُّ، وَأَبُو أَحَدِ الْعَسْكَرِيِّ، وَالْمَرْزَبَانِيُّ، وَأَبُو عَيْدِ الْبَكْرِيِّ، وَالْمَيَادِيُّ، وَابْنُ سَعِيدِ الْأَنْدَلُسِيِّ، وَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ الشَّبِيلِيِّ، وَأَبُو بَكْرِ الْحَنْبَلِيِّ، وَالسَّيُوطِيُّ، مِنَ الْعُلَمَاءِ<sup>(٢)</sup>. بِتِلْكَ الْأَوْلَى تَفَاخَرَتِ الْعَرْبُ، فَزَعَمَتْهَا لِشِعْرَاهَا الْقَدَمَاءِ، قَبَائِلُ مِنْهَا مُخْتَلِفَةٌ؛ فَلَا عَجَبٌ أَنْ يَنْتَلِفَ فِي مُهَلْهَلٍ أَخْدَى عَنْهُمُ الْعُلَمَاءِ وَالشِّعْرَاءِ!

[٢] وَلَكِنْ «هُنَاكَ مَا يُشَبِّهُ الْإِجَاعَ عَلَى أَنَّ الشِّعْرَاءَ الْأَوَّلِيَّنِ جِيلَ الْأَوَّلِ يَتَقَدَّمُ الْأَثَانيُّ، وَلَكِنْ مُثَلِّيهِ لَا يَعْدُونَ، فِي عَرْفِ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ، شِعْرَاءً، لَأَنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا الشِّعْرَ بَعْدَ الشِّعْرِ، وَمِنْهُمْ: خُزِيْمَةُ بْنُ نَهَدٍ، وَذُوِيدُ بْنُ زِيدٍ، وَأَعْصَمُ بْنُ سَعْدِ بْنِ قَيْسِ عِيلَانَ... إِلَخُ، أَمَّا الْجِيلُ الثَّانِي فَهُوَ الَّذِي قَصَدَ الْقَصِيدَ، وَأَبْرَزَ مُثَلِّيهِ: مُهَلْهَلٍ، وَزَهِيرُ بْنُ جَنَابٍ، وَعَيْدُ بْنُ الْأَبْرَصِ، وَأَبُو قَلَابَةِ الْمَهْنَلِيِّ، وَسَعْدُ بْنُ مَالِكٍ، وَالْفَنْدُ الزَّمَانِيِّ... إِلَخُ. وَهُؤُلَاءِ مُتَقَارِبُونَ فِي أَزْمَانِهِمْ، لَعَلَّ أَقْدَمَهُمْ لَا يَسْبِقُ الْهِجْرَةَ النَّبِيَّيَّةَ بِمَثَةِ وَخْسِينَ سَنَةً، أَوْ مَتَّيْ سَنَةً فِي أَبْعَدِ تَقْدِيرِيِّ»<sup>(٣)</sup>. وَلَمْ يَكُنْ تَقْصِيدُ الْقَصِيدَ الْمُجَمَّعَ عَلَيْهِ فِيهَا سِبْقٌ، لِمُهَلْهَلٍ وَجِيلِهِ، إِلَّا هَذِهِ الْثَّلَاثَةُ جِيَعاً مَعَّا: النَّظَمُ مَا يَلَامُ غَنَاءَ الرُّكْبَانِ مِنَ الْعَرَوْضِ، وَالْإِطَالَةِ، وَالْإِكْتَارِ - قِيَاسًا إِلَى حَالِ مَنْ قَبْلَهُمْ<sup>(٤)</sup>.

[٣] وَلَكِنْ مِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ نَسَبَ عَدِيًّا إِلَى هَلْلَةَ الشِّعْرِ رَادًّا إِلَيْهَا لَقَبَهُ: «قَادِحًا»:

«فَإِنَّهَا سُمِيَّ مُهَلْهَلًا لِأَنَّهُ كَانَ يَهْلِلُ الشِّعْرَ أَيُّ مُرْفَقَةٍ وَلَا يَنْكِبُمُهُ»، كَمَا قَالَ الْأَصْمَعِيُّ الْجَلِيلِيُّ، وَذَكَرَهُ ابْنُ دَرِيدِ الْعَالَمِ الشَّاعِرُ<sup>(٥)</sup>، وَ«هَلْلَةَ شِعْرِهِ كَهَلْلَةُ التُّوبِ، وَهُوَ اضْطَرَابٌ

وَأَخْتِلَافُهُ)، كَمَا قَالَ ابْنُ سَلَامَ الْجَلِيلِ<sup>(٣)</sup>، ثُمَّ نَقَلَ الْمَرْزِبَانِ كَلامَهُ<sup>(٤)</sup>، وَ(لِرَدَاءَةٍ شِعْرِهِ)، كَمَا رَوَى ابْنُ مَنْظُورٍ<sup>(٥)</sup>.

- او مادحا:

فإليها «سمى مهلهلاً، لأنَّه أولٌ من رَقَّ الشِّعرَ، وَجَنَبَ الْكَلَامَ الْغَرِيبَ الْوَخْشِيَّ»، كما قال ابن الأعرابي الجليل، وذكره المرزباني<sup>(٣)</sup>، و«لأنَّه ملهل الشِّعرَ، أي أرْقَهُ». وكان فيه خُنْثٌ»، كما قال ابن قتيبة الجليل<sup>(٤)</sup>، ثم نقل القالى ثم البغدادى كلامه<sup>(٥)</sup>، و«لطيب شعراً، ورقية، وكان أحدَ مَنْ غنى من العَرَبِ في شعريه (...). وكان فيه خُنْثٌ ولبن، وكان كثيراً المحاذِي للنساء، فكان كُلَّيْبٍ يُسْتَعِيْبَ (زير النساء)، كما قال الأصفهانى<sup>(٦)</sup>».

[٤] ولقد انقسمت بينهم كلمات القدر والمدح على التحو العادل التالي في الجدول:

<u>ملهؤ المذبح</u>	<u>ملهؤ الفنح</u>
الترقيق واطراغ الغريب الوخشي	الترقيق واطراغ الاحكام
الإزفاني	إيقاع الإضطراب والانحراف
الإطابة والإزفاني	الازداء

ليس العطف الوارد في خلال ذلك للمغایرة، بل للتفصيل؛ فليس اطراح الإحکام عند القادح، ولا اطراح الغريب الوحشی عند المادح، إلا الترقيق، ولو لا ذلك ما استقام بالكلمة نفسها القدح والمدح جيئاً معاً.

ليس معنى زيادة إفعال «الإرقاء»، غير التعديـة التي في زيادة تفعيل «الترقيق»، قال ابن منظور: «أَرَقَ الشَّيْءَ وَرَقَّهُ: جعله رَقِيقاً»<sup>(١٣)</sup>، بل التعديـة التي في باب «فَعَلَ»، حمولة على التي في باب «أَفْعَلَ»<sup>(١٤)</sup> - ومن ثم يوشك «إيقاع الاضطراب والاختلاف» في القدر، ألا يجد في المدح ما يقابلـه، إلا أن نستفيد من شـفـع الإرقاء بـحدـيثـ الحـثـيـ الذي كان في عـدـيـ، عند ابن قـتـيبةـ والأـصـفـهـانـيـ كـلـيـهـاـ. قال ابن منظور: «خَيْثُ الرَّجُلُ خَيْثًا فـهـوـ خـيـثـ، وـخـيـثـ وـأـنـخـيـثـ: ثـنـيـ وـتـكـسـرـ (...). وـخـيـثـ الشـيـءـ فـتـخـيـثـ أـيـ عـطـفـهـ فـتـعـطـفـ، وـالـمـخـيـثـ مـنـ ذـلـكـ لـلـيـهـ وـتـكـسـرـ، وـهـوـ الـأـنـخـيـثـ (...). وـخـيـثـ فـ كـلـامـهـ»<sup>(١٥)</sup>.

ربما كان الإرقاء المقابل لإيقاع الاضطراب والاختلاف، نمطاً من ذلك التخنيث،  
خرج به كلام عدي متشياً متكرراً علينا مثل كلام النساء من طول معاشرتهن؛ فتعلق  
به بعض، من يتعلق بهن، كما تعلق بعض شعر النابغة وأiben قيس الرقيات!

ويفضل تأمل تبدو كلمات العلماء المقابلة، متنامية معًا يؤدي بعضها إلى بعض؛ فاطراح الأحكام يقع في الشعر الإضطراب والاختلاف؛ فيزدُّ - واطراح الغريب الوحشي يرق الشعر ويختنه - إما قيلنا - فيطيب.

[٥] أثرى بقيَّت في أولئك العلماء آثارَ من ذلك التفاخر القديم؛ فقدح فيه بالمهللة خصوصُه؛ فمدحه بها هي نفسها أصحابه، على طريقة من الماناظرة عربية قديمة معروفة، يفخر فيها الفاخر بخصلته، فيبتهَا خصمُه ثم يوهمُ فهمَه لها، على مثل ما روى المرزياني من تقديم صاحب جرير له على الفرزدق، بتجاته مما سقطَ فيه الفرزدق من التقييد، وتوهيم صاحب الفرزدق له بقوله: «أنت، يا أخي، لا تعقل؛ سقطَ الفرزدق شيءٌ يمتحن الرجال فيه عقوها حتى يستخرجوه، وسقطَ جرير حيٌ»<sup>١٧٧</sup> - فأخرَ مهللا خصمُه، بمهلهله للشعر، فأتبتها صاحبه، ثم وَهَمَ فهمَه لها؟.

ولقد يساعد كلامها أصل المهللة في اللغة؛ فهذا ابن منظور يقول: «مَهْلَلَةُ النَّسَاجِ التَّوْبَ، إِذَا أَرَقَ تَسَاجَهُ وَخَفَّهُ. وَمَهْلَلَةُ سُخْفُ النَّسَاجِ (...). وَثُوبٌ مَهْلَلَةُ رَدِيهِ النَّسَاجِ، وفيه من اللغات جميع ما تقدم في الرقيق؛ قال النابغة:

أَنَاكَ بقولِ مَهْلَلَةِ النَّسَاجِ كاذِبٌ      وَلَمْ يأتِ بالحقِّ الذي هُوَ ناصِعٌ  
(...) وَمَهْلَلَةُ مِنَ الدُّرُوعِ أَرْدُواهَا نسجاً (...). - قال بعضهم: هي الحسنةُ النساج  
ليست بصَفِيقَةٍ»<sup>١٧٨</sup>; فَمَهْلَلَةُ أي نسج إِرْقاقٌ تخفيفٌ - وقد عهدناه في الأنواع الفاخرة - أو  
إِرْقاقٌ تَسْخِيفٌ، وقد عهدناه في الأنواع البالية.

فتكون مهللهل للشعر عند خصميه، إِرْقاقٌ تَسْخِيفٌ، وعند صاحبه إِرْقاقٌ  
تخفيفٌ، دلالةً بدلالة، والبادئُ أظلم، مُحاجَةً لـ طائلٍ وراءها، ولا سيما أَلَا بِيَانَ لَأَيِّ من  
الدلالين.

أم تُرى فَرَقٌ بين القادح والمادح، شعرُه، وأكثره منحولٍ إليه محمولٍ عليه، كما قال  
الأصمعي<sup>١٧٩</sup>؛ فقدح فيه من لم يُميِّز شعره من شعر غيره، ومدحه من ميزه؟.

ولكن أبا حاتم سأله الأصمعي عن مهللهل مرةً، فأجابه: «ليس بـ  Mehlel، ولو قال مثل  
 قوله:

أَلَّا يَلَّا بَنْدِي حُسْنِي أَنْبِري،  
خَسَّ قَصَائِدَ، لَكَانَ أَفْحَلَهُمْ»<sup>١٨٠</sup>؛ فدلَّ على أنه من ميز شعره من شعر غيره، وقد مرَّ  
أنه من القادحين!

أم تُرى هذه آثار أولئك الت Cassidy المُسلَّمة لهلهل كما سبق: وجةٌ طبيعيةٌ من الضعف  
ومن القوّة جيئاً معًا، غلَّبَ عليها لدى القادح الضعفُ، ولدى المادح القوّة؟.  
ولكن أين بِيَانَ ذلك؟.

كل أولئك وجوه من الظن لن تستولي على اليقين حتى يدركها البحث بسُرُّ أمر المُلْهَلَةَ، ثم فرق ما بين شعر مُلْهَلِل وشعر غيره المحمول عليه المنحول إليه، ثم فرق ما بين شعره وشعر من قبله وشعر من بعده.  
المُلْهَلَةَ جَزْأَهُ أَوْ رَكَائِهِ

[٦] اختصار أبي تمام لمُلْهَلِل في «باب المرأة» من «ديوان الحماسة»، قوله في أخيه :

بَيْتُ اُنَّ السَّارَّ بِفَدَّاً أَوْ قَدَّاً      وَاسْتَبَّ بَعْدَكَ يَا كُلَّبَ الْمَجْلِسُ  
 لَزَعْنَتْ شَاهِدَمُ ٰهَمَّا مَيْسَوا      وَنَكَلَمُوا فِي أَنْرِ ٰكُلُّ عَظِيمَةَ  
 وَفِرَاعَ يَا كَيْتَ عَلَيْهِ سَابِنَسْ      وَإِذَا شَاءَ رَأَيْتَ وَجْهَهَا وَاضِحَا  
 تَأْسَى عَلَيْكَ وَلَنَتْ لَادِمَ حَرَّةَ      تَبَكَّى عَلَيْكَ وَلَنَتْ لَادِمَ حَرَّةَ وَتَنَسَّ

وهي قطعة باقية من قصيدة غير التي أكبَرَها الأصمعي فيها سبق، آخرها أبو تمام، واقتصر عليها طلال حرب<sup>(٣)</sup>، وعَنَّ لها أنطوان القوال، بزيادة هذين البيتين بعد الثاني، في « مجالسي تعلّب »:

أَبْنَى رَبِيعَةَ مَنْ يَقْوُمُ مَقَامَهُ      أَمْ مَنْ يَرُدُّ عَلَى الْفَرِيقِ وَتَجَبِّرُ  
 وَلَهُفَ الصُّغْلُوكُ بِفَدَّاً أَمَّهَ      لَاسْتَعَالَ وَقَالَ أَنَسَى الْمَجْلِسُ

وما ديوان الحماسة إلا اختارات أبي تمام من الشعر العربي القديم، التي انتدَبَ أبو علي المرزوقي إلى شرحها، فاقتضته أن يُنبئه من يشرحها له، على العمود الذي به تَهَضَ ذلك الشعر من سائر الكلام واختيرت تلك اختارات من سائر القصائد، كالعمود الذي به تَهَضَ الخيمة من سائر الأرض وتُؤْثِرُ من سائر المنازل؛ فكانت «جزأةُ اللُّفْظِ» شطر الباب الثاني من سبعة أبواب هي ذلك العمود<sup>(٤)</sup>.

ولم يختص المرزوقي بذكر «جزأةُ اللُّفْظِ»؛ فقد ذكرها قبله الجاحظ<sup>(٥)</sup>، وثعلب<sup>(٦)</sup>، والأصفهاني<sup>(٧)</sup>، والأمدي<sup>(٨)</sup>، والمعزلي<sup>(٩)</sup>، والعسكري<sup>(١٠)</sup>، وغيرهم، ولكنه اختص بإيرادها على النحو السابق، في أبواب عمود الشعر العربي القديم.

[٧] وَالْإِجْزَالُ في لغتنا عَكْسُ الْإِزْكَالِ<sup>(١١)</sup> الذي هو «إرقاء التسخيف» الذي هو أحد دلائل «المُلْهَلَةَ» كما سبق: «رَكَ الشَّيْءُ أَيْ رَقَّ وَضَعَفَ، وَمِنْ قَوْلِهِمْ: أَقْطَعَهُ مِنْ حِيتُرَكَ، وَالعَامَةُ تَقُولُ: مِنْ حِيتَرَكَ، وَثُوبَ رَكِيلُ النَّشْجِ»<sup>(١٢)</sup>، ولولا قرابة «رَقَّ» من «رَكَ» وَرَقَّا وَمَعْنَى، والكاف من الكاف، مخرجاً وصفة، ما التبس الفعلان، وهو ما يوحى بأن المعنى فيها من جنس واحد؛ فمن ثم يكون الإِجْزَالُ هو «إرقاء التسخيف»

الذى هو دلالة المهللة الأخرى، لا ((الإغلاظ)) الذى هو عكس ((الازقاق))؛ إذ هذا من القذح، وذاك من المذبح، وقد يقال بالجاحظ ففصل : «من الكلام الجزل والسخيف»<sup>٣٣</sup>. من ثم تقع مهللة مهللة لشعره عند خصوصه وأصحابه، التي جنى عليه وحده فيها، لقبه الذي اختص به من سائر الشعراء<sup>٣٤</sup> - بين الإجزال والإركاك اللذين وقع بينهما عمل سائر الشعراء القدماء؛ فمن قبح فيه بها فقد عدّها من المركاك، ومن مدحه بها فقد عدّها من الإجزال.

[٨] وعلى رغم ذلك الإيراد الطريف، ترك المرزوقي شرح ((جزالة اللفظ)) - ومثلها سائر أبواب العمود - إلى إيجاز قول فيها رأء عيار الباب (معياره): «عيار اللفظ الطبع والرواية والاستعمال؛ فما سلم مما يهجنه عند العرض عليها فهو المختار المستقيم. وهذا في مفرداته وجملته مراعي، لأن اللفظة تستكرم بانفرادها، فإذا ضامها ما لا يوافقها عادت الجملة هجينًا»<sup>٣٥</sup>؛ فأضاف ما يحتاج إلى شرح آخر

ولولا انصراف كلام البرجاني إلى نقد مقالة المعتبري وأستاذه أبي هاشم الجباني، بجاز أن يكون أراد المرزوقي بقوله: «لم نر العقلاء قد رضوا من أنفسهم في شيء من العلوم أن يحفظوا كلاماً للأولين ويتدارسوه، ويكلم به بعضهم بعضاً، من غير أن يعرفوا له معنى، ويقفوا منه على غرض صحيح، ويكون عندهم، إن يسألوا عنه، بيان وتفسير - إلا (علم الفصاحة)؛ فإنك ترى طبقات من الناس يتداولون فيما بينهم ألفاظاً للقدماء وعبارات، من غير أن يعرفوا لها معنى أصلاً، أو يستطيعوا - إن يسألوا عنها - أن يذكروا لها تفسيراً يصح. فمن أقرب ذلك، أنك تراهم يقولون إذا هم تكلموا في مزية كلام على كلام: (إن ذلك يكون بجزالة اللفظ)... ثم لا تجد لهم يفسرون الجزالة بشيء»<sup>٣٦</sup>.

[٩] لا مشاحة لدى البرجاني في استعمال المحدثين بجزالة اللفظ، مصطلح القدماء - وأولى منه لا مشاحة لديه في استعمال الجزالة أصطلاحاً، جنساً لـ مزية اللفظ<sup>٣٧</sup> - ولكن المشاحة الشديدة لديه في لا يتحمل المحدثون تكاليف استعمال مصطلح القدماء، الثلاثة:

- ١ علم معناه أي حقيقته التي يُسأل عنها ((بما؟)).
  - ٢ وعلمَ غَرِضِه أي علَّة حقيقته التي يسأل عنها ((بِلَمْ؟)).
  - ٣ وعلمَ تفسيرِه أي تمثيل حقيقته الذي يسأل عنه ((بِكَيْفَ؟)).
- أي في أن يجعلوا أمر تلك المزية:

أمر <u>الجزالة</u>	
علم معناها (ما هي؟)	علم غرضها (لم هي؟)

وإلا وجب ألا يستعملوا مصطلحها؛ فقد صار أحد الرموز إلى حياتنا الثقافية السابقة، التي يؤدي فقهها إلى فقه مسيرتنا الثقافية إلى المستقبل.<sup>٣٣</sup>

[١٠] لا ريب في خدأة القديم في زمانه، وقدأة الحديث بعد زمانه. ولكن لا ريب أيضاً، في انضباط كل منها بالآخر؛ فعلماء القرنين المجرين الرابع والخامس جيماً - ومنهم المعترض والمزوجي كلاماً - قدماء لدينا أبناء القرنين المجرين الرابع عشر والخامس عشر، محدثون لدى الجرجاني ابن القرن المجري الخامس، وعلماء القرنون المجرية الأول والثاني والثالث، قدماء لدى الجرجاني بعيدو القدم لدينا، وعلماء القرنين المجرين الرابع عشر والخامس عشر، محدثون لدينا غائبون لدى الجرجاني.

من ثم ينبغي لنا في أمر الجزالة والركاكة :

أولاً: أن نبحثه عند القدماء لدى الجرجاني البعيدي القدم لدينا، ولا سيما ما استوعبه هو عنهم.

ثانياً: أن نبحثه عند من استوعبه من المحدثين لديه القدماء لدينا والمحدثين لدينا الغائبين لديه جيماً معاً.

ثالثاً: أن نبحثه عند من لم يستوعبه من المحدثين لديه القدماء لدينا والمحدثين لدينا الغائبين لديه جيماً معاً.

حتى إذا ما انجل أمرهما انجل أمر الهللة.

### **الجزالة والركاكة عند القدماء**

[١١] مر في نقد الجرجاني لاستعمال المحدثين لمصطلح القدماء، من دون أن يتحملوا تكاليفه، أن «جزالة اللفظ» عنده، من «علم الفصاحة»، وهو قد كان قال هذه الكلمة العامة التي أراد بها أن يفرغ من أصل عنده: «ليس لنا - إذا نحن تكلمنا في البلاغة والفصاحة - مع معان الكلم المفردة شغل، ولا هي منا بسيط، وإنما نعمد إلى الأحكام التي تحدث بالتأليف والتركيب»<sup>٣٤</sup>؛ فقد كان يرى علوم البلاغة عليها واحداً، وإن كان واضح نظرتي علمي المعانى والبيان.<sup>٣٥</sup>

إن الجزالة والركاكة عند الجرجاني إذن، من صفات النظم الذي هو «أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه (علم النحو)، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي تُهجّجت؛ فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت؛ فلا تخل بشيء منها»<sup>٣٦</sup>، وما الجزالة والركاكة إلا نمطان من صواب النظم ومن خطئه اللذين أشار إليها يقوله: «الست بواحد شيئاً يرجع صوابه - إن كان صواباً - وخطؤه - إن كان خطأ - إلى (النظم)، ويدخل تحت هذا الاسم، إلا وهو معنى من معانى التحريف قد أصيب به موضعه، ووضع

في حقه، أو عوامل بخلاف هذه المعاملة، فأزيد عن موضعه، واستعمل في غير ما ينبغي له<sup>(١)</sup>، وليس الجزالة والركاكة نمطين من صواب الإعراب ومن خطأه اللذين أشار إليهما بقوله: «لسنا في ذكر تقويم اللسان والتحرز من اللحن وزيف الإعراب؛ فنعتد بمثل هذا الصواب. وإنما نحن في أمور تدرك بالفكر اللطيفة، ودقائق يوصل إليها باقاب الفهم؛ فليس درك الصواب درك حتى يشرف موضعه، ويصعب الوصول إليه، وكذلك لا يكون ترك الخطأ تركاً حتى يحتاج في التحفظ منه إلى لطف نظر، وفضل روية، وقوة ذهن، وشدة تيقظ»<sup>(٢)</sup>.

وإن في استعماله مصطلح «(الكلام) الخاص» بدلاً من مصطلح «اللفظ» العام الواقع في كلام المرزوقي وغيره، لحرصه على بيان انصراف صفات النظم ومنها الجزالة والركاكة، إلى الكلم المجتمعة لا المفردات، ودرءاً لشبهة انفصال اللفظ من المعنى<sup>(٣)</sup>، ولا سيما أنني عثرت بمن وصف المعنى بالجزالة وبالركاكة، كما وصف اللفظ<sup>(٤)</sup>.

[١٢] نفى الجرجاني في أول كتابه أن يكفي في الفصاحة بأنها «خصوصية في النظم»<sup>(٥)</sup>؛ فدل على أنها - ومنها لدية الجزالة والركاكة - هي تلك.

إن الجزالة، في أصل لغتنا، القوة، والجزل القوي، وإن الركاكة الضعف، والركيك الضعيف. وصفت العرب بذلك العقل والرأي والجسم والكلام<sup>(٦)</sup>، بل وقع في نصوص من كلامها بحيث احتمل أن يكون وصفاً لها كلها جيداً معاً: «في حديث موعظة النساء: قالت امرأة منهن جزلة أي تامة الخلق. قال: ويجوز أن تكون ذات كلام جزل أي قوي شديد»<sup>(٧)</sup>، وفي أخبار وفود عبد الله بن أبي معلم على مصعب بن الزبير، أن مصعباً لم يؤمره على غزوة زرنيخ (قصبة سجستان)، حتى «أعجبه قوله وجزله»<sup>(٨)</sup>، وليس يمتنع بل يحسن أن يكون أراد قوة عقله ورأيه وجسمه وكلامه جيداً معاً؛ فيكون خروجها كلها لديهم من أصل واحد.

من ثم تكون جزلة الكلام عند الجرجاني، قوة نظمته، وركاكته ضعفه، ثم هما حين تصبيان الكلام تصبيان عقل المتكلم ورأيه وجسمه جيداً معاً، ولكنَّ هذا حديثاً آخر.

ولقد فصل الجرجاني أمر النظم عقب تعريفه السابق له، بذكره أعباء الناظم قائلاً: «لا نعلم شيئاً يتغير النظم بنظممه، غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروعه؛ فينظر في (الخبر) إلى الوجوه التي تراها في قوله: (زيد منطلق)، و(زيد ينطلق)، و(ينطلق زيد)، و(منطلق زيد)، و(زيد منطلق)، و(المنطلق زيد)، و(زيد هو المنطلق)، و(زيد هو منطلق)، وفي (الشرط والجزاء) (...)، وفي الحال (...)، وينظر في (الحروف) (...)، وينظر في (الجمل) (...)، ويتصرف في (التعريف)، و(النکير)، و(التقديم)، و(التأخير)،

في الكلام كله، وفي (الحذف)، و(التكرار)، و(الإضمار)، و(الإظهار)؛ فيصيب بكل من ذلك مكانه، ويستعمله على الصحة وعلى ما يتبني له. هذا هو السبيل».<sup>١٣</sup>

[١٣] إننا إذا اجترأنا بالنظر فيها فصله وقلناه من أعمال الناظم بباب (الخبر)، وجدناها على أربعة أقسام متكاملة، لا نستطيع أن نضبط زمان بدئه أيا منها ولا زمان ختمه؛ إذ ربما تجمعت عليه هي كلها أو بعضها، وربما تفرقت:

أوها الإبدال؛ فليس بإشار الناظم في المسند أن يكون مفرداً «منطلق»، أو جلة «ينطلق، هو ينطلق»، ونكرة «منطلق»، أو معرفة «المنطلق» - وفي الجملة أن تكون اسمية «زيد منطلق، زيد ينطلق»، أو فعلية «ينطلق زيد»، إلا إبدال المناسب من غير المناسب.

وثانيها الترتيب؛ فليس بإشار الناظم في المسند أن يتأخر عن المسند إليه «زيد منطلق، زيد ينطلق»، أو أن يتقدم عليه «منطلق زيد، ينطلق زيد»، إلا ترتيب موقع كل منها المناسب، من الآخر.

وثالثها الحذف، وأخرها الإضافة؛ فليس بإشار الناظم في المبتدأ والخبر المعرفتين، أن يتصلان «زيد المنطلق» - وهو مفهوم من «المنطلق زيد» - أو أن ينفصلان «زيد هو المنطلق»، إلا حذف الغير المناسب، أو إضافة المناسب.

ولا يخفى التباس الإبدال بغيره من أقسام الأفعال، في بعض ما فيها؛ إذ كل تغيير على وجه العموم، إبدال.

ثم إن في آخر نص المحرجاني السابق، بيانا آخر؛ فما بإشار التعريف أو التنكير والإضمار أو الإظهار، إلا الإبدال، ولا بإشار التقديم أو التأخير، إلا الترتيب، ولا بإشار التكرار من الحذف، إلا الإضافة.

ولقد مضى يفسر أعمال الناظمين، ويخبرها بموازنة كلامهم بعضه ببعض، أو بتغيير نظم كلامهم، وموازنة حاله الأخرى بحاله الأولى، غير متخرج من كلام الله؛ فله كان كتابه: «ما هو بذلك المترفة في أنك تمهد المعنى لا يستقيم إلا على ما جاءه عليه من بناء الفعل على الاسم قوله - تعالى! - : {إِنَّ وَلِيَ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّ الصَّالِحِينَ} ، وقوله - تعالى! - : {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَسَبُوهُ فَهِيَ تُمَلَّى غَلَّةً بَخْرَةً وَأَصْبَلَةً} ، وقوله - تعالى! - : {وَحَشَرَ لِسْلِيَانَ جَنُودَةً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالظِّيرِ فَهُمْ يُؤَزَّعُونَ} ؛ فإنه لا يخفى على من له ذوق أنه لو جيء في ذلك بالفعل غير مبني على الاسم، فقيل: (إن ولسي الله الذي نزل الكتاب ويتولى الصالحين)، و(اكتسبها فتمل على)، و(حشر لسليان جنوده من الجن والإنس والظير فيوزعون)، لوجد اللفظ قد نجا عن المعنى، والمعنى قد زال عن

صورته والحال التي ينبغي أن يكون عليها»<sup>٢٠</sup>، ولم يكن العمل الذي اختبره، إلا الترتيب.

[١٤] وعل ذلك نفسه يجري أمر الجزالة والركاكة، وأعمال المجزل (صاحب الجزالة) والمركك (صاحب الركاكة)؛ إذ يُدلّان الكلم للجملة، والجمل للفقرة، والفقرة للنص، والتصوّص للكتاب، ويرجعها، ويتجذّلها منها، ويُضيّقان إليها - وهو مراد الجرجاني من قوله فيها سبق: «في الكلام كله» - حتى يستفرغا وسعنها، وينقضا أيديها من الكلام كلّه، فإن خرج قوي النظم، كالحبل المشدود، لا يتبع لستوعه أن يقول: لو كان كذا مكان كذا لكان أفضل، كان جزلاً، وإن خرج ضعيف النظم، كالحبل المُرخى، يتبع لستوعه أن يقول ذلك، كان ركيكةً، وإن غال المجزل عاذل أي أدخل الكلام بعضه في بعضه<sup>٢١</sup>، والماعاظلة ركاكة، وإن غال المركك خلع أي فك بعضه من بعض<sup>٢٢</sup>، والتخليل ركاكة<sup>٢٣</sup>؛ فالمغالاة - منها تكن - إفساد، وفيها يأتي في الفقرة الحادية والعشرين، بيان آخر. وأية ذلك اختباره بما اختبر به الجرجاني أعمال الناظمين: موازنة نظميه بنظم كلام آخر مثله، أو تغيير نظميه وموازنة حالة الأخرى بحالة الأولى، والأول أوى وأنفَد اختبارا؛ فلن يخلو الآخر من التكليف<sup>٢٤</sup>.

ذلك أمر الجزالة والركاكة عند القدماء معنى وغرضها وتقسيما، كما أراد الجرجاني للمحدثين أن يعلموا: صفة نحوية تُستَبِّهمُ على من يستوضحها في غير نحو الكلام<sup>٢٥</sup>، تميز بها الشعر العربي القديم كما تبه المرزوقي فيما ذكره ولم يشرحه من أبواب عموده، وما أشبه ذلك الشعر، ولم يتميز بها سائر الكلام العربي؛ «فمن الكلام الجزل والسيف، والمليح والحسن، والقبع والسنج، والخفيف والتليل، وكله عربي»<sup>٢٦</sup>؛ إذ من الكلام ما يندرج الرثى والهدأة والتهذيب، ككلام الماكبة - وهي في شعراء العرب من قديم - ومنه ما يندرج العجلة والثڑة والإهمال، ككلام المشافهة، والجزالة أغلقت بالأوائل، والركاكة أغلقت بآخر، ولن يتساوى نظمي الكلامين، ولا أعمال الناظمين<sup>٢٧</sup>.

[١٥] ولقد صارت منزلة الجزالة من الشعر العربي القديم، وسيلة إلى تمييزه من غيره، ومن المحمول عليه المتحول إليه. روى الأصفهاني عن ابن الكلبي عن بعض بنى الحارث بن كعب، خبر اجتماع يزيد بن عبد المدان وعامر بن الطفيلي بأمية بن الأسكن وبنته في عكاّظ قبيل الإسلام أو في أوله، وفيه شعر، ثم قال: «هذا الخبر مصنوع من مصنوعات ابن الكلبي، والتوليد فيه بين، وشعره ركيك غث لا يشبه أشعار القوم، وإنما ذكرته ثلا يخلو الكتاب من شيء قد روی»<sup>٢٨</sup>؛ فزييف الخبر بتزيف شعره بركاكته، ونشره بتوليد أحداه.

## أَلْجَازَةُ وَالرَّكَاكُهُ عِنْدَ الْمُحَدِّثِينَ الْمُسْتَوْعِيْبِينَ

من المحدثين قلة استوعبت من أمر الجزالة عند القدماء ومتزئتها من الشعر العربي القديم، ما استوعبه عبد القاهر الجرجاني فيما سبق، كالحسن بن رشيق القيرواني، وحازم القرطاجي، والدكتور عبد العزيز الأهوازي، والدكتور محمد الهادي الطراibi.

[١٦] أما ابن رشيق فقد دل على ذلك قوله: «العرب لا تنظر في أغطاف شعرها بأنْجَنَسَ أو نُطَابِقَ أو نُتَابِلَ، فَتَنْزَلُ لفظة للفظة، أو معنى لمعنى، كما يفعل المحدثون، ولكن نظرها في فصاحة الكلام وجزله، وبسط المعنى وإبرازه، وإنقاذ بنية الشعر، وإحكام عقد القوافي، وتلاحم الكلام بعضه ببعض، حتى عدواً من فضل صنعة الخطيبة، حُسْنَ تَسْقِيْهِ الكلام بعضه على بعض في قوله:

فَلَا وَأَيْكَ مَا ظَلَمْتَ قَرِيبَ  
بَانِيَنَا الْمَكَارَمَ حِيثْ شَاؤَا  
وَلَا وَأَيْكَ مَا ظَلَمْتَ قَرِيبَ  
وَلَا يَرْمَا الْذَّاكَ وَلَا أَسَاوَا (...)  
وكذلك قول أبي ذؤيب يصف حر الوحش والصاد:

فَسُورَذَنَ وَالْقَيْوَقُ مَقْعَدَ رَابِيَ  
الْفَرِبَاءُ خَلَفَ السَّنْجَمَ لَا يَتَّلَعُ  
فَكَرَغَنَ فِي حِجَرَاتِ عَذْبِ بَارِدٍ  
حَصِّ الْبَطَاطِيَّ ثَغِيْبُ فِي الْأَكْرُعِ (...)

فأنت ترى هذا النسق بالفاء كيف اطرد له، ولم ينحل عقه، ولا اختل بناؤه، ولو لا ثقافة الشاعر ومراعاته إيه لما تمكّن له هذا التمكّن»<sup>١٣٣</sup>.

إنه عالم ناقد وفنان شاعر، لم يغب عنه تمسك معاصريه بالبديع دون القدماء، حتى ليتركون له قصداً أعلمًا من الجزالة، وتمسك القدماء بالجزالة دون معاصريه، حتى ليتركون له عفواً أعلمًا من البديع. ثم هو يخوض في القدماء لما كان في حديثهم؛ فيذكر حسن عطف الخطيبة بالواو جعل البيت الثاني «ما ظلمت قريع»، و«لا يرموا الذاك»، و«لا أساووا»، على جملة البيت الأول «ما ظلمت قريع (...) شاؤوا»، وحسن عطف أبي ذؤيب بالفاء جملة البيت الثاني، على جملة البيت الأول، وكلتاها مبسوطتان على أرجاء بيتهما، بأجزاء مختلفة مؤلفة معاً، دون أن يعبأ الأول بحذو أولى المعلومات على المعطوفة عليها.

ولكنه يجد في معاصريه من يذهب إلى الجزالة منهباً القدماء؛ فيتأمل شعرهم؛ فيجدوه على ثلاثة أصناف:

صنف يتخذ للجزالة الألفاظ المصنونة، في موقعها، ومنه شعر بشار، ك قوله:

هَنْكَا حِجَابَ الشَّفَنِيْسِ أَوْ قَطَرَتْ دَمَا	إِذَا مَا غَضَبَنَا غُصْبَةٌ مُضَرِّيَّةٌ
ذَرِيْ منْ بِرِّ صَلْ عَلَيْنَا وَسَلَّمَ <sup>٢٩</sup> .	إِذَا مَا أَعْزَنَا سَيِّدًا مِنْ قَيْلَةٍ

وصنف يتخذ للجزالة الألفاظ المصنونة، في غير موقعها، ومنه شعر ابن هانئ، ك قوله:

وَشَامَتْ فَقَالَتْ لَمْعُ أَبِيسِنْ خَلَمِ	أَصَاحَتْ فَقَالَتْ وَقْعُ أَجْرَةَ تَبَيْطِمِ
وَلَازَمَتْ إِلَيْبُرَى فِي حَمَّلَمِ <sup>٣٠</sup>	وَمَا دُورَتْ إِلَى حِزَنِيْ خَلِيَّهَا

وصنف يتخذ للجزالة الألفاظ المبذولة، في موقعها، ومنه شعر أبي العتاهية، ك قوله:

لَسَيَّرُوا الْأَكْفَانَ مِنْ عَاجِلِ	لَمَّا إِخْرَجَتِي إِنَّ الْمُخْرَجِيْ فَسَائِلِ
لَسَيَّرُوا فِي أَبْيَاعِ الْمُخْرَجِ	وَلَا تَلُومُوا فِي أَبْيَاعِ الْمُخْرَجِ
يَسْتَهْنُوا الْمُسَكِّبُ الْمُسَالِلِ	عَيْنِيْ قَلْ عَبَّةَ مُهَلَّةً
مِنْ شَدَّةِ الْوَجْدِ دَعَلَ الْفَاتِلِ	يَسَّمَنْ رَأَى قَبْلِيْ قَبْلَيْ بَكِسِ
سَادَأَرْدُونَةَ عَلَى التَّسَالِلِ	بَسَطَتْ كَفَنِيْ تَغْرِيْكُمْ سَالِلَا
لَزَلَّا جِيلَلَابَدَلَ النَّايِلِ	إِنْ لَمْ تُثْبِلَوْهُ فَقَوْلَوْهَا
وَنَكَشَّمُ الْعَامَ عَلَى مُنْزَهِ	أَوْ كَشَّمُ الْعَامَ عَلَى مُنْزَهِ

لم يعيّب ابن رشيق إلا الثاني، قاتلا: «فِرْقَةُ أَصْحَابِ قَعْقَعَةِ بِلَا طَالِلِ مَعْنَى إِلَّا الْقَلِيلَ  
النَّادِرَ (...). وَلِيُسْ تَحْتَ هَذَا كُلُّهُ إِلَّا الْفَسَادُ»<sup>٣١</sup>. وكأني بالمعري يقول في ابن هانئ نفسه:  
«رَحِيْ تَطْحَنُ قُرُونَتَا»! - ولكن له ينفيه من مذهب الجزالة.

لقد أفسد ابن هانئ على شعره جزالته، وأخنق ابن رشيق، بما تعمّد فيه من الإغراب،  
ونكبة أنّ كان في الغزل الذي تَعْجِيز فيه أَوَانِسُ الْأَلْفَاظِ لِأَوَانِسِ النَّاسِ!

قال ابن رشيق فيما قبل ذلك من كتابه: «(لِيْس التَّولِيدُ وَالرَّوْقَةُ أَنْ يَكُونُ الْكَلَامُ رَقِيقًا  
سَفَسَافًا، وَلَا بَارِدًا خَثًا، كَمَا لِيْس الْجَزَالَةُ وَالْفَصَاحَةُ أَنْ يَكُونُ حَوْشِيَا خَشَنًا، وَلَا أَعْرَابِيَا

جافيًا، ولكن حال بين حالين. ولم يتقدم أمرؤ القيس والنابغة والأعشى إلا بحلاوة الكلام وطلاؤته، مع بعد من السخف والركاكة»<sup>(٣٣)</sup>؛ فدل على التقاء الرقة والجزالة معاً في منزلة وسطٍ، وهو ما سبق أن رأيناه في ترقيق التخفيف، وعلى التقاء الرقة والركاكة معاً في منزلة طرفٍ، وهو ما سبق أن رأيناه في ترقيق التسخيف.

【١٧】 وأما حازم القرطاجي، فقد دل على استيعابه أمر الجزلة عند القدماء، قوله في عقب دلالته معاصره الشاعر الذي لم يعش زمان عزّة العربية، على طرق العلم بتحسين هيآت العبارات والتأنق في اختيار موادها وإجادتها وضعها ووصفها: «بقوه التهدى إلى العبارات الحسنة يجتمع في العبارات أن تكون مستعدبة جزلة ذات طلاوة (... ) والجزالة تكون بشدة التطالب بين كل كلمة وما يجاورها ويقارب أنهاط الكلم في الاستعمال (... ) فهذه إشارة إلى ما يجب أن يتقدّمه الناظم ويلتفت إليه، على قدر قوته، من الجهات التي تحسن منها العبارات أو تقعّب، قد أجلت الكلام فيها، وجعلتها كالإحالات على ما قدّمتها»<sup>(٣٤)</sup>.

وعلى «ما قدمته» علق المحقق قوله: «يظهر أن تفصيل ذلك كان في القسم الأول المفقود من هذا الكتاب».

أما المخاذ «شدة التطالب» سبلاً إلى الجزلة، فسديد جداً؛ فما هي إلا أن يحرص الشاعر في خلال إيداله وترتيبه وحذفه وإضافته، على اختيار المناسب المتساكم، الذي يخرج - وهذا معنى عربي قديم سبق في الفقرة الثانية عشرة ذكره - كجسمه «في صفة النبي - صل الله عليه وسلم! - : بادن متساكم؛ أراد أنه مع بادنته متساكم اللحم ليس بمسخرية ولا منفخة، أي أنه معتدل الخلق كأن أعضاءه يمسك بعضها ببعض»<sup>(٣٥)</sup>.

وأما «تقارب أنهاط الكلم في الاستعمال»، فقد سبق له أن زاده بياناً في خلال حديثه عن تلاوم الكلام الذي يقع على أنحاء، قائلاً: «منها لا تتفاوت الكلم المؤتلفة في مقدار الاستعمال؛ فتكون الواحدة في نهاية الابتدا، والأخرى في نهاية الحوشية»<sup>(٣٦)</sup>؛ فلم يعُد ما أخْتَقَ ابن رشيق على ابن هانئ، إلا أنَّ ما يقع في غير موقعه، هو بعض الكلام دون بعض عنده، وهو الكلام كله عند ابن رشيق، وكلها يفسد على الشعر جزاله، ولا ينفيها، وإن كان ما نبه عليه حازم أشد إفساداً؛ فإن الناس يتفاوتون في رؤية الكلام واقعاً كله في غير موقعه، على حسب أعرافهم؛ «فإن الوحشى من الكلام يفهمه الوحشى من الناس، كما يفهم السوقى رطانة السوقى»<sup>(٣٧)</sup>؛ فاما أن يخرج ملائعاً بعضه من واد وبعضاً من آخر، فيما يتكلّم به!

وفيما ذكره الجرجاني في كتابه «أسرار البلاغة»، من «رجوع الاستحسان إلى اللفظ من غير شرط من المعنى فيه، وكونه من أسبابه ودعاعيه»<sup>٣٣</sup>، إشارة إلى «تقارب أنماط الكلم في الاستعمال»، تؤيد رأيي السابق؛ إذ لم تجز فيه عنده لا جزالة ولا ركاكة!  
[١٨] وأما الأهواني فقد دل على استيعابه أمر الجزالة عند القدماء، ومتزنتها من

الشعر العربي القديم، استيعابه لأمر الركاكة ومتزنتها من شعر ابن سناه الملك.

لقد فلسف الظاهرية بقوله: «إن الركاكة في الأساليب أثر من آثار الأزدواج اللغوي بغير شك. وينبغي أن نفرق بين الركاكة وبين العامية، وأن نفرق بينها أيضاً وبين السهولة؛ إذ إن الركاكة تنشأ عن عدم تمكن الأديب من اللغة التي يكتب بها، لافتقاره إلى معرفة أصولها، وإدراك أسرارها، ولقلة بصره بالفارق الدقيق بين دلائل المفردات ومعاني التراكيب ومناسبات الجمل وروابطها. إن ما نسميه بالركاكة ليس بشرط أن يكون خطأ في نحو اللغة واستعمال مفرداتها فيها وضعت له، وإنما هو في العجز عن التصرف باللغة بحيث تؤدي الأفكار وتعبر عن الإحساس تعبيراً مرهقاً، وبحيث يكون تأليفها محكماً متيناً، ونظمها متساوياً ومنسجاً. إن المثل الواقعى للركاكة هو ما يمسه ابن اللغة فيمن يكتب أو يتكلم بلغته من أبناء اللغات الأجنبية، حين يكون هذا الأجنبي قد درس اللغة بعيداً عن وطنه الأصلي. والركاكة بهذا المعنى لا يمسها إلا من كان حظه من إتقان اللغة عظيماً، لأن يكون قد ولد في بيته تتكللها أو يكون قد طالت قراءته لنصوصها المتازة. فإن استطاع الجمع بين الأمرين، وكان ذا موهبة لغوية وذوق وحسن في التفريق بين جرس الكلمات وتغيم الجملة وموسيقية العبارات كان الحكم الأول في القضية (...). فالعامية لغة مستقلة لها أسلوبها وألفاظها وما بلاغتها كما أدرك ذلك ابن خلدون قدّيماً. فإن تسربت العامية إلى اللغة العربية تسرّياً غير طبيعي، مشوّه ضعف شاعر العربية، حدثت الركاكة (...) على أن الركاكة في الشعر لا تجيء دائياً من الضعف اللغوي ومن جهل أساليب العربية وضعف التمييز بين الجيد والردي منها. وإنما تجيء أحياناً من ضعف الحس الموسيقي عند الشاعر؛ فالجزالة ذوق ومعرفة باللغة معاً. والتقصي يثبت أن حظ المؤاخرين منها كان أقل من حظ المتقدمين من الشعراء، ولعل ابن سناه الملك يعتبر خيراً من كثير من معاصريه والتابعين له فيما يتصل بالجزالة»<sup>٣٤</sup>.

ما وجوه التصرف باللغة بحيث يخرج التعبير مرهقاً ومتيناً ومنسجاً، إلا أقسام أعمال الناظم التي استتبعناها من نص الجرجاني، وأجرينا عليها أعمال المجزل والمرك، وما العجز عن تلك الوجوه إلا الركاكة، ولا القدرة عليها إلا الجزالة.

وليس الحس الموسيقي الذي جعل العجز عنه ركاكة والقدرة عليه جزالة، وجهاً من تلك الوجوه، بل اختباراً من اختباراتهما؛ فاللغة أصواتٌ تُولَّف متفردةً و مجتمعةً ككلماتٍ

وَجُمَّلَا وَفِقَرَا وَنُصُوصَا؛ فَإِذَا مَرَّ الْمُتَكَلِّمُ فِي التَّعْبِيرِ بِإِدَالَا وَتَرْتِيَّا وَحْذَفَا وَإِضَافَة، سَاعِدَهُ إِلَفَهُ عَلَى إِصَابَةِ مَا يَأْخُذُ وَمَا يَتَرَكُ فَيُبَخِّرُ إِذَا كَانَ أَلْفَ الْجَزْءَ، أَوْ سَاعِدَ نَاقِدَهُ عَلَى تَخْطِيَتِهِ فِيهَا أَخْذُ وَمَا تَرَكَ فَأَرَكَ إِذَا كَانَ أَلْفَ الرَّكْيَكَ. وَلَا يُعْتَرِضُ عَلَى ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَاتِبٌ؛ فَإِنَّا لِلْغَةِ الْمُنْطَوِقَةِ، ثُمَّ إِنَّ الْكَاتِبَ يَقْرَأُ عَلَى أَذْنِهِ مَا كَتَبَ عَلَى وَرْقَتِهِ، لِيُسْتَفِيدَ مَسَاعِدَ ذَلِكَ الْحَسِ الْمُوسِيقِيِّ، وَهِيَ وَصِيَّةٌ أَبِي ثَمَامَ لِتَلَمِيذهِ الْبَحْرَتِيِّ مِنْ قَدِيمٍ.<sup>٣٣</sup>

وَلَقَدْ أَلْقَى الْأَهْوَانِيَّ كَلْمَتَهُ فِي اخْتِلَافِ الرِّكَاكَةِ وَالسَّهُولَةِ (الْوَضُوحِ)، وَمُضِيَ دونَ أَنْ يَزِيدَهَا بِيَانًا. وَإِنَّا لِكَلْمَةِ سَدِيدَةِ جَدًا؛ إِذْ تَعْلَقُ السَّهُولَةُ بِقُوَّةِ النَّظَمِ (جَزَالَهُ) الَّتِي تَعْلَقُ مُشْتَرِعَيْهِ بِدِقَانَتِكَلْمَعِ كُلِّ عَمَلٍ مِنْ أَعْيَالِهِ، لَا بِضَعْفِهِ (رِكَاكَتَهُ) الَّتِي تَعْوَقُ اسْتِيعَابَهُ. وَسِيَّاَتِي هَذِهِ الْمُسَائِلَةُ فِي الْفَقْرَةِ الْخَادِيَّةِ وَالْعَشَرِيَّنَ، مَزِيدٌ بِيَانِهِ.

أَمَا تَسْرِيبُ كَلَامِ الْلَّهُجَّةِ إِلَى كَلَامِ الْلِّغَّةِ، فَمَا يَفْسِدُ عَلَى الشِّعْرِ جَزَالَهُ - وَإِنْ لَمْ يَفْهَمَا - وَيَنْدَعُهُ سُخْرَةُ الْمُتَمَثِّلِينَ؛ إِذْ هُوَ مِنْ عَدَمِ «تَقَارِبِ الْكَلَامِ فِي الْاسْتِعْمَالِ» الَّذِي عَابَهُ الْقَرْطَاجِنِيُّ، وَمِنْ عَدَمِ وَقْعَ الْكَلَامِ فِي مَوَاقِعِهَا، الَّذِي أَحْتَقَ ابْنَ رَشِيقَ عَلَى ابْنِ هَانَى. وَلَقَدْ كَانَ مِنْ آثارِ اشْتِغَالِ ابْنِ سَنَاءِ الْمَلْكِ بِشِعْرِ الْلَّهُجَّةِ، أَنَّ «غَلْبَ عَلَى نَظَمِهِ فِي الْقَرِيبِ» (شِعْرُ الْلِّغَّةِ) اسْتِعْمَالُ الْلَّفْظِ الْعَامِيِّ، وَفَسَادُ الْمَعْنَى، وَاخْتِلَافُ تَرْكِيَّبِهِ، حَتَّى أَخْرَجَوْهُ مِنْ ذَلِكَ وَمَا لَمْ يَمْجُزْ اسْتِعْمَالَهُ فِي الْعَرَبِيَّةِ، قَدْرًا كَثِيرًا.<sup>٣٤</sup>

وَلَقَدْ رَأَى الْأَهْوَانِيُّ فِي غَلْبِ الْمُنْطَقِ النَّحْوِيِّ عَلَى نَظَمِ الْكَلَامِ لَا فِتْنَادِ سَلِيقَةِ الْلِّغَّةِ وَإِلَفِ قِرَاءَةِ الْكَتَابَاتِ التَّشْرِيَّةِ فِي الْعِلُومِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْلُّغَوِيَّةِ الْمَدْرَسِيَّةِ وَمَا أَشْبَهَهَا شَمِ الْاِشْتِغَالُ بِهَا - سَرِ الرِّكَاكَةِ شِعْرُ الْمُتَّخِرِّينَ<sup>٣٥</sup>، الَّذِينَ رَأَى فِيهَا سَبِقَ، أَنَّ التَّقْصِيَّ يَثْبِتُ أَنَّ حَظَّهُمْ مِنْ جَزَالَهُ كَانَ أَقْلَى مِنْ حَظِّ الْمُتَقْدِمِينَ. وَعَلَى رَغْمِ أَنَّ ابْنَ سَنَاءَ الْمَلْكَ خَيَّرَ حَظًّا عَنْهُ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ مَعَاصرِهِ وَتَابِعِيهِ، لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَكْتُمَ مِنِ الرِّكَاكَةِ، مَا تَجْلَّ لَهُ فِي قَوْلِهِ:

فَلِيُطْلِلُ مِنْكُمَا بُكَاءُ الْوَفَاءِ	صَحَّ مِنْ دَهْرِنَا وَفَاءُ الْحَيَاةِ
سَرْبَانَ تَحْلُلَا وَكَاءُ الْبُكَاءِ	وَأَيْسِنَ مَا عَقَدَتْهَا مِنْ الصَّبَّ
وَهَبَا أَهْنَنَ مَثْلُ الْمَبَاءِ	وَأَهِينَا الدَّمْوعُ سَكِّبَا وَهَطِّلَا
مَنْ يُعِيرُ الْكَرَى وَلِسُوبِ الْكَرَاءِ	وَامْنَحَا النَّوْمُ كُلَّ صَبَّ يَنَادِي
أَوْ تَعَانِي حَلَالٌ بَعْضُ عَنَائِي <sup>٣٦</sup>	لَيْسَتِ الْعَيْنُ مِنْكُمَا لِيَبْعَيْنِ

فَقَدْ أَفْسَدَ نَظَمَهَا بِهَا التَّزْمَنَ فِي جَلَاهَا وَفِي رَوَابِطِ جَلَاهَا؛ مِنْ تَكْرَارِ التَّرْكِيبِ الإِلَاضَافِيِّ نَفْسَهُ ثَلَاثَ مَرَاتٍ مُتَقَارِبَيَّاتٍ («وَفَاءُ الْحَيَاةِ، بُكَاءُ الْوَفَاءِ، وَكَاءُ الْبُكَاءِ») - وَمِنْ تَكْرَارِ تَرْكِيبِ الْجَارِ وَالْمَجْرُورِ نَفْسَهُ مَرَتَيْنِ مُمْتَنَابِيَّتِينَ («مِنْكُمَا، مِنْكُمَا») - وَمِنْ قَبْحِ قَوْلِهِ («وَلِيَبْنِ

ما... بـأـن تـحـلـلاً»، وـ«وـهـبـاـ أـنـهـنـ مـثـلـ الـمـبـاءـ»، دون أن يـبـينـ وجـهـ القـبـحـ. والـحـقـيقـةـ أـنـ ما قـدـمـهـ فيـ غـلـبةـ المـطـنـ النـحـويـ، بـيـانـ جـلـيـ لـسـرـ قـبـحـ الـأـيـاتـ كـلـهاـ؛ فـهـاـ هـيـ إـلـاـ تـرـاكـبـ قـضـائـيـةـ صـاغـهـ قـاضـيـ قـاضـيـ لمـ يـرـ المـقـفـيـ عـلـيـهـ لـكـيـلاـ تـشـوـبـ قـضـاءـ شـبـهـ عـطـفـ عـلـيـهـ! ولـقـدـ

أـحـنـقـهـ تـمـسـكـ اـبـنـ سـنـاءـ بـالـبـدـيـعـ الـذـيـ لـمـ يـمـرـ بـنـاـ هـنـاـ مـنـ قـبـلـ؛ فـزـمـانـهـ زـمـانـهـ.

[١٩] أما الطـرابـلـسـيـ فقدـ دـلـ عـلـ استـيـعـابـهـ أـمـرـ الجـزـالـةـ عـنـ الـقـدـمـاءـ، وـمـنـزلـتـهـاـ منـ الشـعـرـ العـرـبـيـ الـقـدـيمـ، استـيـعـابـهـ مـنـزلـتـهـاـ منـ شـعـرـ أـحـدـ شـوـقـيـ، وـمـلـدـخـ الرـكـاـكـ إـلـيـهـ.

لـقـدـ اـعـتـذـرـ عـنـ إـخـلـالـهـ بـمـقـضـيـ طـبـيـعـةـ بـحـثـهـ الـوـصـفـيـ التـفـسـيرـيـ الـتـيـ لـاتـاسـبـهاـ الـأـحـكـامـ الـمـعـيـارـيـةـ، بـعـجـزـهـ عـنـ كـتـبـانـ ماـ وـجـدـ فـيـ تـعـابـيرـ شـوـقـيـ، مـنـ جـزـالـةـ وـمـنـ رـكـاـكـ.

لـقـدـ دـعـاـ الجـزـالـةـ (ـقـوـيـةـ)ـ، وـلـمـ يـطـلـ حـدـيـثـهـ؛ فـشـوـقـيـ مـشـهـورـ بـهـ (ـلـاـ يـعـدـ النـاظـرـ فـيـ قـصـيـدةـ مـنـ قـصـائـدـهـ أـثـرـ الـثـقـافـةـ الـمـتـنـيـةـ وـالـفـنـ الـخـلـاقـ)ـ<sup>٣٣</sup>ـ، وـإـنـ فـسـرـهـ باـعـتـادـهـ التـصـوـيرـ، كـمـاـ

فـيـ قـولـهـ:

ئـسـمـ الـأـرـضـ قـيـصـرـاـ حـيـنـ تـذـعـرـ  
وـعـقـيـمـ وـمـنـ أـفـلـيـ وـضـرـ للـدـعـاءـ

الـذـيـ صـورـ فـيـ شـوـقـيـ الدـعـاءـ الـذـيـ لـيـسـ وـرـاءـ خـيـرـ بـالـدـعـاءـ الـعـقـيمـ؛ فـنـبـهـ الطـرابـلـسـيـ  
عـلـىـ أـنـ مـثـلـ هـذـاـ التـصـوـيرـ هـوـ الـذـيـ حـىـ جـزـالـةـ تـعـابـيرـهـ الـغـالـبـةـ<sup>٣٤</sup>ـ، وـهـوـ فـهـمـ طـرـيفـ؛ إـذـ  
لـوـلـاـ الـوـصـفـ بـالـعـقـمـ وـتـقـديـمـهـ وـتـأـخـيرـ الدـعـاءـ إـلـىـ الـقـاـفـيـةـ وـتـعلـيقـهـ بـهـ، لـاـ ضـطـرـبـ تـرـكـيـبـ  
عـجـزـ هـذـاـ الـبـيـتـ. وـمـاـتـلـكـ إـلـاـ الـإـبـدـالـ وـالـتـرـتـيـبـ مـنـ أـعـمـالـ النـاظـمـ الـمـجـزـلـ.

وـدـعـاـ الرـكـيـكـةـ (ـسـقـيـمـ)ـ وـأـطـالـ الـحـدـيـثـ فـيـهـ؛ لـأـنـهـ (ـعـوـارـضـ نـادـرـةـ كـالـشـلـوذـ الـذـيـ  
يـؤـكـدـ الـقـاعـدـةـ، يـدـرـسـ لـتـوـثـقـ الـمـعـرـفـةـ بـالـقـاعـدـةـ لـاـ بـهـ)ـ<sup>٣٥</sup>ـ، وـفـسـرـهـ بـإـيـفـائـهـ حـقـ بـعـضـ قـيـودـ  
الـكـلـامـ، كـمـاـ فـيـ قـولـهـ:

قـنـاـئـفـ تـخـشـيـ مـهـجـةـ الشـفـسـ ئـلـيـ  
عـلـتـ مـضـوـدـاتـ أـلـيـاـ لـأـنـهـ رـبـبـ  
الـذـيـ أـرـادـ فـيـهـ وـصـفـ الـقـذـافـ بـقـوـةـ الـانـفـجـارـ وـاـرـتـفـاعـ الـمـدىـ، حـتـىـ إـنـ الشـمـسـ  
لـتـخـشـيـ أـنـ تـصـيـبـهـ إـذـ أـخـطـأـتـ مـرـمـاـهـ؛ فـضـاقـتـ فـسـحةـ الـبـيـتـ عـلـيـهـ أـرـادـ.  
وـكـيـاـ فـيـ قـولـهـ:

وـدـلـنـىـ الـقـوىـ مـاـشـأـتـيـشـيـ وـيـتـهـاـ  
لـكـمـ يـقـيـقـ إـلـاـ الـأـرـضـ وـالـأـرـضـ تـفـرـبـ  
الـذـيـ أـرـادـ فـيـهـ فـكـرـةـ تـقـارـبـ الـحـبـيـبـينـ رـوـحـاـ وـمـكـانـاـ، بـانـطـوـاءـ الـأـرـضـ الـفـاـصـلـةـ بـيـنـهـاـ؛  
فـلـمـ تـمـكـنـهـ الـقـافـيـةـ. وـمـاـتـلـكـ إـلـاـ الـإـبـدـالـ وـالـحـلـفـ مـنـ أـعـمـالـ النـاظـمـ الـمـركـبـ.

ثم قال: ((إن تعبير شوقي لم يخل من سوء، ولكننا نقر - مع ذلك - أن ظاهرة سوء التعبير ليست شائعة في (الشوقيات) بالقدر الذي يضعف قيمة أشعارها؛ فقد بقيت تعبير الشاعر محتفظة بجزالتها في الجملة، وبقيت تمثل في نظرنا عاملًا قويًا من العوامل الضامنة لوصول رسالة الشاعر إلى القارئ، ومن وسائل التعجيل بإيصالها، وإن لم تسلم أحياناً في قنوات الإبلاغ، من العوارض التي تغير وجهة الرسالة)).<sup>٣٣</sup>

لكان الطرابلسي بدراساته للشوقيات بعدما تقدم من دراسة الأهواني للسنائيات، يُتبين السبعين الحسنة، ويدل على من أخذ الشعر بحقه؛ فرده سيرته الأولى، بعدما حيد به عن جاذتها.

ولقد نبه أخيراً هنا، على تعلق السهولة (الوضوح) بالجزالة، على ما سبق أن استتبينا من كلام الأهواني الذي سيأتي له في الفقرة الحادية والعشرين، مزيد بيان، لم يمنعه من ذلك أن تعبريل الكلام (نسبة إلى الجزالة، وهو غير الجزال الذي هو اتباع الجزالة)، وتتركيبك (نسبة إلى الركاكة، وهو غير الإزكال الذي هو اتباع الركاكة)، حكمان وغيرها - سبق أنها عند الجرجاني، من صواب النظم ومن خطأه - وعيًا منه لقيمة هذا النمط من الأحكام ولزومه لكل ناظر في الكلام .

### **أـلـجـالـةـ وـالـرـكـاكـةـ عـنـدـ الـمـحـدـثـيـنـ فـيـ الـمـسـتـوـعـيـنـ**

ومن المحدثين كذلك، كثرة لم تستوعب من أمر الجزالة عند القدماء ولا متزلفها من الشعر العربي القديم، ما استوعبه عبد القاهر فيما سبق، تستعصي على المحاوره أساوهم؛ فتجمعهم فيما يأتي دعاوامهم .

### **[٢٠] الدَّخْوَى الْأُولَى: أَنَّ الْجَزَالَةَ وَالرَّكَاكَةَ مِنْ صِفَاتِ الْكَلِمَةِ الْمُفَرَّدَةِ.**

وهي دعوى ينبغي ألا نقف عندها طويلاً، بعد أن جعلها الجرجاني من مسائله المهمة التي أدار عليها دلائله، واستفرغ في تفنيدها وسعه، وقال فيها أصله السابق ذكره: «ليس لنا إذا نحن تكلمنا في البلاغة والفصاحة، مع معان الكلم المفردة شغل، ولا هي منا بسييل، وإنما نعمد إلى الأحكام التي تحدث بالتأليف والتركيب».<sup>٣٤</sup>

إن المتأمل يتطلّع على أنّ من المحدثين، من على الكلمة بالكلام، من حيث لا وجود له إلا بها؛ فقضى بوجوب فصاحة الكلمات المنفردات «لأنها أجزاء الكلام؛ فتعين أن تكون الأجزاء فصيحة ليكون مجموع الكلام فصيحاً»<sup>٣٥</sup>، وربما كانت هذه العبارة الأخيرة، من جري ابن عاشور في مضمار قول المرزوقي السابق ذكره: «عيار اللفظ الطبع والرواية والاستعمال؛ فما سلم مما يهجنه عند العرض عليها فهو المختار المستقيم. وهذا في مفرداته وجلته مراعي، لأن اللفظة تستكرم بانفرادها، فإذا ضامها ما لا يوافقها عادت

الجملة هجيّنا»<sup>(٢٣)</sup>، الذي لم يستبعد أن يكون الجرجاني قد عناه بتفنيده، ضمن ما فقد؛ إذ لا يتعلّق بالكلمة المنفردة إلا مقدار ما بين أصواتها من تأكّل ومتّخالف، وصياغتها من باهـا صواباً وخطأً، ومقدار شياعها في الاستعمال أنساً ووحشة، وهي كلها مسائل من غير سـيل نظم الكلام ولا جـزـالـه ولا رـكـاكـهـ.

ربـا نصر الدعـوى اتـحادـ الفـصـاحـةـ وـالـبـلـاغـةـ عـنـدـ الجـرجـانـيـ، وـانـفـصـالـهـ عـنـدـ غـيرـهـ<sup>(٢٤)</sup>، وـوقـوعـ الفـصـاحـةـ عـنـدـ غـيرـهـ فـيـ الـكـلـمـةـ المـنـفـرـدـةـ<sup>(٢٥)</sup>، وـهـوـ ماـ اـجـهـدـ اـبـنـ عـاشـورـ فـيـ الـجـمـعـ بـهـ بـيـنـ مـقـاـلـةـ الجـرجـانـيـ فـيـ الـفـصـاحـةـ وـمـقـاـلـةـ غـيرـهـ، مـتـهـيـاـ إـلـىـ أـنـ لـاـ خـلـافـ بـيـنـ الـبـلـاغـيـنـ فـيـ أـنـ الـكـلـمـاتـ الـمـنـفـرـدـاتـ تـفـاضـلـ فـيـ فـصـاحـتـهـ، إـنـاـ اـكـثـرـ السـاـكـنـونـ عـنـهـ بـحـصـولـ الـفـصـاحـةـ لـلـكـلـامـ عـلـىـ وـجـهـ الـعـمـومـ<sup>(٢٦)</sup>، عـلـىـ حـيـنـ تـبـهـ الجـرجـانـيـ نـفـسـهـ وـكـانـهـ يـرـىـ اـبـنـ عـاشـورـ مـنـ وـرـاءـ تـسـعـ قـرـونـ، حـلـ أـنـهـ «لـيـسـ هـذـاـ خـلـافـ ضـرـرـ عـلـيـنـاـ، لـأـنـ لـيـسـ بـأـكـثـرـ مـنـ أـنـ نـعـدـ إـلـىـ (ـفـصـاحـةـ)، فـخـرـجـهـ مـنـ حـيـزـ (ـبـلـاغـةـ وـبـيـانـ)، وـأـنـ تـكـوـنـ نـظـيرـهـ لـهـ، وـفـيـ عـدـادـ مـاـ هـوـ شـبـهـهـاـ مـنـ الـبـرـاعـةـ وـالـبـلـاغـةـ وـأـشـبـاهـ ذـلـكـ، مـاـ يـبـيـغـ عـنـ شـرـفـ النـظـمـ، وـعـنـ الـمـزاـيـاـ التـيـ شـرـحتـ لـكـ أـمـرـهـ، وـأـعـلـمـتـكـ جـنـسـهــ.ـ أـوـ نـجـعـلـهـاـ اـسـمـاـ مـشـرـكـاـ يـقـعـ تـارـةـ لـمـ تـقـعـ لـهـ ذـلـكـ، وـأـخـرـىـ لـمـ يـرـجـعـ إـلـىـ سـلـامـةـ الـلـفـظـ مـاـ يـتـقـلـ عـلـىـ الـلـسـانـ.ـ لـيـسـ وـاحـدـ مـنـ الـأـمـرـيـنـ بـقـادـحـ فـيـ نـحـنـ بـصـدـدـهـ»<sup>(٢٧)</sup>.

لـاـ أـثـرـ لـذـلـكـ عـنـدـ الجـرجـانـيـ فـيـ أـمـهـ وـاشـتـغلـ بـهـ؛ إـذـ قـدـ حـصـرـ مـكـمـنـ الإـعـجازـ الـذـيـ هوـ بـصـدـدـهـ، فـيـ نـظـمـ الـكـلـامـ الـذـيـ الـبـلـاغـةـ مـنـ صـفـاتـهـ عـلـىـ التـحـوـ السـابـقـ تـفصـيلـهــ.ـ وـلـكـنـ عـلـىـ رـغـمـ هـذـاـ الـحـضـرـ قـالـ اـبـنـ عـاشـورـ فـيـاـ بـعـدـ ذـلـكـ مـنـ شـرـحـ لـكـلـامـ الـمـرـزوـقـيـ:ـ «ـقـدـ رـأـيـتـهـ يـقـابـلـونـ الـبـلـاغـةـ مـرـةـ بـالـرـقـةـ، وـمـرـةـ بـالـرـكـاكـةــ، وـمـرـةـ بـالـضـعـفـ، وـمـرـةـ بـالـكـراـهـةـ؛ـ فـتـحـصـلـ لـنـاـ مـنـ مـعـنـيـ الـبـلـاغـةــ، أـنـاـ كـوـنـ الـأـلـفـاظـ الـتـيـ يـأـتـيـهـاـ الـبـلـغـيـ الـكـاتـبـ أوـ الشـاعـرـ، الـفـاطـأـ مـتـعـارـفـ فـيـ اـسـتـعـالـ الـأـدـبـاءـ وـالـبـلـاغـاءـ، سـالـةـ مـنـ ضـعـفـ الـمـعـنـيـ، وـمـنـ أـثـرـ ضـعـفـ التـفـكـيرـ، وـمـنـ التـكـلـفـ، وـمـاـ هـوـ مـسـكـرـهـ فـيـ السـمـعـ عـنـدـ النـطـقـ بـالـكـلـامـ أوـ الـكـلـامـ»<sup>(٢٨)</sup>.

إـنـهـ لـمـ يـعـدـ مـقـبـلـاـ مـعـ قـدـحـ الجـرجـانـيـ فـيـ الـمـحـدـثـيـنـ الـذـيـنـ يـتـداـولـونـ مـاـ لـمـ يـسـتـوعـبـواـ،ـ أـنـ نـجـمـعـ بـيـنـ مـقـابـلـهـمـ الـمـضـطـرـيـةـ،ـ لـنـسـتـخـرـ مـعـنـيـ تـمـسـكـ بـهــ.ـ وـلـقـدـ سـبـقـ فـيـ هـذـاـ الـبـحـثـ وـيـلـحـقـ،ـ نـقـدـ لـهـ كـافـ،ـ إـذـ إـنـ اـعـتـادـ الـمـقـابـلـةـ وـمـاـ إـلـيـهـ مـنـ وـجـوهـ الـإـبـدـالـ،ـ مـنـهـجـ سـدـيدـ فـيـ نـفـسـهــ،ـ بـلـ هـوـ عـنـدـ الجـرجـانـيـ كـمـاـ سـبـقـ،ـ أـحـدـ أـعـمـالـ النـاظـمـ،ـ وـأـحـدـ اـخـتـبـارـيـ النـاقـدــ.

ولـنـ نـزالـ نـجـدـ مـثـلـ هـذـهـ الـعـبـارـاتـ الـصـرـيمـةـ فـيـ نـصـ فـكـرـةـ وـصـفـ الـكـلـمـةـ الـمـنـفـرـدـ بـالـبـلـاغـةــ وـبـالـرـكـاكـةــ،ـ مـاـ بـقـيـ فـيـ الـمـحـدـثـيـنـ مـنـ يـرـىـ أـنـ:ـ «ـرـكـاكـةـ الـبـلـاغـةــ رـكـاكـةـ الـكـلـمـةـ»<sup>(٢٩)</sup>ـ.

[٢١] الدـعـوىـ الثـانـيـةـ:ـ أـنـ الـبـلـاغـةــ ضـيـدـ السـهـوـلـةـ وـالـرـقـةــ.

كأنما أراد بعض العلماء القدماء أن يولف قلوب المخصوص من أصحاب جرير وأصحاب الفرزدق، وأن يتعقى هر فتنة أطلبت بقرنها ولسعت الأعمى؛ فتكلف لكل صفةٍ غيره من الآخر، وترضي أصحابه، وأورثنا فتنة علمية مستمرة.

قال الأصفهاني: «الفرزدق يقدم على الشعراء الإسلاميين، هو وجرير والأخطل، وخلط في الشعر أكبر من أن يتبه عليه يقول، أو أن يدل على مكانه بوصف، لأن الخاص والعام يعرفانه بالاسم، وبعلمان تقدمه بالخبر الشائع، على يسفيني به عن الإطالة في الوصف، وقد تكلم الخاص في هذا قدّيماً وحديثاً، وتعصيراً واحتجراً، بما لا مزيد عليه، واحتفلوا، بعد اجتماعهم على تقديم هذه الطبقة، في أيام أحق بالتقديم على سائرها، فاما قدماء أهل العلم والرواية فلم يسووا بينها وبين الأخطل، لأنهم يلحق شاؤها في الشعر، ولا نهظل ما فيها من فخرية، ولا تصرف تكتصر فيها في محاورة، وزعموا أن ربعة أفرطت فيه حتى أخفته بها = وهم في ذلك طبقان: أما من كان يميل إلى جزالة الشعر، وفخامة، وشدة أسره، فيقدم الفرزدق، وأما من كان يميل إلى أشعار المطبوعين، وإلى الكلام السمع السهل الغزل، فيقدم جريراً».<sup>(١٦)</sup>

أوائل الفتنة المعاشرة باديه، وصفات المدح المتكلفة الفضاظ أو الاختلاف، لفتة بالغذلي، هي انتهينا إلى زيادة المعطوف من صفات الفرزدق، لبيان المعطوف عليه، وتفصيل المعطوف من صفات جرير المعاشرة فيها بينها بياناً، لإجمال المعطوف عليه:

جرير	الفرزدق
شاعرة	<u>جزالة</u>
شهادة	لغائة
شهادة	لغائة
فتوى	بلا آخر

ليس في تشابه هذه الصفات المترادفات عند كل منها، غير إخلاص الجزالة للفرزدق الذي يُشرع أصحابه بأنه لو لا جزالة لذهب لذهب تلك اللغة، والسهولة بجرير الذي يُشرع أصحابه بأنه لو لا جزالة لا يكتب العجائز = ولا في اضطراب هذه الصفات المقابلات، غير إصلاح ذات البين، الذي يُتحكل فيه من أصول كلية، منها هنا فراغة الأصطلاح وال مقابلة العلميّين.<sup>(١٧)</sup>

قال المرزاقي: «كان عامراً يقدم بجريراً، ويكتسح على الفرزدق بما عُقدَ فيه من شعره، نحو قوله:

لَئِنْ لَمْ أَفْلَكْ عَسَى أَعْنَى أَيَّاهَا

لَئِنْ لَمْ أَفْلَكْ عَسَى أَعْنَى أَيَّاهَا

ومثل قوله:

وَمَا يَنْلَاةُ فِي النَّاسِ إِلَّا مَنْ كَانَ أَبْرَأُ مِنْهُ حَتَّى أَبْرَأَهُ يَقْرَأُهُ

وأشباء ذلك. فقال كردين: أنت يا أخي لا تعقل، سقط الفرزدق شيءٌ يمتحن الرجال فيه عقرها حتى يستخرجوه، وسقط جرير عريٌّ، نحو قوله:  
والتكلبيُّ جنائزُ الشَّيْطَانِ»<sup>(٣٣)</sup>.

لقد غالى الفرزدق في الإجزال حتى عاظل، مغاليات أولئك بتفنيدها عليه ابن أبي إسحاق النحووي الإمام، حتى هجاه الفرزدق واستفزه إلى تأويلها؛ فبدت لأصحابه من مفاخره؛ فتمسكوا بها على النحو السابق، وهي - لو علموا - من نزغاته التي رغب بعض الباحثين في دراستها دراسةً نفسية<sup>(٣٤)</sup>، ولم يكن ينبغي للعلماء أن يجاملوهم بالسكت على أنها من الإجزال؛ فقد تشكّلت فيها أعماله، كما تتعشّل خيوط النسج؛ فانقطعت بالتلقي بعض المراحل إلى الفهم؛ فغمضت عليه<sup>(٣٥)</sup>؛ فدللت على اضطراب نفسي، لا على خصب عقلي. ولقد ميز الحرجاني في «أسرار البلاغة»، هذا الذي سماه «المُلْخَص»، من ذاك الذي سماه «المُعَنَّد»، بقوله: «المعقد من الشعر والكلام لم يتم لأنّه مما تقع حاجة فيه إلى الفكر على الجملة، بل لأن صاحبه يُعْذِر فكرك في متصرفه، ويشيك طريقك إلى المعنى، ويبرّر مذهبك نحوه، بل ربما قَسَّم فكرك، وشَعَّب ظنك، حتى لا تدرّي من أين تتوصّل، وكيف تطلب. وأما المُلْخَص فيفتح لفكيرك الطريق المستوي ويمهد له، وإن كان فيه تعاطفًّا أقام عليه المثار، وأوقد فيه الأنوار، حتى تسلكه سلوك المُبَشِّن لوجهته، وقطعه قطع الواائق بالتجدد في طبقته، فتَرَد الشُّرْبَعَةَ رَزْقَاهُ، والرُّوْضَةَ غَنَّاهُ، فتَنَال الرُّؤْيَ، وتقطف الزَّهْرَ الْجَنِيَّ. وهل شيء أحلى من الفكرة إذا استمررت وصادفت نهجًا مستقيماً، ومذهبًا قوياً، وطريقة تنقاد، وتبينت لها الغاية فيها تَرَتَاد»<sup>(٣٦)</sup>، وكأنها أراد أصحاب الفرزدق.

ولقد رغبت مرة في أن أتبين حقيقة هذه الدعوى؛ فكتبت لـ تلامذتي<sup>(٣٧)</sup>، غير متكلّف، هاتين الجملتين:

• جاء أخوك الذي رأيته عندك مسرعاً على رغم مرضه إلينا.

• على رغم مرضه جاء إلينا مسرعاً أخوك الذي رأيته عندك.

ثم أخبرتهم أنني لم أرد محض المجيء، على رغم أنه لباب الفكر، بل احتفال المرض. ثم سألتهم: أيتها أسهل (أوضح)، وأيتها أصعب (أغمض)؟ فاختلقو، غير أنني ومن له بهذا علم منهم - وكنا الأكثر - رأينا الأخيرة أسهل.

إننا نمكث في الجملة الأولى لنفهم المعنى المراد، وقنا أطولاً مما نمكثه في الجملة الأخرى، وإن انفقت بيتهما الكلمات؛ إذ نطلب الفائدة في غير موطنها، حتى إذا ما خاب مسعاناً، طلبناها في موطنها، ولكن بعد فوات الأوان!

ولم تكن صعوبة الجملة الأولى إلا من ضعف الترتيب الذي هو أحد أعمال المرُكُّ، ولا سهولة الجملة الآخرة إلا من قوة الترتيب التي هي أحد أعمال المجزُول.

ولقد كان فيها سبق من تفريق الأهوان بين الرِّكَاكَة والسهولة (الوضوح)، وجاء الطرابليسي بين السهولة والجزالة، وكلامه تنبئه على تعلق الصعوبة (الغموض) بالرِّكَاكَة - بيانُ طرف ما اشتمل عليه المستوعبون. ولكن الخالفين الذين جعلوا الفرزدق «يَنْجُحُ مِنْ صَخْرٍ»، وجريراً «يَغْرِفُ مِنْ بَخْرٍ» - ملأوا الجزالة من صعوبة الصخر، والسهولة من سلاسة الماء، حتى استفحلا لدى كثير من الدارسين الأمر؛ فصارت الجزالة والصعوبة شيئاً واحداً، والسهولة شيئاً آخر<sup>٢٠٠</sup>. بل قد وجدت بعض شُذوذ الشعر المعاصرين، يبادر نُقادَة بالسخرية من نفسه قائلاً:

لَكِنْ تَظَمَّنَكَ فَزَدَ فِي سَاجِهِ  
وَشَرَّكَ الْفَتَأَنْ رَغْبَةً مُخْتَلِ (...)  
لَا أَنْتَ تَنْهِرُ مِنْ تَهْرِيرِ فَرَسْقَهِ  
أَوْ أَنْتَ تَنْجُحُ بِجَزَلٍ مِنْ الجَبَلِ<sup>٢٠١</sup>

ولم تكن مقابلة الجزالة بالرقّة، إلا أخذنا فيها سبق، ولكنها أكدّت بمقابلة الأغراض. قال ابن الأثير في الأنفاظ: «(الجزول منها يستعمل في وصف مواقف الحروب، وفي قوارع التهديد والتخييف، وأشباه ذلك. وأما الرقيق منها فإنه يستعمل في وصف الأسواق، وذكر أيام البعداء، وفي استجلاب المؤدات، وملاينات الاستعطاف، وأشباه ذلك)»<sup>٢٠٢</sup>؛ فلم يميز الجزالة من الرقة بأوضاع النظم كما علمنا الجرجاني، بل بأطْرِ الأغراض، وهذا من إهانة الواجب الذي استمر في الخالفين<sup>٢٠٣</sup>. والرجل متهم بعدم استيعاب مقالات البلاغيين من قبله، وباضطراب تصور مسائل علوم البلاغة من جراء ذلك<sup>٢٠٤</sup>.

ولقد سبق لنا أن حرجنا عند القدماء أصحاب المصطلح، النقاء الجزالة والسهولة والرقّة حين تكون هذه جُفَفَةً، وافتراق الجزالة والرقّة حين تكون هذه سُخْفَةً - بما يفتده هذه الدعوى الثانية.

[٢٢] الدَّعْوَى الثَّالِثَةُ: أَنَّ التَّبْخِيلَ حُكْمٌ انتِبَاعِيٌّ (ذَوْقِيٌّ).  
في الباب الخامس من كتاب «الأسلوب»، درس الأستاذ الشايب «صفات الأسلوب» التي كانت عنده ثلاثة أصولاً: الوضوح، القوّة، والجَبَلِ<sup>٢٠٥</sup>، لم تبعد عنها الجزالة; فجاء كلامه قد يم الباطن حديث الظاهر؛ فأثار عليه نُقادَة صدمتهم المفارقة العجيبة؛ «فالأسلوب عنده - من حيث هو سمة للإبداع الأدبي - خاضع لرسوم

البلاغة التقليدية إلى حد كبير، بل إنه خاضع لهذه الرسوم خصوصاً تماماً رضم العبارات المنشحة بالعصريّة التي عبرت عن ذلك، أما من حيث هو مطلب للنقد الأدبي فلا مدرك له إلا الانفعال ولا سبيل إلى وصفه إلا هذه الكلمات الانطباعية الحالصة»<sup>(٣٠)</sup>— ومنها الجزالة<sup>(٣١)</sup>— «وهي عبارات لا يمكن أن نخرج منها بتحديد واضح ملموس يؤكد مفهوم الرجل للأسلوب وخصائصه»<sup>(٣٢)</sup>.

لقد أقبل أولئك النقاد على كتاب «الأسلوب»، وقدرُوا أن يُعَلِّقُهُمْ بِيَنِ النَّظَامِ المستولية على النصوص وملامح المجازة الصادعة للنظام، ناقدًّا مأخذ بشروط منهج النقد الأدبي الحديث التي توصل مقولات النقد في نظرية العلم؛ فعشروا بأديب قداميًّا مقلِّلاً يلوك مقولات بلاغية بالية، من مثل «الجزالة»، فراراً مما لا قدرة له على روشه، كفرار سلفه بقوله: «إِنَّ مِنَ الْأَشْيَايِّ أَشْيَايَةً تُحِيطُ بِهَا الْمَغْرِفَةُ، وَلَا تُؤْذِنَهَا الصُّفَّةُ»<sup>(٣٣)</sup> أو بقوله: «مَا يَخْتَارُهُ النَّاقِدُ الْحَافِقُ قَدْ يَتَفَقَّشُ فِيهِ مَا لَوْ سُئِلَ عَنْ سَبَبِ اخْتِيَارِهِ إِلَيْهِ، وَعَنِ الدَّلَالَةِ عَلَيْهِ، لَمْ يُمْكِنْهُ الْجَوَابُ إِلَّا أَنْ يَقُولَ: هَكَذَا قَضَيَّ طَبْعِي»<sup>(٣٤)</sup>، واستطالة بما لا يملك، كاستطالة سلفه بقوله:

عَزِيزٌ مِنْ الْأَذْيَقِ أَنْ يَتَرَكَّمَ  
عَلَى جانِبِهِ مَا اخْتَرَمَ<sup>(٣٥)</sup>

— وإلا على نمط من تفسير نصوص الأدب، من مثل «المجاز الألفاظ»، تتجلّى فيه هذه الخصال المتعاقبات الخدوث:

١. أنه يُحُصُّ صاحبَهُ، ولا يُعَلَّمُ منه.
٢. أنه يُتَبَعِّجُ مخالفته على نحو واسع، إلى ما رأينا ناقضه.
٣. أنه لا يمكن اختباره أصلًا.
٤. أنه لا يمكن تحطيمه هو أو غيره مما على نمطه.

ينبغي أن يُضاف — إنما استقام لصاحبه — إلى نصوص الفن، لا إلى أعمال العلم<sup>(٣٦)</sup> — وعلى رغم ما ذهب إليه باحثون في مسائل علم النفس، من دقة أحكام الهميجهين وجودة عمل عقول الراجدين (الطُّرَاب)<sup>(٣٧)</sup>، وفي نظرية الأدب، من تكامل أحكام الذوق وأحكام الاستنتاج المعلم<sup>(٣٨)</sup>، وفي علم الأسلوب، من دقة أحكام ذوق الخير<sup>(٣٩)</sup> — كفانا عبد القاهر الجرجاني فيما سبق مؤونة اقتصار بعض مجزيل الكلام على أحكام أذواقهم؛ إذ كان وهو ابن القرن الهجري الخامس، من يؤمنون برجوع تلك الأحكام إلى أوضاع نظم الكلام — فافتضحت لتهمي التجزيل بذلك، حال من عدم استيعاب مقالات البلاغيين السابقين، كحال ابن الأثير الآنفة.

[٢٣] الدَّغْوَى الرَّابِعَةُ: أَنَّ الْجَزَالَةَ ضِدُّ الْحَدَاثَةِ.

إنما تسمى قدماء العلماء والفنانين بقدامتهم، ومحذثوهم بحداثتهم، ولكن لما كان بين المعاصرین من هؤلاء أو أولئك على رغم تعاشرهم، من يحن إلى الماضي ويعمل له، ومن يشتغل بالحاضر وي العمل له، ومن يطمح إلى المستقبل وي العمل له - تسمى أوّلئك قدامياً، وثانيهم حداثياً<sup>(٢٠)</sup>، وأخرهم مستقبلياً<sup>(٢١)</sup>، حتى إذا ما خلف عصر عصراً، استمسك القديمي الآخر بالقديمي والحداثي الأولين سلفاً له وأطرح غيرهما، واستمسك الحداثي الآخر بالمستقبل الأول وأطرح غيره، وبقي المستقبل الآخر مُبْنِيَاً لا سلف له<sup>(٢٢)</sup>.

ولم يعد أمر الجزالة عند المحدثين المعاصرين، تلك الطوائف الثلاث؛ فقد اتبهوا للعربية وقد اتسعت فيها بين اللغة واللهجة، هوة من التطور، خيلت لهم متسعاً قادماً في رحم الغيب<sup>(٢٣)</sup>:

أما القديميون الذين قصروا الجزالة على القدماء<sup>(٢٤)</sup> فأثاروا غيرهم إلى الحديث عن «فتنة اللغة النقية» التي أحدها الصراع الشعوري والتناحر المذهبي كلامها، فحرمت العربية الصدق، وعاقتها عن التطور، وشغلت اللغويين عن مباحث مفيدة في دقة العبارات، وفي اختلاف الصيغ المشابهة الظاهرة<sup>(٢٥)</sup>، وإلى الحديث عن عجز مقولات النحو القديمة - وما الجزالة فيها رأيت، إلا إحداها - عن استيضاح النشاط اللغوي، وأن «كل ما صنته باحث عظيم في القرن الخامس (الجرجاني)، هو أنه أخذ يطبق هذه النظرية أو يطبق المقولات النحوية المتعارفة، تعبيقاً يتم عن ذكاء»<sup>(٢٦)</sup>، وإلى الحديث عن الأعرابي صانع العالم، ولغته «اللاتارنخية» الجسيمة، وهيمنة الذوق القديم على الذوق الحديث<sup>(٢٧)</sup>، وإلى الحديث عن مشكلة الفصاحة التي كان ينبغي أن تكون عوناً على المشكلات اللغوية، فجعلها «أهل الصفاء اللغوي»، أهلها<sup>(٢٨)</sup>، وإلى الحديث عن وخامة عاقبة الجزالة، فيما قصت فدوى طرقات من آثار الجزالة الذي حلها عليه أستاذها وأخوها إبراهيم الشاعر الكبير، قائلة: «لقد نما وتصدر اهتمامي بالتركيب القديم للعبارة الشعرية، إلى حد كانت أفكاري ومشاعري تنصرف معه عن التجربة الحقيقة، إلى الاهتمام بتركيب العبارات وانتقاء الكلمات ذات الطين والدوبي:

لَدِي بِإِنْكُمْ يُسَمِّي وَيُفْنِي فِي الْخَزِيرِ تَحَالَّمْ إِنْكَبْ مِنْ أَلَّهِ الْجَبْ بِكَلِيَّ مَا أَخْبَابَ قَلْبِي عَلَى قَلْبِي فَلَا تَأْلُمِي عَنْ بِكَلِي فَلَيَا	وَلِي عَنْدَكُمْ قَلْبُ غَرِيبٍ مُطَرَّعٍ طَلِيَّعٌ إِذَا اسْتَهْفَتَهُ كَنِيْ أَقْبَلَهُ فَلَا تَأْلُمِي عَنْ فَلَيَا صَبَابَةٍ مَسَلَامٌ عَلَيْهِ إِذَا بَمَوْثَ صَبَابَةٍ
---	---

(...) كل هذه كنت أحسها سداً يقف دون الحركة والتدفق والانطلاق بعفوية وصدق خلال عملية النظم. كنت أحس التصنّع يدب في ثنياً أشعاري ويصلق بها صفة الجفاف والبيوسة. ولم أكن أعرف كيف أبعث في قصيدي *النسخ المفقود*، ولا من أين أستمدّه. كنت أنتح من صخر فعلاً، وكان هناك شيء يكبل الجيشان العاطفي في داخلي، ويحول دون جريان التيار النفسي في قصيدي بسهولة ويسر، ولم أهتد إلى أصالتي إلا يوم هداني الدكتور مندور إلى أدب المهجر»<sup>٣٣٣</sup>.

وأما الحداثيون الذين عافوا *الجزالة* واستمسكوا – أو كادوا – بالركاكة التي اتهموا بها وحسبوا فيها<sup>٣٣٤</sup>؛ فأثاروا غيرهم إلى الحديث عنها في مصطلح «الحداثة» من قبول لشيء من الضياع، وما في مصطلح «القادمة»، من مجاهدة لذلك الضياع<sup>٣٣٥</sup>، وإلى الحديث عنها يعني به على الكلام، اطراح الفصاحة، من ضعف وفسولة، وأنه «صحيح أن (الفصاحة) وحدها لا تصنع فناً، ولكن بعد عن الفصاحة – بدون صفة أخرى في الكلام – هو من الفن أبعد»<sup>٣٣٦</sup>، وإلى الحديث عنها في استبدال فصاحة حديثة، بفصاحة قديمة، من فوضى إذا انفتح بابها لم يقر للعربية قرار<sup>٣٣٧</sup>، وإلى الحديث عنّ أخذ مادة شعره من معالم الحياة العادية المكررة المبتذلة، ثم وصلها «(باللغة التي كانت تصف بعر الأرام دون أن تفقد بهاءها وفخامتها)»<sup>٣٣٨</sup>، وإلى الحديث عن وحامة عاقبة *الركاكة*، فيها وجد الحساني حسن عبد الله، في مثل قول نزار قباني:

«الأشنم  
 & جليلة بوخيزد  
 & رقم الزنزات تشعونا  
 & في السجن الخزي يوهران  
 & والثمن اثنان وعشرون  
 & عينان كقنديل مغبظ  
 & والشعر العربي الأسود  
 & كالصيف كشلال الأحزان  
 & إسريق للناء وستجان  
 & ويد تقص على القرآن  
 & وأمرأة في ضوء الصبح  
 & نشتريج في مثل البور  
 & آيات محنة الإزنان  
 & من سورة (مزيم) و(النتح)».

من آثار لإركاك: «منها التقرير غير المفید، ومنها رکاکة اللغة، کااضطراره إلى قطع هزة الوصل في كلمة (الاسم)، واستعمال الروا في قوله (وامرأة في ضوء الصبح)، يربد أن يشدهنا هنا بغرابة المنظر كأنها نراه فجأة، ناسيًا أنه حدثنا من قبل عن أنشى اسمها جيلة لها عيستان وشعر ويدان (...). ومنها كذب الشعور (...). ومنها رقاعة شائعة في الشعر الحر كله (...). أعني الفصل لغير ضرورة في كثير من الأحيان بين أجزاء لا تقبل الانفصال، كالمبتدأ والخبر، والفعل والفاعل، والجار والمجرور، والمضاف إليه، ومثاله هنا وضعه كلمة (الاسم) في سطر (جيلة) في سطر»<sup>(٣٣)</sup>.

وأما المستقبليون الذين رفضوا الجزالة والرکاکة جيًعاً معًا، بدعوتهم إلى تغيير نظام اللغة والتفكير، طاحين إلى ما لا يتأتى فيه لأحد تجزيل ولا تزكك<sup>(٣٤)</sup>، فأثاروا غيرهم إلى الحديث عن علاقة الاستمساك بالأصول بالاستمساك بالحضار، وعن أن موقف الكاتب العربي المعاصر من اللغة (الفصيحة) جزء من الظاهرة الأسلوبية عنده، وعن لزوم الإطار المرجعي<sup>(٣٥)</sup>، إلى الحديث عن أن اطراح الفكر القديم بما فيه من آثار اللغة والتفكير القديمين، ينقص من إنسانية الإنسان ويجدب من حياته ويطغى من بصيرته<sup>(٣٦)</sup>، وإلى الحديث عن استيعاب نظام لغتنا وتفكيرنا العربي الخصب، لتجارب أولئك المستقبليين التي ظلت مارقة منه<sup>(٣٧)</sup>، وإلى الحديث فيها تشره الصحف دون رقابة، عن اختراق للقواعد اللغوية الأولية، أقرب إلى لعب الصبيه، منه إلى المقوله النظرية الحديثة<sup>(٣٨)</sup>.

إنه لو صح اقتصار الرکاکة على المحدثين دون القدماء، لصح اقتصار الجزالة على القدماء دون المحدثين؛ فلما لم يصح ذاك، كما سبق أن ذكرت عن الجاحظ في قوله: «من الكلام الجزل والسخيف، والملبس والحسن، والتبخ والسمخ، والتحفيف والتشليل، وكلمة عَرَبِي»<sup>(٣٩)</sup> - لم يصح هذا.

ثم لا حياة ولا بقاء لثقافة لم يُحظَ من حميتها بأولئك الثلاثة (القدميين، والحدثيين، والمستقبليين) جيًعاً معًا، على ألا يغفل بنوها عن تكاملهم، وإن بدروا متقاضين؛ فالحاضر ابن الماضي، والمستقبل ابن الماضي والحاضر جيًعاً، ثم هو أهل الحاضر، كما كان الحاضر أهل الماضي - ولا عن السلك الذي يتظلمون في عقد ثقافة واحدة وإن بدروا مختلفين؛ فلا اتساب لثقافة بحيث يقال: عربية أو عجمية، حتى تسلم لها أصول نظام اللغة والتفكير، مُسْتَمِرَّةً في الماضي والحاضر إلى المستقبل، وما هذه الأصول إلا منهج أعمال ناظم الكلام (إيدال الكلم للجملة والجمل للفقرة والفقر للنص والنصوص للكتاب، وترتيبها، والحدف منها، والإضافة إليها) التي يُجزِّها أو يُرْكِّها فيدل على مبلغ اجتهاده.

خاتمة

[٤] ييدو البحث لقارئه، في أمر الجزالة (صفة الشعر العربي القديم) والإجزال (إخراج الشعر العربي القديم على هذه الصفة) والتجزيل (الحكم على الشعر العربي القديم بهذه الصفة) وأمر الركاكة (ضد الجزالة) والإراكال (ضد الإجزال) والرذكك (ضد التجزيل)، أكثر منه في أمر الهللة صفة وإخراجاً وحكماً، حتى إذا ما مضى فيه إلى غايته، اطلع على أن تلك الأمور الثلاثة أمر واحد.

لقد بلغ أمر الهللة التي تلقب بها عدي بن ربيعة التغلبي الشاعر العربي القديم، من الغموض، أن الهذللة صفة قدح مرة وصفة مذهب أخرى، وأن التبست كلمات القدر والمدح متنامية وكأنها روعي قياس بعضها إلى بعض، وأن ساعدت اللغة على ذلك.

ولقد يسرت قطعة عدي التي اختارها أبو تمام لباب المراثي من ديوان الحماسة، السبيل إلى تحقيق أمر الهللة بتحقيق أمر الجزالة (وضدها الركاكة) التي ذكرها المرزوقي شارح الديوان، في أبواب عمود الشعر العربي القديم التي انبني عليها الاختيار؛ فاتضح وقوع هللة مهللة بينهما: من قدح فيه بها فقد عدنا من الركاكة، ومن مدحه بها فقد عدنا من الجزالة.

ولما كان المرزوقي قد ترك شرح أمر الجزالة (وضدها الركاكة)، وكان عبد القاهر الجرجاني قد نوى على المحدثين الذين المرزوقي واحدٌ منهم، استعمالهم مصطلح القدماء (جزالة الألفاظ) دون تحمل تكاليفه الثلاثة: علم معناه وعلم غرضه وعلم تفسيره، أي أن يجعلوا أمر تلك المزية - ابغي لنا في أمر الجزالة والركاكة :

أولاً: أن نبحثه عند القدماء لدى الجرجاني البعيدي القدماء لدينا، ولا سيما ما استوعبه هو عنهم.

ثانياً: أن نبحثه عند من استوعبه من المحدثين لدى القدماء لدينا والمحدثين لدينا الغائبين لديهم جيئاً معاً.

ثالثاً: أن نبحثه عند من لم يستوعبه من المحدثين لدى القدماء لدينا والمحدثين لدينا الغائبين لديهم جيئاً معاً.

حتى إذا ما انجل أمرهما انجل أمر الهللة.

ولقد اتضح أن الجزالة ومثلها هللة المدح (الخلفة)، والركاكة ومثلها هللة القدر (السخف) عند القدماء، صفتان نحويتان في نظم الكلام إيدالاً وترتباً وحدفاً وإضافة، تستبهان على من يستوضحهما في غير نحو الكلام، تكون الأولى متى انتظم قريباً كالحبيل المشدود لا يتبع لمستوعبه أن يقول: لو كان كذا مكان كذا لكان أفضل، وتكون الأخرى متى انتظم ضعيفاً كالحبيل المُرْخى يتبع لمستوعبه أن يقول ذلك، وشاهد الحكم الموازنة المسروقة بين نظمي كلامين مختلفين، أو بين نظمي الكلام نفسه، السالم والمغير.

ثم اتضح استيعاب قلة من المحدثين كابن رشيق والقرطاجي والأهواي والطرابلسي، من أمر الجزالة (وضدها الركاكة) عند القدماء ومتزليها من الشعر العربي القديم، ما استوعبه الجرجاني، كما دلت على ذلك نصوص لهم واضحة.

ثم اتضح عدم استيعاب كثرة من المحدثين، من أمر الجزالة (وضدها الركاكة) عند القدماء ومتزليها من الشعر العربي القديم، ما استوعبه الجرجاني، استعcessت على المحاوررة أساوهم؛ فجمعتهم دعاوى أربع أدلة وفندتها:

الأولى: أن الجزالة والركاكة من صفات الكلمة المنفردة.

الثانية: أن الجزالة ضد الشهولة والرقة.

الثالثة: أن التغزيل حكم انتلاغي (ذوق).

الرابعة: أن الجزالة ضد المخاثة.

[٢٥] ومما ذكرت ما تيسر لي دراسته، لم أفرح بأن ينسى القارئ بـ أمر الهللة، فرق ما بين شعر مهلهل وشعر غيره المحمول عليه المتحول إليه، ثم فرق ما بين شعره وشعر من قبله وشعر من بعده (موعدتي في مقدمة هذا البحث)! وإنني لأرجو أن أضع في إنجاز هذه الموعدة، بحثاً تاليًا أو أكثر، والله المستعان.

## خواهي الفضل الثاني

- ١ خوب: ١٩، والقول: ١١٣؛ فقد أشارا إلى الأخلاق في سنته موته بين ٨٢١ و ٨٤٦ م: .٨٤٦
- ٢ الفريحات: ٨٤ = ٨٣.
- ٣ السابق: ٨٣.
- ٤ السابق: ٤٤ = ٤٩.
- ٥ ابن ذريدة: ٣٣٨، وراجع كذلك: ٦٦.
- ٦ ابن سلام: ٤٩ / ١.
- ٧ المروياني: ٩٤.
- ٨ ابن منظور: هـل:
- ٩ المروياني: ٩٤.
- ١٠ ابن قبية: ٢٩٧ / ١.
- ١١ القالي: ١٤٩ / ٤، وإن خص إيقانه الشعر عند ابن قبية، بالمرالي، فيما قرأ له على ابنه أحمد، والبغدادي: ١٦٤ / ٢.
- ١٢ الأصفهاني: ٨ / ١٧٠١، وفي ((غُنِي))، بالبناء للمعمول، وبناء للفاعل = إن شاء الله = هو الصواب؛ فمن غني في شعرهم من العرب لا يتحققون غرارة، ولا الأغاني) نفسه شاهد، فاما من غنوا هم في شعرهم هم، قليل، ولقد يقرى وأيضا نسبة من نسب هليمة مطهول، إلى حسن صورة، فيما ذكر فارسنا: .٨٩
- ١٣ ابن منظور: رقق.
- ١٤ الوفوي: ٤٣ / ١.
- ١٥ ابن منظور: خذت، وهذه ((...)) علامة خذني أنا لا صاحب الفض، من نفسه ما لا أزيد، فاما هذه ((...))، فعلامة خذني صاحب الفض نفسه في خلال علامة ما لا يزيد.
- ١٦ المروياني: ١٦٢.
- ١٧ ابن منظور: هـل.
- ١٨ المروياني: ٩٤.
- ١٩ السابق نفسه.
- ٢٠ أبو قمام: ٤٨٤ / ١ = ٤٨٨.
- ٢١ خوب: ٤٤.
- ٢٢ القوال: ٤٧.
- ٢٣ المزوقي: ٩ / ١.

- ٢٤ الجاحظ: ١٤٤/١.
- ٢٥ ثعلب: ٦٣.
- ٢٦ الأصفهاني: ٢٥/٩٤٥٣، ٨٦٧٥/٢٧.
- ٢٧ الأدمي: ٤٢١/١.
- ٢٨ المعترلي: ١٩٨/١٦.
- ٢٩ العسكري: ١٥٥، وكذلك الطناхи: ٥-٦.
- ٣٠ ابن منظور: جزل.
- ٣١ السابق: ركك.
- ٣٢ الجاحظ: ١٤٤/١.
- ٣٣ روى بالشريفي ابن دريد: ٦١، أنه إنما «سمى مهللًا لقوله: لما ترقى في الكراع مجدهم هلهل ثم أثار بالكلأ أو صنيل». وكذلك صنح البغدادي: ٢/١٦٥، وابن منظور: هلل، والقوال: ٨، وغيرهم، وهو ما أباه حرب: ٨، ساخرًا: «إن فارستنا الذي دوخ بكرًا وفتك بأبطالها اسمه (الذي كاد) أو (الذى كاد يشار!)»، مؤثراً أن يكون لقبه اسمه، ولا سيما أن من معانيه السم، فيكون سُمُّ أعدائه، على ما كان العرب يرغبون لأساءة أبناءهم أن تكون.
- وليس يمتنع - على وجاهة التقد - أن يكون عديًّا ابتدع الفعل (هلل) في اللغة؛ فمثل هذا من عمل الشعراء، أو ابتدع ذكره في الشعر، فسموه به.
- ومن الطريف قول فارمر، ٥٩: «قيل إن (عدي بن ربيعة) وهو شاعر بني تغلب الأشهر، ما لقب بالهلل إلا لحسن صوته. على أن كتاباً آخرين يقدمون أسباباً أخرى لاشتهر به بهذه الصفة».
- ٣٤ المرزوقي: ٩/١.
- ٣٥ البرجاني: ٤٥٦.
- ٣٦ صمود: ٤٩٧-٤٩٨.
- ٣٧ ناصف: ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢-١٨٥، ١٨٦-١٨٧.
- ٣٨ البرجاني: ٧٢.
- ٣٩ ضيف: ١٦١-١٦٠.
- ٤٠ البرجاني: ٨١.
- ٤١ السابق: ٨٢.
- ٤٢ السابق: ٩٨.
- ٤٣ البرجاني: ٦٣ - ٦٤. وعلى رغم ذلك ظنه الأستاذ الشايب يقول بأسلوبين لفظيٍّ ومعنويٍّ؛ فزيف الدكتور عياد: ٢٩، ظنه قائلاً: «وضع الأستاذ الشايب لقضية اللفظ والمعنى يتجاوز كل ما كتبه

عبد القاهر حول هذا الموضوع؛ فلم يذهب عبد القاهر فقط إلى مثل قول الأستاذ الشايب إن هناك أسلوبًا معنويًا، وأسلوبًا لفظيًّا يتكون على مثاله. ولا شك أن هذا تبسيط شديد للعلاقة بين اللغة والفكر، ولكن الإجماع منعقد بين الباحثين في اللغة والأدب والأنثروبولوجيا وعلم النفس، على أن العلاقة بين اللغة والفكر لا تتم من جانب واحد يمكن أن يعد أحدهما أصلًا والآخر صورة له».

٤٤ المترلي: ١٩٧/١٦، والأمدي: ٢٣٩/١، والمرزوقي: ١/٧، وابن طاطبا: ٦.

٤٥ البرجاني: ٣٦.

٤٦ ابن منظور: جزل، وركك.

٤٧ السابق: جزل.

٤٨ الأصفهاني: ٩٤٥٣/٢٧.

٤٩ البرجاني: ٨١، ٨٢. ومن أطرف الاتهامات - كما أوضح عبد اللطيف: ٤٧ ح، نقلًا عن داود عبد - ألا تخرب أقسام القراء العروضية التي تحول بها بنية الجملة الداخلية إلى بنيتها الخارجية عند التحريين التحرييليين، عن أقسام أعمال الناظم التي وجدتها في تفصيل البرجاني. وإنما كان ذلك من أنها التي بها ابنت البناء الداخلية في أصلها.

٥٠ السابق: ١٣٧.

٥١ ابن سنان: ١٥١.

٥٢ ابن منظور: خلخ.

٥٣ قدامة: ٤١٨١ فقد ذكر من عيوب العروض «التخلص» أي الإفراط في الزحاف، الذي يخرجه «عن باب الشعر الذي يعرف السابع وزنه في أول وهلة، إلى ما ينكره حتى ينعم ذوقه، أو يعرضه على العروض فيصح فيه؛ فإن ما جرى هذا المجرى ناقص الطلاوة، قليل الحلاوة»؛ فلم أجد أدلة على شدة إرتكاك الكلام من التخلص؛ فاستقرت للتحو من العروض، على طريقة علينا القدماء أنفسهم الدالة على اتحاد أصول تفكيرهم وأصالحة عملهم فيما استبطنوا من العلوم الخالصة لهم.

٥٤ الأمدي: ١/٦، ٤٢٩، ٥٧، والقرطاجي: ٣٧٦، ومصلوح: ٤٩، ١٠٥، وصقر: ٤٢-٣٩.

٥٥ ناصف: ٤٢٥٢؛ فقد قال: «جاء عبد القاهر فكتب كتاباً خلاصته: إذا أريد لدراسة الأدب أن تبلغ درجة من النضج، فلا بد من إقامة رابطة بينها وبين المسائل التحوية المتعلقة بنظام الكلمات أو تركيب العبارات. من التحوى يمكن أن ينشأ فصل مهم في علم الأدب. هذه القضية البسيطة التي يرفع لواءها باحث ذكي في القرن الخامس. من التأمل في الاحتمالات التحوية يمكن أن يفتح الباب أمام خبرة أقوى بالشعر. ولن نستطيع أن نفهم الشعر ما لم نستطع أن نتحول دراسة التحوى بحيث تفيينا في توضيح لغة الشعر التي ظلت توصف وصفاً مبهما في الكتابين العظيمين اللذين كتبهما الأمدي والقاضي البرجاني. كان الأمدي والبرجاني يتحدثان عن قرة الألفاظ. وما من ناقد تعرض للشعر دون أن يفطن

إلى هذه الخاصية، لكن قوة الألفاظ ظلت عبارة مبهمة أو باباً مغلقاً؛ فكيف يمكن أن نعرف ما نسميه باسم قوة الألفاظ وفاعليتها؟ لابد لنا أن نستعين بال نحو الذي هو روح اللغة ونظامها». ولم تكن قوة الألفاظ عند عبد القاهر الجرجاني إلا جزء منها، ولا كان الأ müdّي وعلى الجرجاني إلا بعض المحدثين.

- ٥٦ المحافظ: ١٤٤/١.
- ٥٧ فندرис: ١٩٥، وأونج: ١٩٩ - ٢٠٠، يوسف: ١٩٨ - ١٩٩، ٢٣١، ٢٣٢ - ٢٣٣، والوعز: ٨٠ - ٨٢، والعبد: ١٢٠.
- ٥٨ الأصفهان: ٢٣/٨١٧٦.
- ٥٩ ابن رشيق: ١/١٢٩ - ١٣٠.
- ٦٠ السابق: ١٢٤/١.
- ٦١ السابق: ١٢٥/١.
- ٦٢ السابق: ١٢٦/١.
- ٦٣ السابق: ١٢٥/١.
- ٦٤ السابق: ٩٣/١.
- ٦٥ القرطاجي: ٢٢٥.
- ٦٦ ابن منظور: مسك.
- ٦٧ القرطاجي: ٢٢٤.
- ٦٨ المحافظ: ١٤٤/١، وكذلك الحفاجي: ٣٢ - ٣٣، ٨٢.
- ٦٩ ابن طباطبا: ٨ - ٩.
- ٧٠ الجرجاني: ٦.
- ٧١ الأهواي: ٤١، ٤٢، ٤٣.
- ٧٢ ابن أبي الصبع: ٤١٠.
- ٧٣ الحلبي: ١٣٤. ولقد رغبت مرة في خلال تدريسي لعلم عروض شعر اللغة العربية، أن أسطرد إلى أمثلة من شعر اللهجة المصرية، دلالة على علاقتها؛ فذكرت ذلك لأستاذي محمود محمد شاكر - رحمه الله - فزجرني عنه شديداً!
- ٧٤ الأهواي: ٤٤.
- ٧٥ السابق: ٤٣.
- ٧٦ الطراطيلي: ٣٢٥.
- ٧٧ السابق نفسه.
- ٧٨ السابق: ٣٢٦.

- ٧٩ السابق: ٣٣٠.
- ٨٠ الجرجاني: ٧٢.
- ٨١ ابن عاشور: ٢٨.
- ٨٢ المزوقي: ٩/١.
- ٨٣ البرقوقى: ٣٧.
- ٨٤ السابق: ٢٤.
- ٨٥ ابن عاشور: ٢٨، ٣١-٤١، ٤٢-٤٣.
- ٨٦ الجرجاني: ٥٩.
- ٨٧ ابن عاشور: ٦٤-٦٥.
- ٨٨ الباجري: ١٤٢. من هؤلاء المحدثين أساتذة وزملاه متخصصون، بأقسام اللغة العربية، لا  
نفتّأ تستفيد من حماورتهم.
- ٨٩ الأصفهانى: ٢٥/٨٦٧٥-٨٦٧٦.
- ٩٠ الأكمي: ١/٤٥ فقد أعرض الشيخ عن التصریح بمن يقدم من الطائئن؛ إذ ليس فيه إلا  
التعرض لنم أحد الفرقين: الأصحاب أو الخصوم.
- ٩١ المرزباني: ١٦٢.
- ٩٢ محمد (السيد): المقدمة.
- ٩٣ خليل: ٢٢٥-٢٢٨.
- ٩٤ الجرجاني: ١٤٧.
- ٩٥ كانوا سنة ٢٠٠١ م، في فصلهم الأخير بقسم اللغة العربية، من كلية التربية، يدرسون علينا  
بنظيره من كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، بجامعة السلطان قابوس، مقرر «نصوص وتدريبات  
نحوية».
- ٩٦ ضيف: ٢٧-٢٨، وإبراهيم: ٩٥-٩٧، ١٠١، والحسيني: ٢٥٣.
- ٩٧ العريمي: ٢٧، ٢٨.
- ٩٨ ابن الأثير: ١/١٨٦، وابن عاشور: ٦٤-٦٦، وقصاب: ٢٠٢.
- ٩٩ ابن الأثير: ١/١٨٦.
- ١٠٠ ابن عاشور: ٦٤-٦٦، وقصاب: ٢٠٢، وعبد المطلب: ١١٢-١١٣.
- ١٠١ ضيف: ٣٣٤-٣٣٥.
- ١٠٢ الشايب: ١٨٥-٢٠٢.
- ١٠٣ عياد: ٣١.
- ١٠٤ السابق نفسه.

١٠٥ عبدالمطلب: ١١٧.

١٠٦ الأمدي: ٤١٤ / ١.

١٠٧ المرزوقي: ١٥ / ١. وفي شرحه لمراد المرزوقي «بالطبع»، انتهى ابن عاشور: ٢٠، إلى مرادفة الذوق له، مستشهاداً بساعده أئمة الأدب يقولون: «هذا يشهد به الذوق السليم والطبع المستقيم».

١٠٨ ابن عربي: ٦٧. وراجع ابن عاشور: ٢٠؛ فقد روى عن السكاكي أن أستاذه الحاتمي كان يحيلهم كثيراً، إذا راجعواه في محضنات الكلام، على الذوق، ثم قال: «ونحن حيتنا من نبع في عدة شعب من علم الأدب».

١٠٩ شبستر: ١٣٢ - ١٣١.

١١٠ مای: ٥٧.

١١١ ويليك: ٢٦٥. ولقد قال شبستر نفسه في عقب رفضه لأساس التحليل الأسلوبي الثاني: «لا يعني رفضنا لهذا الاتجاه أن الحدس أو التقويم الذاتي بمعناه الواسع، لا يحتمل مكاناً في التفسير الأسلوبي الشامل. إن مثل هذا الجانب في داخل التفسير، ينبغي توضيحه وعدم الاستغناء عنه بعد ذلك، وخاصة عند عدم وجود إمكانيات أخرى في التفسير أو الشرح، وينبغي كسب أساس أي تفسير من خلال المنهج التحليلي التي يمكن القيام بها»، ١٣٢.

١١٢ مصلوح: ٨٨.

١١٣ يميل بعض المثقفين المعاصرين إلى أن يميزوا المهتم للشيء، بالنسوب إلى مصدره (مثاله الإسلامي، للمشتغل بالإسلام العامل له)، والخاري فيه على موروث عاداته، بالمشتق من مصدره (مثاله الأنثيم - اسم الفاعل - للمكتفي من الإسلام بما تعود)، ولا بأمس هذا التمييز، وإن أشكل علينا في «الاستقبالي»؛ فتركناه إلى ميمية.

١١٤ وإن اتفقى التلاقي (استقبالي).

١١٥ مثل يوسف إدريس في قول جيد طويلاً في جبله من القصاصين والروائين المصريين: «نحن جيل لا أساتذة له»؛ فقال: «إذن لم يتعلموا!»

١١٦ الأهوان: ٦٣، وإساعيل: ١٧٦؛ فقد نبهها على مشكلة اللغة المستمرة عند المحدثين الأولي والأولى.

١١٧ ابن عاشور: ٦٥، وقصاب: ٢٠٢ - ٢٠٠.

١١٨ ناصف: ٤٢، ٧٧، ١٣٢.

١١٩ السابق: ٨٨. وإن تبه فيها بعد على أن منهج الجرجاني كان ثورة على تلك المقولات القديمة، واعتذر عنه قائلاً - ٢٤٨ - : «ليس من الصواب أو الشرف في شيء أن نطالب باحثاً ذكياً في القرن الخامس، بما عجز عنه الدارسون حتى القرن الرابع عشر الهجري»، طاويًا اعتذاره عنه بدعوة الباحثين إلى استحداث مقولات لما يستحدثون من مناهج.

- ١٢٠ الجابري: ٨٦، ٨٧-٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، وكذلك عبد المطلب: ٣٦٢.
- ١٢١ الحمزاوي: ١١-١٣، ٢٦، ٢٧-٢٨، ١٦١، ١٦٢.
- ١٢٢ طرقان: ٨٩، ٩٠، ٩١-٩٢.
- ١٢٣ قباني: ٣٤، ٤٤-٤٦، وطرقان: ٨٨، ٩٣.
- ١٢٤ ناصف: ب = ٢٠، وكذلك بشر: ٣٤-٣٥، ٥٦-٥٩.
- ١٢٥ عياد: ٨٤.
- ١٢٦ بشر: ٧٨.
- ١٢٧ حجازي: ١١.
- ١٢٨ عبدالله: ١٦-١٩. ولا تخفي دلالة كلامه على أنه من أصحاب الدعوى الأولى المفتدة في الفقرة العشرين.
- ١٢٩ أدونيس: ١٣٥-١٣٦، والخراط: ٤٦. ولقد وضعت في تأمل هذه الدعوة بحثاً باسمها، قصيراً، أرجو أن يتاح لي نشره قريباً.
- ١٣٠ عياد: ٧٣-٧٤، ١٠١، ١٠٣-١٠٤.
- ١٣١ محمد: ٣٠، وعل: ١٢.
- ١٣٢ بزيع: ١٠٣. وبهذه الترتيبة خرج بحثي المشار إليه في (١٢٩).
- ١٣٣ درويش: ٣٠٩. وكذلك الملائكة: ٣٣٢؛ فقد سخرت بمثل هذا، من سمعته « طفل اللغة المدلل».
- ١٣٤ الجاحظ: ١٤٤/١.

## **كتب الفضل الثاني**

- الأمدي (أبو القاسم الحسن بن بشر): «الموازنة بين أبي تمام والبحترى»، تحقيق السيد أحد صقر، وطبعة دار المعارف بمصر، الرابعة.
- إبراهيم (الدكتور شكري بركات): «دراسات في الشعر العياني: ٤ - البديع واللغة في الشعر العياني الوسيط» طبعة سنة ١٩٩٤ م، ونشرة دار الثقافة العربية بالقاهرة.
- ابن أبي الإصبع (المصري): «تحرير التعبير في صناعة الشعر والثر وبيان إعجاز القرآن»، قدم له وحققه الدكتور حفني محمد شرف، وطبعه المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالجمهورية العربية المتحدة.
- ابن الأثير (أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن أبي الكرم محمد الشيباني الجزري): «المثل السافر في أدب الكاتب والشاعر»، قدم له وحققه وعلق عليه الدكتور أن أحد الحوفي ويدوي طبانه، ونشرته دار نهضة مصر بالقاهرة.
- ابن دريد (أبو بكر محمد بن الحسن): «الاشتقاق»، حققه وشرحه الأستاذ عبد السلام هارون، وطبعته دار الجليل بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤١١ هـ = ١٩٩١ م.
- ابن رشيق (أبو علي الحسن الأزدي): «العمدة في عيasan الشعر وأدابه ونقدّه»، تحقيق الأستاذ محمد عي الدين عبد الحميد، وطبعه دار الجليل بيروت، الخامسة سنة ١٤٠١ هـ = ١٩٨١ م.
- ابن سلام (محمد الجمحى): «طبقات فحول الشعراء»، قرأه وشرحه أبو فهر محمود محمد شاكر، وطبعه المدى بالقاهرة.
- ابن سنان (أبو محمد الخفاجي الحلبي): «سر الفصاحة»، تحقيق علي فوده، الطبعة الثانية سنة ١٤١٤ هـ = ١٩٩٤ م، نشرة الخانجي بالقاهرة.
- ابن طباطبا (أبو الحسن محمد بن أحد العلوى): «عيار الشعر»، حققه الدكتور عبد العزيز بن ناصر المانع، وطبعته دار العلوم بالرياض سنة ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م.
- ابن عاشور (محمد الطاهر): «شرح المقدمة الأدبية»، طبعته دار الكشاف بيروت سنة ١٣٧٧ هـ = ١٩٥٨ م، ونشرته دار الكتب الشرقية بتونس.
- ابن عربي (أبو عبد الله عي الدين بن علي الحاتمي الطائي الأندلسي): «(ديوانه)»، طبعته بولاق بالقاهرة، سنة ١٢٧١ هـ ونشرته دار المتن ببغداد.
- ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم): «الشعر والشعراء»، حققه وشرحه الأستاذ أحمد محمد شاكر، وطبعه دار المعارف بمصر.
- ابن منظور (أبو الفضل محمد بن مكرم المصري): «لسان العرب»، طبعته دار المعارف بالقاهرة.

- أبو تمام (حبيب بن أوس الطائي): «ديوان الحماسة»، طبعته السعادة الطبعة الثانية سنة ١٣٣١هـ = ١٩١٣م، ونشرته المكتبة الأزهرية بالقاهرة.
- أدونيس (علي أحمد سعيد): «زمن الشعر»، الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٣م، نشرته دار العودة بيروت.
- إسماعيل (الدكتور عز الدين): «الشعر العربي المعاصر»، طبعة دار الكاتب بالقاهرة سنة ١٩٦٦م.
- الأصفهاني (أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد القرشي): «الأخازى»، حققه وأشرف عليه الأستاذ إبراهيم الإباري، وطبعته دار الشعب بالقاهرة سنة ١٣٨٩هـ = ١٩٦٩م.
- الأهواي (الدكتور عبد العزيز): «ابن سناه الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر»، طبعة دار الشؤون الثقافية العامة ببغداد، الثانية ١٩٨٦م.
- أونج (والتر. ج): «الشفافية والكتابية»، ترجمة الدكتور حسن البنا عز الدين، ومراجعة الدكتور محمد عصفور، وطبعه مؤسسة دار السياسة بالكويت، العدد ١٨٢ من مسلسلة عالم المعرفة، لشعبان ١٤١٤هـ = فبراير ١٩٩٤م، نشرة المجلس الوطني الكويتي.
- البابري (كمال الدين محمد بن محمد بن محمود بن أحد): «شرح التلخيص»، درسه وحققه الدكتور محمد مصطفى رمضان صوفية، وطبع سنة ١٣٩٢هـ و.ر = ١٩٨٣م، ونشرته المنشآة العامة للنشر والتوزيع والإعلان بطرابلس ليبيا.
- البرقوقي (عبد الرحمن): «شرح التلخيص»، طبعة دار الفكر العربي بالقاهرة، المصورة عن الطبعة الثانية سنة ١٣٥٠هـ = ١٩٣٢م.
- بزيع (شوقي): حوار بكتاب الأستاذ جهاد فاضل «أسئلة الشعر» الذي نشرته الدار العربية بلبيه.
- البغدادي (عبد القادر بن عمر): «خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب»، حققه وشرحه الأستاذ عبد السلام هارون، وطبعه المدى الطبعة الثانية سنة ١٩٨١م، ونشره الخانجي بالقاهرة.
- بشر (الدكتور كمال محمد): «العربية بين الوهم وسوء الفهم»، طبعة سنة ١٩٩٩م، ونشرة دار غريب بالقاهرة.
- ثعلب (أبو العباس أحمد بن يحيى): «قواعد الشعر»، حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور رمضان عبد التواب، ونشره الخانجي بالقاهرة سنة ١٩٩٥م.
- الجابري (الدكتور محمد عابد): «نقد العقل العربي (١) تكوين العقل العربي»، الطبعة السابعة في أكتوبر ١٩٩٨م، نشرة مركز دراسات الوحدة العربية بيروت.
- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): «البيان والتبين»، حققه الأستاذ عبد السلام هارون، وطبعه المدى الطبعة الخامسة سنة ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

- الجرجاني (أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد النحوي): «دلائل الإعجاز»، قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر، وطبعه المدى، ونشره الخانجي بالقاهرة.
- (أسرار البلاغة)، قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر، وطبعه المدى الطبعة الأولى سنة ١٤١٢هـ = ١٩٩١م، ونشرته دار المدى بجدة. (والدلائل هو المقصود ذاتها، فإن عرّض الأسرار نبهت عليه في المتن).
- حجازي (أحمد عبد المعطي حجازي): «رسالة إلى أهل دنقلاً»، مقال بسفر أهل دنقلا الذي حررته عبلة الروني، وطبعته الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٩م.
- حرب (طلال): «ديوان مهلهل بن ربيعة»، طبعة الدار العالمية بيروت سنة ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م.
- الحسيني (راشد بن حمد بن هاشل): «اللوح الخروصي سالم بن غسان، حياته وشعره: دراسة موضوعية وفنية»، طبعة النهضة بسلطنة عمان، الأولى سنة ١٤١٧هـ = ١٩٩٦م.
- الحلبي (صفي الدين): «العاطل الحالي والمرخص الفنالي»، حققه الدكتور حسين نصار، وطبعته الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- الخمازوي (الدكتور محمد رشاد): «العربة والخدابة أو الفصاحة فصاحت»، نشرة المهد القرمي لعلوم التربية بتونس ١٩٨٢م.
- الخراط (إدوار): «آنا والطابو: مقاطع من (سيرة ذاتية للكتابة) عن السلطة والحرية»، مقال بالعدد ٣ من المجلد ١١ لخريف ١٩٩٢ من مجلة فصول، الصادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- الخطاجي (الدكتور محمد علي رزق): «ظاهرة الابتدال في اللغة والنقد»، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧هـ = ١٩٨٦م، نشرة الدار الفنية بالقاهرة.
- خليل (الدكتور حلمي): «العربة والغموض»، طبعة دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية، الأولى سنة ١٩٨٨م.
- درويش (عمود): حوار بكتاب الأستاذ جهاد فاضل «أسئلة الشعر» السابق الذكر.
- الرضي (محمد بن الحسن الاسترابادي النحوي): «شرح شافية ابن الحاجب»، تحقيق الأستانة محمد نور الحسن ومحمد الزفراقي ومحمد محيي الدين عبد الحميد، وطبعه ١٣٩٥هـ = ١٩٧٥م، ونشرة دار الفكر العربي بالقاهرة.
- الشايب (أحمد): «الأسلوب: دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية»، الطبعة الثامنة سنة ١٩٨٨م، نشرة مكتبة النهضة المصرية.

- شيلر (برند): «علم اللغة والدراسات الأدبية: دراسة الأسلوب، البلاغة، علم اللغة النصي»، ترجمة وقدم له وعلق عليه الدكتور محمود جاد الرب، وطبع الأولى سنة ١٩٩١ م، ونشرته الدار الفنية للنشر والتوزيع بالقاهرة.
- صقر (الدكتور محمد جمال): «علاقة عروض الشعر ببنائه النحوي»، طبعة المدى بالقاهرة، الأولى سنة ١٤٢١ هـ = ٢٠٠٠ م.
- صمود (حادي): «التفكير البلاغي عند العرب، أساسه وتطوره إلى القرن السادس: مشروع قراءة»، طبعة المطبعة الرسمية بتونس سنة ١٩٨١ م، ونشرة الجامعة التونسية.
- ضيف (الدكتور شوقي): «البلاغة: تطور وتاريخ»، طبعة دار المعارف بالقاهرة، السادسة.
- الطرابلسي (الدكتور محمد الحادي): «خصائص الأسلوب في الشوقيات»، طبعة سنة ١٩٨١ م، ونشرة الجامعة التونسية.
- الطنائي (الدكتور محمود محمد): «ديوان المعانى لأبي هلال العسكرى وشىء من التحليل والعروض والنهرة»، بحث بالجزء الأول من المجلد السادس والستين من مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، طبعة الصباح سنة ١٤١٠ هـ = ١٩٩٠ م.
- طوقان (قدوى): «رحلة جبلية رحلة صعبة: سيرة ذاتية»، الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٨ م، نشرة دار الشروق بعمانالأردن.
- العبد (الدكتور محمد): «اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة: بحث في النظرية»، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٠ م، نشرة دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع بالقاهرة.
- عبد الله (الحساني حسن): «عفت سكون النار»، الطبعة الأولى بالقاهرة، سنة ١٩٧٢ م.
- عبد اللطيف (الدكتور محمد حاسة): «النحو والدلالة: مدخل إلى دراسة المعنى النحوي الدلالي»، طبعة المدينة الأولى، سنة ١٩٨٣ م.
- عبد المطلب (الدكتور محمد): «البلاغة والأسلوبية»، طبعة دار نوبار بالقاهرة سنة ١٩٩٤ م، ونشرة مكتبة لبنان بيروت والشركة المصرية العالمية (لونجيان).
- العربي (سالم بن سعيد بن خيس): «حاء الفشل»، قصيدة فائزة بمرتبة التشجيع الأولى، منشورة بكتاب مهرجان الشعر العياني الثاني، طبعة العالمية بسلطنة عمان، الأولى سنة ١٤٢١ هـ = ٢٠٠١ م.
- العسكري (أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل): «كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر»، تحقيق الأستاذين علي محمد البخاري ومحمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار الفكر العربي بالقاهرة، الثانية.
- علي (الدكتور نبيل): حوار ببرنامج «بلا حدود» بقناة الجزيرة القطرية الفضائية حلقة ٤ / ١٤٢٢ / ١ / ٢٩ / ٣ م، ص ١٢.

- عياد (الدكتور شكري محمد): «اللغة والإبداع: مبادئ علم الأسلوب العربي»، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٨م، نشرة إنترناشونال برس.
- فارمر (هنري جورج): «تاريخ الموسيقى العربية حتى القرن الثالث عشر الميلادي»، عربه وعلق حواشيه ونظم ملحنقه جرجيس فتح الله المحامي، ونشرته دار مكتبة الحياة بيروت.
- الفريجات (الدكتور عادل): «الشعراء الجاهليون الأوائل»، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٤م، نشرة دار المشرق بيروت، وتوزيع المكتبة الشرقية بيروت.
- فنديس (جوزيف): «اللغة»، ترجمة الأستاذين عبد الحميد الدوادلي ومحمد القصاص، طبعة سنة ١٩٥٠م، ونشرة مكتبة الأنجلو المصرية.
- القالي (أبو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي): «الأمالى»، طبعة ١٤٠٧ هـ = ١٩٨٧ م، الثانية، نشرة دار الجليل ودار الآفاق الجديدة، بيروت.
- القاضي المعزى (عبد الجبار): «المغني في أبواب التوحيد والعدل»، نشرة وزارة الثقافة والإرشاد القومي بمصر.
- قباني (نزار توفيق): «الشعر قنديل أخضر»، الطبعة السادسة عشرة، ليناير ٢٠٠٠م، منشورات نزار قباني بيروت.
- قصاب (الدكتور وليد): «قضية عمrod الشعر في النقد العربي القديم: ظهورها وتطورها»، الطبعة الثانية سنة ١٩٨٥م، نشرة المكتبة الخديوية بين الإمارات العربية المتحدة.
- القرطاجي (أبو الحسن حازم): «منهاج البلاغة وسراج الأدباء»، قدم له وحققه الأستاذ محمد الحبيب بن الخوجة، وطبعه دار الكتب الشرقية بتونس سنة ١٩٦٦م.
- القوال (أنطوان محسن): «ديوان المهلل»، طبعة دار الجليل بيروت، الأولى سنة ١٤١٥ هـ = ١٩٩٥م.
- مای (روللو): «شجاعة الإبداع»، ترجمه الدكتور فؤاد كامل، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٢م، نشرة دار سعاد الصباح بالقاهرة.
- محمد (السيد إبراهيم): «الضرورة الشعرية: دراسة أسلوبية»، طبعة دار الأندرس بيروت.
- محمد (الدكتور محمد سيد): «الإعلام واللغة»، طبعة ١٩٨٤م، نشرة عالم الكتب بالقاهرة.
- المريزيان (أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى): «الموضح: مأخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر»، حققه الأستاذ علي محمد البحاري، وطبعه دار الفكر العربي بالقاهرة.
- المزوقي (أبو علي أحمد بن محمد بن الحسين): «شرح ديوان الحماسة»، حققه الأستاذان أحد أمين وعبد السلام هارون، وطبعه دار الجليل بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤١١ هـ = ١٩٩١م.

- مصلوح (الدكتور سعد): «العربية من نحو (الجملة) إلى نحو (النص)»، بحث بالكتاب التذكاري «عبد السلام هارون: معلماً ومؤلفاً ومحفظاً»، الذي أعده الدكتوران وديعة ط النجم وعبد بدوي، نشرة سنة ١٤١٠ هـ = ١٩٩٠ م.
- الملائكة (نازك): «قضايا الشعر المعاصر»، الطبعة السابعة سنة ١٩٨٣ م، نشرة دار العلم للملائكة بيروت.
- ناصف (الدكتور مصطفى): «اللغة بين البلاغة والأسلوبيات»، نشرة النادي الأدبي الثقافي بجدة بليادي الأخيرة سنة ١٤٠٩ هـ = يناير ١٩٨٩ م، (كتاب رقم ٥٣).
- الوعر (الدكتور مازن): «دراسات لسانية تطبيقية»، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٩ م، نشرة دار طلاس بدمشق.
- ويليك (ريتيل)، ووارين (أوستن): «نظرية الأدب»، ترجمة عزي الدين صبحي، ومراجعة الدكتور حسام الدين الخطيب، الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٥ م، نشرة المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت.
- يوسف (الدكتور جمعة سيد): «سيكلولوجيا اللغة والمرض العقلي»، نشرة المجلس الوطني الكويتي ليناير ١٩٩٠ م (كتاب عالم المعرفة رقم ١٤٥).

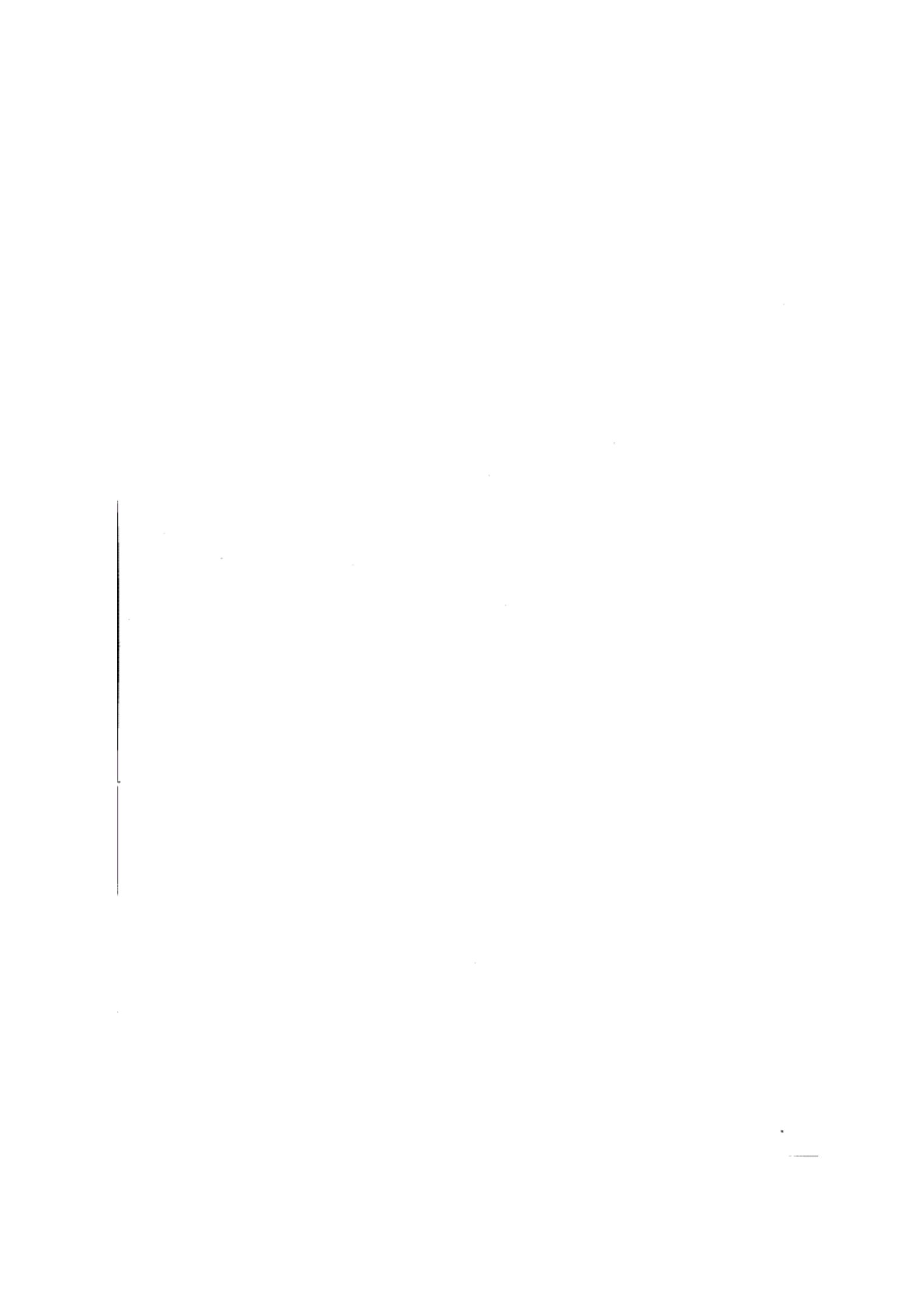
---

---

---

## الفَصْلُ الثالِثُ

بَيْنَ الْأَعْشَى وَجَرِيرٍ  
مُوازَنَةٌ نَصِيَّةٌ نَحْوَيَةٌ



## مُقدمة

### شُرُحُ الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ

[١] تبدو لي كتب شرح الكلام العربي أفعى للنحو<sup>١</sup> من كتب مسائله؛ فربما لم يتھج بكتاب مثلكما ينتھج بكتاب لغوي في شرح نص من الكلام العربي المبين قرآنه وشعره ونشره، ولم يتقطع لكتاب مثلكما ينقطع له، ولم يستوعب من مسائل علم النحو نفسها مثلكما يستوعب ما يريد في خالله.

ثم تبدو لي كتب المجالس وأشباهها من كتب الأمالي، من مثل: « المجالس ثعلب»، و«(أمالی ابن الشجري)»، وغيرها التي أنتجتها مجالس أصحابها لطلاب العلم ينظرون لهم كلما لقوهم، في نصوص قصيرة خاصة أو مشكلة، محضرة أو مفترحة، ولا يتركونها حتى يشرحوا خصوصيتها أو يزيلوا إشكالها، مستطردين إلى ما لا يقع بكتاب مسائل علم النحو من الأشباء والنظائر والأضداد والأمثلة والشواهد. - أخظى بأول إقبال ذلك النحو<sup>٢</sup>، وأذعن إلى تأمله، وأزوج لقلبه؛ فربما لا يكاد يمل تأمل نعط من المسائل حتى ينشط لتأمل غيره.

ثم تبدو لي كتب شرح الأمثال العربية القديمة، من مثل: «الأمثال» للقاسم ابن سلام، و«جمع الأمثال» للميداني، وغيرها التي كانت على طريقة موادها نصوصاً من الكلام العربي المبين قصيرة خاصة أو مشكلة - أغلق لدى ذلك النحو<sup>٣</sup> بكتاب الأمالي؛ فربما يبحث في تراكيبيها المطردة والشاذة عن مسائلها النحوية، ووقف في الكتاب الواحد من الأمثال على أنماط مختلفة، ونظر فيها بينها من جوامع وفوارق؛ فاطلع على طرف من موازنة أنماط الكلام المترادفة.

ثم تبدو لي كتب شرح النصوص الطويلة (القصائد)، من مثل: «شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات» للأباري، و«الغيث المسجم» للصفدي، وغيرها التي نازعت فيها عقول الشرائح عقول أصحابها سياسة الكلام العربي - أغلق لدى ذلك النحو<sup>٤</sup> بكتاب شرح النصوص القصيرة (الأمثال)؛ فربما عكف منها على مسائل التراكيب الفنية الطريفة والتحريرات العلمية اللطيفة، حتى انتهى إلى فروق ما بين النصوص المترادفة والمتعاقة بعضها وبعض من جهة، وفروق ما بين الشروح المترادفة والمتعاقة بعضها وبعض من جهة أخرى، ووقف على أنماطها المختلفة؛ فاطلع على طرف آخر من موازنة أنماط الكلام المترادفة والمتعاقة.

## مقالة أبي عمرو بن العلاء

[٢] وربما انتبه ذلك التّحويُّ من مقالات العلماء في شعر الطبقة الأولى من فحول الجاهليين (أمرى القيس، والنابغة، وزهير، والأعشى)، إلى مقالة أبي عمرو بن العلاء هذه التفيسة:

(«نظيرهُ (الأعشى) في الإسلام جزير، ونظير النابغة الأخطل، ونظير زهير الفرزدق»<sup>٣٠</sup>)  
- كما انتبهتُ، وأحسنَ لها قيمة ليست لسائر مقالات العلماء كما أحسستُ.  
ولكتني على رغم عجزي أولاً عن فهم تشيه الأخطلل بالنابغة إلا في النصرانية  
وعجبي آخرًا من تشيه الفرزدق المتعهّر بزهير المتعفّف، لم أترك لخواطري التي بينها وبين  
خواطر أبي عمرو مثل ما بين الخبر والمعاينة، أن تصرفني عنها في مقالته على تقدم زمانها من  
الأفكار الجليلة التالية:

١ مُنْتَضِي علم العالم بالشعر لا يغفل عن الحاضر اشتغالًا بالماضي؛ فأبُو عمرو  
الشهور انصرافه عن حاضر الشعر العربي إلى ماضيه واشتغاله به زمانًا طويلاً حتى حفظ  
منه ما لم يحفظ أحد، قد دل على أنه لم يكن أقل اشتغالًا بحاضره منه بحاضره؛ فمقالته لا  
تكون إلا عن انقطاع لها جيئًا.

٢ الشعر العربي بحر واحد متدقن عجيب، لا ينخلع حاضره من ماضيه؛ فأبُو عمرو  
قد وازن بأولئك الشعراء الجاهليين هؤلاء الإسلاميين على ما بينهم من فيافي الزمان  
والمكان الترامية المذهبة.

٣ توازعُ الشعراء طبيعة خالدة، لا يستحيل أن يشابه فيها حاضر ماضيا؛ فأبُو  
عمرو قد وجد لكل شاعر من شعراء الطبقة الأولى من الجاهليين إلا أمرًا القيس، من  
يشابهه ويجري معه، ووقع بالشاعر على الشاعر كما يقع الحافر على الحافر.

٤ أفذادُ الشعراء لا يُشاپهون؛ فأبُو عمرو قد أخرج أمرًا القيس من المشابهة على  
رغم أنه أخو طبقة الثلاثة المذكورين الأولى، وكأنه لا ينسلك فيما ينسلك فيه غيره من  
الشعراء منها تكون أحواتهم وأزمنتهم وأمكنتهم!

## موازنة الكلام بالكلام

[٣] لقد رأيت مقالته علامة بارزة على منهج موازنة النصوص المتزامنة أو المتعاقبة أو  
المتزامنة المتعاقبة معًا، ودعوة خالدة إلى بحث نحووي راسخ شامخ، لا يتناهى في آية  
الجهتين إلى غاية، بل يتراحب كلما سار فيه التحويون، نافياً عنهم خوفهم من تقاد مسائل  
البحث وتكرارها الذي يورقهم، وافقًا غيرهم على جلال ما يعملون لهذه الثقافة العربية  
الإسلامية المشرفة المضيّعة.

كيف أنشأ الثلاثة الشعراء الجاهليون (الأشعى والنابغة وزهير) والثلاثة الشعراء الإسلاميون (جرير والفرزدق والأخطل) نصوصهم؟ وما الذي اجتمعوا فيه، وما الذي افترقا، بحيث أشبه بعضهم بعضاً ويقروا مع ذلك شعراء كباراً لا يغنى بعضهم طلاب الشعر عن بعض؟

ذلك سؤال كبير في موازنة النصوص المترادفة، وهذا سؤال كبير في موازنة النصوص المتعاقبة، ولا ريب لدى في أن جوابها الكامل صعب محتاج إلى انتهاء مناهج واستفتاء نظريات من علوم كثيرة لغوية كعلم النحو وغير لغوية كعلم النفس، ربما تيسر يوماً ما حين يستقل ثم يستحصد في العربية «علم النص» نظراً وعملاً جيئاً مما، ولا سيما أن تنظر في مثل ذلك الجواب الواحد تلك العلوم الكثيرة، وألا يتضرر بعضها بعضاً أن ينظر له فيشاركه في النظر؛ فللحديث في كل علم تقاليد وأعراف تشبه الخصائص يكاد الباحثون لا يتتجاوزونها.

### شُعَرًا مَقَالَةُ أَبِي عَمْرٍو

[٤] ومن ثم فتشتت عن دواوين الشعراء الستة، ثم قرنت بعضها ببعض على ما رأى أبو عمرو، ورتبتها - حتى أوازن بعضها ببعض - قريتين قريتين، على النحو التالي:

- ١ الأشعى = جرير.
- ٢ النابغة = الأخطل.
- ٣ زهير = الفرزدق.

عسى أن يُعقب هذا النمط الواحد من الموازنة جواب السؤالين السابقين جيئاً مما، فليس في قرن الثلاثة الجاهليين وموازنته بعضهم ببعض ثم في قرن الثلاثة الإسلاميين وموازنته بعضهم ببعض، غير التطويل على نفسى وعلى القارئ بما لا تظهر لي الآن فيه جدوى كبيرة.

### شِعْرُ الْأَشْعَى وَجَرِيرٌ

[٥] وجدت للأشعى اثنين وثمانين (٨٢) قصيدة وقطعة ونثقة وبيتياً، وبلغ جرير أربعين وسبعين عشرة (٤١٧) من مثل ذلك - فشعر جرير أكثر من شعر الأشعى، بما كان جرير أكثر انصرافاً إلى الشعر وانقطاعاً له، والأشعى أكثر ابتلاء بتضييع شعره ونسائه - قد تقاسمتها البحور على النحو التالي بالنسبة المقررة:

الأشعى	البحر	الطوريل	بسط	الواز	كامل	رجز	رمل	منرح	سرير	خفيف	متقارب
١٢	٣٤	١١	١٠	١٥	٦	٢	٢	٢	١	٦	٦

٢	٤	٦	٨	٩	١٠	١١	١٣	١٥	١٧	١٩	٢١	٢٣	٢٤
---	---	---	---	---	----	----	----	----	----	----	----	----	----

فأغراني ذلك بتصديق مقالة الناخبين للاعشى بأنه أكثر الأربعة الجاهلين عروضاً؛ فقد غنى وهو الجاهلي ببحرين (الرمل، والخفيف)، صَمَّ عنها جريبر وهو الإسلامي، على رغم ما افتتنت به بعض الحواضر في زمان جريبر من الغناء الحافز الطبيعي إلى تصريف أوزان الشعر<sup>٣٣</sup>، ولكن يبدو أن ميل الاعشى إلى الغناء المتلقي به «صنانة العرب»<sup>٣٤</sup>، والمتلهي به عن الحبيبة المعرضة<sup>٣٥</sup>، لم يكن جريبر المؤثر التداوي من الحبيبة بذكرها<sup>٣٦</sup>.

ولكن ذلك الجدول لا يبين منازل تلك البحور المشتركة بينها كما يبينها الجدول التالي:

المنازل	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨
<u>الاعشى</u>	طويل	كامل	متقارب	بسيط	وافر	رجز	سريع	منسح
<u>جريبر</u>	طويل	وافر	رجز	بسيط	متقارب	سريع	منسح	سريع

فعل حين اختلفت بينها منازل الطويل والبسيط والسرع والمنسح؛ فظهر طرف مما يمكنه أن يكون الجامع بينها - اختلفت بينها منازل الكامل والمتقارب والوافر والرجز؛ فظهر طرف مما يظل الفارق بينها، وتلك معطيات مهمة، ولا سيما إذا تأملتها في ضوء «جدول تطور أوزان الشعر العربي»، الذي صنعه بعض الباحثين مما وصل إليه هو وغيره<sup>٣٧</sup>، وحسبني أن أستفيد منه للجدول التالي:

المنازل	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١
<u>الجاهلية</u>	بسيط	وافر	رجز	متقارب	سرع	رجز	خفيف	منسح	منسح	منسح	مدید
<u>الاعشى</u>	بسيط	وافر	رجز	متقارب	سرع	رجز	خفيف	منسح	منسح	منسح	
<u>المجري</u> ١	بسيط	وافر	رجز	متقارب	منسح	رجز	خفيف	منسح	منسح	منسح	مدید
<u>جريبر</u>	بسيط	وافر	رجز	متقارب	سرع	رجز	خفيف	منسح	منسح	منسح	

فقد اختلفت بعض المنازل بين شعرى شاعرنا خاصة وشعرى عصرها عاممة، فتبينت كلا منها إلى عصره، كما يلي:

١ متزلة الطويل أولاً في الجاهلية وشعر الاعشى والقرن الهجري الأول وشعر جريبر جيئماً.

٢ متزلة المنسح عاشرًا في الجاهلية وشعر الاعشى جيئماً.

- ٣ متزلة البسيط رابعاً في القرن المجري الأول وشعر جرير جيئاً.
- ٤ متزلة المسرح ثامناً في القرن المجري الأول وشعر جرير جيئاً.
- واختلفت بعض المنازل؛ فكفلت لكل منها خصوصيته الثانية أبداً على التعميم، كما يلي:
- ١ متزلة المديد في الشعر الجاهلي مفتقدة في شعر الاعشى، ومتزلتا الرمل والمديد في شعر القرن المجري الأول مفتقدة في شعر جرير.
  - ٢ منازل الكامل والمتقارب والبسيط والوافر والرجز والخفيف والرمل والسريع في شعر الاعشى خاصة، غيرها في شعر الجاهلية عامة.
  - ٣ منازل الوافر والكامل والرجز والمتقارب والسريع في شعر جرير خاصة، غيرها في شعر القرن المجري الأول عامة.

### مادة الموازنة

«[٦] ولقد كان لكل من ذلك أثره في إجراء الموازنة بين شعر الاعشى وجرير؛ فقد مضيت في شعر الاعشى الأقل، أتisks بكل قصيدة أجدها من شعر جرير الأكثر، ما يلامها عروضاً وطولاً ومعنى؛ فلم أثر من شعر الاعشى إلا على أربع قصائد فقط تلائم أريطاً من شعر جرير. ثم مضيت أندوقي الكلام وأنظر فيها وراءه، حتى أشفقت من استطالة البحث؛ فاصطفت من تلك القصائد الشهانى هاتين القصيدتين وكلتاها مستحسنة مصطفاة»:

الأول لاميّة الاعشى، وقد فصلتها بها استوعبتها على النحو التالي:

#### [١: فضل الين]

وَدَعْ هُنَيْرَةَ إِنَّ الرَّئِبَ مُرْجُلُ  
وَهَلْ ثَبِيْقُ وَدَاعَا أَيْهَا الرَّجُلُ

#### [٢: فضل الاستحسان]

كَثَيِ الْمُرَوْنِيَ كَمَا يَسْتَهِي الرَّجْحِي الرَّوْجُلُ  
عَرَّةَ قَرْعَاءَ مَضْقُولَ عَوَارِفُهَا  
كَأَنَّ مَشِيَّهَا مِنْ بَيْتِ جَازِيَا  
كَمَا اسْتَهَانَ بِرِبِيعٍ عَشْرِقُ زَيْلُ  
وَلَا تَهَامِلِيْرَ الْجَيْرَانَ طَلَّتَهَا  
إِذَا تَسْوُمَ إِلَى جَارِيَا الْكَتْلُ

وَاهْتَرْ مِنْهَا دَنْبُ الْمَسْنَ وَالْكَفْلُ  
إِذَا أَتَى بِكَادَ الْحَضْرُ يَنْخَرِزُ

٧—إِذَا ثَمَالِجُ قَرِنَ سَاعَةً لَمَرَثَ  
٨—صَفَرُ الْوِشَاحِ وَمَلَهُ الدُّنْعَ يَنْخَنِثُ

جَهَلَأِيْمَ خَلَدِ بَخْلَ مَنْ تَمَلَّ  
رَنْبُ الْمَسْنَ وَدَفَرُ مَفْنَدُ خَلَلُ

[٣: فَضْلُ الْأَغْرِاضِ]  
٩—حَدَّثَ هُرْزِرَةً عَنْ سَانْكَلْتَهَا  
١٠—أَنْ رَأَتْ رَجُلًا أَغْشَى أَفْرِيْسِ

لِلْلَّهُ الْمَرْزَهُ لَاجَافَ وَلَا تَقْرُلُ  
كَانَ أَنْخَصَهَا بِالثَّرْزِكَ مَتَّكِلُ  
وَالرَّبِيْقُ الْوَرَزَهُ مِنْ أَزْدَانَهَا شَمِيلُ  
خَضْرَهَ جَاهَ عَلَيْهَا مَنْدِلُ مَطْلُ  
مُؤَرَّهَ يَعْمَبِ الْبَيْتَ مَكْتَبُلُ  
وَلَا يَخْتَنَ مِنْهَا إِذَا الْأَمْلُ

[٤: فَضْلُ الْإِسْتِلَادِ]  
١١—نَقْمَ الْفَسْجِيْعُ غَدَاهُ الْدَّجْنَ يَضْرَعُ  
١٢—هِرْكَوَلَهُ قَنْقَنُ دَرْمَ مَرَاقِهَا  
١٣—إِذَا قَرَومُ يَضْرَعُ الْمَنْكُ أَضْوَرَهُ  
١٤—مَا زَوْضَهُ مِنْ يِيَاضِي الْحَزَنَ مَنْشِيَهُ  
١٥—يَسَاجِكُ الشَّنْسَ وَمِنْهَا كَوْكَبُ شَرِقِيُّ  
١٦—يَزْمَنَا يَأْمَيْبَ وَمِنْهَا نَثَرَ رَاهِخَهُ

غَيْرِي وَعَلْقَ أَخْرَى غَيْرِهَا الرَّجُلُ  
مِنْ أَهْلِهَا مَيْتُ يَهْذِي بِهَا وَهُلُ  
فَاجْتَمَعَ الْحَبُّ بُجَائِلُهُ تِيلُ  
نَسَاء وَدَانَ وَعَبْرَوْلَ وَعَتِيلُ  
قَنِيلَ عَلَيْكَ رَوْنِي وَنَكَ يَا رَجُلُ

[٥: فَضْلُ الْحَنِيْيَهُ]  
١٧—عَلْقَهَا عَرَضَا وَعَلْقَتَ رَجُلًا  
١٨—وَعَلْقَهَ قَهَاهَا مَا يَجْاوهُهَا  
١٩—وَعَلْقَشِي أَغْيَرِي مَا تَلَاهِي  
٢٠—قَكْلَهَا مَفَرَّهُ يَهْذِي بِصَاجِي  
٢١—قَالَتْ هُرْزِرَةً لَمَاجِثُ زَاهِهَا

كَائِنَ الْبَيْزَهُ فِي حَافَاتِهِ وَالْشَّعْلُ  
مَنْطَقَ بِرْجَالِ الْمَاء مَتَّكِلُ

[٦: فَضْلُ الطَّمَانِيَهُ]  
٢٢—بِاَسَنْ يَهْرِي عَارِضَا قَذِيْتُ أَزْبِيَهُ  
٢٣—لَهُ رَدَافُ وَجَزَرُ مَفَامَ عَوْلُ

وَلَا الْكَنَادِهَةُ مِنْ كَأْسِي وَلَا الْكَسَلُ  
شَبِيمُوا وَكَيْفَ يَشِيمُ الْقَارِبُ التَّوَلُ  
مَنْ قَطَعَهُ وَالْجَيَّهُ مِنْهُ عَارِضٌ هَطَلُ  
جَادَهُمَا فَالْمُسْجَدِيَّهُ فَالْأَبْلَاهُ فَالرَّجَلُ  
خَسِيَّ سَدَائِعَهُ وَشَهُ الرَّنْزُو فَاجْبَلُ  
رَزُونُ الْقَطَانِكِبِبُ الْغَيَّبَهُ السَّهِيلُ  
رَوزَانِهِمْ سَاقَتْ عَنْهَا الْقَرْوَهُ وَالرَّسَلُ

٢٤- لَمْ يُلْهِنِي اللَّهُوْعَنْهُ حِينَ أَزْقَبَهُ  
 ٢٥- قَتَلَتْ لِيلَثَرِبِ فِي دُرْنِي وَقَذَلِلَوا  
 ٢٦- بَرْقَايُضِيْ عَلَى الْأَجْزَاعِ  
 ٢٧- قَالَ وَإِنْ هَارْ قَبْطَنْ الْخَالِ  
 ٢٨- فَالْأَسْفَعُ يَهْرِي فَخْتِرِي فَبِرْقَةُ  
 ٢٩- حَتَّى تَحْمَلَ مِنْهُ الْمَاهِ تَكْلِفَةُ  
 ٣٠- يَسْقِي وَيَازِي مَا قَدْ أَفْبَحَتْ عَزْيَّا

[٧] فَضْلُ الرِّحْلَةِ

**لِلْجَنَّةِ بِاللَّذِيلِ فِي حَافَاتِهِ مَا زَجَّلُ  
إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فِي أَكْرَامِهِ مَهَلُ  
فِي يَمِنِ قَنْبِيبٍ إِذَا اشْتَرَ فَتَاهَ تَهَلُّ**

٣١ - وَبِلَلَةٍ مُثْلِّـ ظَهِيرَ الرِّئْسِ مُوجَّـةً  
 ٣٢ - لَا يَسْتَقِـ لَمَـا بِالْقَبْـ يَرْكَـبُـا  
 ٣٣ - جَـاـوـزـهـاـ بـطـلـيـعـ جـبـرـةـ شـرـحـ

[٨: فَضْلُ التَّلَهِ]

إِنَّا كُلَّكُمْ مَا تَخْفِي وَتَتَوَلَّ  
وَقَدْ يُحَاجِزُونَتِي ثُمَّ مَا يَكُلُّ  
وَقَدْ يُصَاحِبُنِي ذُو الْثَرَةِ الْغَرَزِيُّ  
شَأْوِيْ مَثَلُّ شَلَوْلُ شَلَشَلُ شَوَّلُ  
مَذْعُولُمَا أَنْ لَمْ يَسْتَمِعْ عَنْ ذِي الْخِيلَةِ  
وَقَهْرَةُ مُرَزَّةُ رَادُوقُهُ حَفَّوْلُ  
إِلَّا يَسْبَاتُ وَإِنْ عَلَوْا وَإِنْ هَلَوْا  
مَثَلُّمَ أَنْشَفَلَ التَّرَبَالِ مَعْتَوْلُ  
إِذَا تَرْجَمَحُ فِيْ الْقَيْتَةِ الْفَطَّالُ  
وَفِي الْتَّجَارِبِ طَلَوْلُ الْأَهْوَوْ وَالْغَرَزِيُّ

٣٤—إِمَّا تُرْكَنَا حَمْفَأَةً لَا يُعَالَلُ أَنَا

٣٥—قَدْ أَخَالِسُ رَبُّ الْيَتِيْتَ غَفَّافَهُ

٣٦—وَقَدْ أَفْرَوْدَ الصَّمَى يَوْمًا يَكْبَغُنِي

٣٧—وَقَدْ غَدَوْتُ إِلَى الْحَانُوتِ يَكْبَغُنِي

٣٨—فِي قَبْرَةِ كَعْبَ يَوْفَ الْمَنْدَدِ

٣٩—نَازَعْتُهُمْ قُطْبَ الرِّيحَانِ مُكْتَشِّا

٤٠—لَا يَنْتَهِيُّونَ مِنْهَا وَفِي رَاهِنَةِ

٤١—يَنْسِي بِهَا ذُورُ جَاجَاتِ لَهُ ظُلْفُ

٤٢—وَمُشَجِّبُ لَهَّالِ الصَّنْفِ يَنْسَمِّهُ

٤٣—مِنْ كُلِّ ذِلْكَ يَرْزُمْ قَذْكَرْثُ بِرُو

ف ١

(أبائيت) / أَتَنْقَثُ تَانِكُلُ /  
وَلَنَسَّ صَابِرَهَا مَا أَطْبَلَ الْأَيْلُ /  
عِنْدَ الْلَّقَاءِ / أَقْرَبَدِي / هُنْمَ تَنْقِزُلُ /  
وَشِيشِ بَتِ الْخَرْبَرُ  
فَلَمْ يَفْزِهَا وَأَذْهَى قَرَائِهُ الرَّوْلُ /  
وَالْعَيْسَ النُّصُرُ وَنَكْنُمْ عَوْضُ / ١٢ /  
عِنْدَ الْلَّقَاءِ / أَقْرَبَدِيمُ / ١٥ / وَتَنْقِزُلُ /  
ئَعْوَدُ مِنْ كَرْمَانَيْمَا وَتَنْهَلُ / ١٧ /  
وَالْجَاهِيرَةُ مِنْ يَنْسِى وَتَسْفِلُ / ١٨ /  
أَنْ سَوْفَ يَأْتِيكَ مِنْ أَبِيَا شَكْلُ / ٢١ /  
وَأَشَالَ رَبِيعَةَ عَنَّا كَبِيفَ تَنْتَوْلُ / ٢٢ /  
عِنْدَ الْلَّقَاءِ وَهُنْمَ حَارِدُوا وَهُنْمَ جَهِلُوا / ٢٤ /  
إِنَّا لِأَنْتَ الْكُمْ (بِإِنْ قَوْنَا) ٢٧ قُلُ  
يَنْدَعُ بِالزَّاحِ غَنَّهُ يَشَوَّهُ عَجَلُ  
أَوْ ذَلِيلُ مِنْ دِمَاجِ الْخَطُّ مُنْقِلُ  
وَقَذِيفِي طَيْطَ عَلَى أَزْمَاجِنَا الْبَطْلُ / ٢٦ /  
كَالْعُنْنُ يَلْهَبُ فِي الرَّبِيزُ وَالنَّشُلُ / ٢٩ /  
خَدِي وَسِيقَ إِلَيْهِ الْبَاقِرُ الْغَيْلُ  
لَفَتْلَنْ مَثَلَهُ مِنْكُمْ فَنَنِيلُ  
لَمْ تَلْفِنَا مِنْ دِمَاجِ الْقَزْمُ تَنْتَلُ / ٣٠ /  
جَبِينِي فُطَيْمَةَ لَامِيلُ وَلَا عُزْلُ / ٣٢ /

ف ٢

[٩: فَضْلُ الْوَاعِدِ (الرسالة)] ١٠  
٤٥— أَلِيلُغَ يَزْمَدَ بَنِي شَيْنَانَ مَالِكَةَ  
٤٦— أَلْشَتَ مُتَهَبَّا عَنْ تَخْتَ أَلْكَسَا  
٤٧— ثَفَرِي بِنَارَفَطَ مَنْعُودَةَ فِي خَرَبِي  
٤٨— لَأَغْرِقَتَكَ (إِنْ جَدَ الشَّرِيْبَنا / ٨)  
٤٩— كَنَاطِيْحَ صَخْرَةَ بَوْتَالِيْلَهَا  
٥٠— لَأَغْرِقَتَكَ (إِنْ جَدَ عَدَاؤُنَا / ١٢)  
٥١— ثَلِيزَمَ أَرْمَاحَ ذِي الجَدِينَ سَوْزَنَا  
٥٢— لَأَشْعَدَهُ وَقَذَ أَلْكَهَا حَطَبَا  
٥٣— قَذْكَانَ في أَفْلِيْلَهِيْفِ (إِنْ مُمْ)  
٥٤— سَائِلَ بَنِي أَسِيدَ عَنَا / ٢٠ (فَقَذَ عِلْمَوَا  
٥٥— وَاسْأَلَ قُشَيْرَا وَعَبَدَ اللَّهِ كَلْهُمُ / ٢٢ /  
٥٦— إِلَاسَأِلَهُمْ حَىْ لَقْتَهُمْ  
٥٧— كَلَارَعْنَتْمَ بِأَنَا لَأَنْتَلَكُمُ / ٢٥ /  
٥٨— حَتَّى يَنْكُلُ عَمِيدُ الْقَزْمُ مَنْكِتَا  
٥٩— أَصَابَهُ هَنْدُوَانِيْ فَأَقْصَدَهُ  
٦٠— قَذَ لَعْنِيْبُ الْقَيْرَ مِنْ مَنْكُونَ فَالِيلُو  
٦١— هَلْ تَتَهَوَّنَ / ٢٨ / وَلَا يَنْهَى ذَوِي شَطَطُ  
٦٢— إِنِّي لَعَنِرُ الْذِي حَطَتْ تَنَاسِمُهَا  
٦٣— (لَيْنَ قَلَنْمَ عَبَدَا لَمْ يَكُنْ صَدَادَا) ٣١  
٦٤— لَيْنَ مُبَيَّتِ بِنَا عَنْ غَبُّ مَعْرَكَةَ) ٣٢  
٦٥— تَخْنُ القَوْرَاسُ بَيْوَمَ الْعَيْنِ ضَاجِةَ

٦٦- قالوا الرُّكوب / ٤٣٤ قُتلنا بِلَكَ عَادُّا أَوْتِرْلُونَ فَإِنَّمَا تُنْهَرُ ثُرُّلُ/[٢٥].

والآخرى **نوئيَّة جَرِير**<sup>(٣)</sup>، وقد فصلتها بها استواعتها على النحو التالي:

وَقَطَّعُوا مِنْ جَبَالِ الْوَضْلِيِّ أَفْرَانًا  
إِلَى لَدَارِ دَازَا وَلَا الْجَمِيرَانِ جِيرَانًا  
مُرْؤَعًا مِنْ حَذَارِ الْبَيْنِ عِزْانًا  
بِسَالِكٍ وَأَخْرَى مَشْرُورٍ يَمْتَهِنَّا  
أَوْتَنْتَهِيَنَّ إِلَى ذِي الْقَرْزِشِ كَثْكَوانًا  
يَنْهُرُ إِلَى اللهِ إِنْرَازَا وَإِغْلَاكًا

- ١- بَانَ الْخَلِيلُ وَلَزَطَرْفَتْ مَا بَانَ
- ٢- حَيْثُ الْمَازِلِ إِذَا لَتَبَقَّى بَدْلًا
- ٣- قَدْحَكْتُ فِي أَنْتِ الْأَغْمَانَ ذَا طَرَبٍ
- ٤- يَارِبُّ مَكْتَبِ لَزَقْدَعْمَثُ كَلَةٌ
- ٥- لَزَعْلَمِيَّ الدِّي تَلْقَى أَوْنَتِ كَنَا
- ٦- كَصَاحِبِ الْمَرْجَ إِذَا مَالَتْ سَفَيَّةٌ

بِلْئَنْ كُمْبَتْ مُلَائِكَةَ  
عَلَيْهِمْ أَمْجَوْلَنْ حِيرَائَا  
أَكَّتْ الْأَمْرِيْنْ إِذَا مُنْتَأْنَ خَائِنَا  
مَهِيَّاهَ مِنْ مَلَيْ بِالْقَزْرِ مُهَدَّاً  
بِالْأَطْلَعِ طَلَحَا وَبِالْأَغْطَسَانِ أَعْطَلَا  
أَزْ سَائِيَّا لَفَّاهَا الْيَرْزَمْ سُلَوَانَا  
وَلَمْ يَكُنْ دَاخِلَ لَهُبَّ الَّذِي كَائِنَا  
بِأَكْلَتْ النَّاسَ يَرْزَمْ الدَّنَجَنْ أَرْدَانَا

٢٠- فَضْلُ الرَّسُولِ [١]

٧- يَا أَيُّهَا الرَّازِيُّ الْمَرْجِيُّ مَطَابِعُهُ

٨- بَلْغُ رَسَائِلَ عَنَّا خَفَّ مَخْلُومُهَا

٩- كَيْمًا تَقُولُ إِذَا بَلَغْتَ حَاجَتَكَ

١٠- نَهَى اللَّهُمَّ لِأَمْلِي التَّزُورَ مِنْ مَلَحِي

١١- أَخِبِّرْ بِإِلَيْكَ مِنْ دَارِ الْحِزْبِ مُنْزَلَةً

١٢- يَا أَيُّهَا ذَا الْقُلْبِ لاتِّي مَنْ يُمْلِئُهُ

١٣- أَوْلَيْهَا مِنْ تَمَكُّنِي عَلَاقَتَهَا

١٤- مَلَأْتُهُ بِحَنْتَ مَاقِدَّهُ مَمْلُوتَهَا

وَلَا إِخْرَاجٌ بَعْدَ الْيَمِينِ لِتُقَاتَلَ  
صَفَّا كُلُّمْ بَاهِراً إِذَا طَبَ عَجْلَانًا

١٥— قَالَتْ أُمُّهُ يَا إِنْ كُنْتَ مُنْطَلِقاً  
١٦— بَاطَّتْ هَأْ مِنْ مَيَامِ عَجَيْبِينَ بِهِ

- هاجَتْ لَهُ غَدَرَاتُ الْبَيْنِ أَخْزَائِ  
رُدَى عَلَيْ فُوَادِي كَلَّذِي كَلَّا  
بِأَنْلَعَ النَّاسِ كُلُّ النَّاسِ إِنَّا  
بِالْبَذَلِ بُخَلَّا وَبِالْإِحْسَانِ جِزْمَائِ  
غَذَرَ الْخَلِيلِ إِذَا مَا كَانَ الْوَائِ  
مَا كَنْتُ أَوْلَ مَوْثُوقِي بِهِ خَائِ  
لَا نَسْطِيعُ لِهَا الْخَبَبِ كَهَائِ  
وَكَادَ يَقْتُلُنِي يَوْمَ اِبْدَائِ  
لَوْكَنْتُ مِنْ رَفَرَاتِ الْبَيْنِ قُرْحَائِ  
إِلَّا عَلَ الْقَهْدِ حَتَّى كَانَ مَا كَانَ  
هَتْوَى أَمْرِيْكُمْ لَوْكَانَ يَهَوَائِ  
أَنْبَابُ دَيْكَالِو مِنْ أَنْبَابِ دَيْكَائِ  
يُضَيِّ الخَلِيمَ وَيُنَكِّي الْعَيْنَ أَخْيَائِ  
ئَشْفَى صَدِي مُسْتَهَامِ الْقَلْبِ صَدِيَائِ
- ١٧- مَا كَنْتُ أَوْلَ مَسْتَاقِي أَخْبِي طَرَبِ  
١٨- يَا أَمْ عَفْرِ وَجَرَالِ اللَّهُ مُغَفَّرَةِ  
١٩- أَنْتَ أَخْسَنَ مَنْ يَنْتَهِي عَلَى قَدَمِ  
٢٠- يَنْقَى عَرِيمُكُمْ مِنْ عَنْزِ عَرِيمَكُمْ  
٢١- لَا أَمَنَّ فِيَنِي عَيْرِ آرِيَهِ  
٢٢- قَدْ خَنْتُ مَنْ لَمْ يَكُنْ يَجْشِي خِيَانَكُمْ  
٢٣- لَقَدْ خَنْتُ الْخَوَى حَتَّى يَهَمَسِي  
٢٤- كَادَ الْخَوَى يَزُمَ شَلَاهَنِي يَقْتَلُنِي  
٢٥- وَكَادَ يَزُمُ لِسَوِ حَوَّاهَ يَقْتَلُنِي  
٢٦- لَا بَازَكَ اللَّهُ نِيَّنَ كَانَ يَمْجَدُكُمْ  
٢٧- مِنْ حُبْكُمْ قَاعِلَمِي لِلْحُبْ مُشَرَّلَةِ  
٢٨- لَا بَازَكَ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا إِذَا قَطَعْتَ  
٢٩- يَا أَمْ عُشَّانَ إِنَّ الْخَبَبَ عَنْ عَرَضِي  
٣٠- ضَئَّتْ يَسْرُورَقَوْ كَائِنَ لَنَارَعَا

#### [٤: فَضْلُ الْوَجْدِ]

- مَنْ سَاقِبَ وَلَا تَبَدَّلَ كَبِيدَائِ  
كَالْعِزْفِ عِزْفَأَوْلَ السَّلَانِ سُلَانِ  
لِلْجَبَلِ مُزْمَاءَوْلَالِعَهْدِيْنِيَائِ  
أَمْ طَالَ حَتَّى حَيَّنَتِ الْنَّجَمَ خَيْرَائِ  
عَرَّثَتْ عَلَيْهَا يَدِيْرِ اللَّجَ تَكُونَائِ  
قَلْشَائِمَ لَمْ يَجْبَيْنَ قَلَائِ  
وَهُنَّ أَضَعَفُ خَلْقِ اللَّهِ أَزَائِ  
لَاقِسِ مُبَاعَدَةِ مِنْكُمْ وَجِزْمَائِ
- ٣١- كَيْنَتِ الْثَّلَاثِي وَلَا فِي الْقَبِيطِ عَنْقَرَكُمْ  
٣٢- هَنْوَى تَرَى الْعِزْفِ إِذَا مَتَّلَقَ بَعْدَكُمْ  
٣٣- مَا أَخَدَتْ لِلْتَّهْرِيْمَا تَعْلَمَيْنَ لَكُمْ  
٣٤- أَبْدَلَ الْأَبَلُ لَا شَرِيْ كَوَافِيْهِ  
٣٥- يَا رُبُّ عَلِيَّةِ بِالْفَوْرِ لَوْشَهَدَتْ  
٣٦- إِنَّ الْمُبُونَ الَّذِي فِي طَرْفَهَا سَرَّشِ  
٣٧- بَصَرَ غَنَّ ذَا الْلَّبِ حَتَّى لَا صِرَاعَ بِهِ  
٣٨- يَا رُبُّ غَابِطِنَا لَوْكَانَ يَطْلَبُكُمْ

قَذْئِنْ دَكْ قَبْلَ الْيَزْمِ أَذْيَاكَ

فِي النُّزْمِ مِيَّةَ الْأَعْطَافِ بِنَدَائِنَ  
عَنْ ذِي مَسَانِيْجِ الْمَنَكِ وَالْبَائِنَ  
هِمُ الْفَسِيجِ فَلَادِيْبَا كَدْنِيَا  
فَلَا تَكُونُوا كَمَنْ قَذْ كَانَ الْوَائِنَ  
بِاَتِهَا مَدْكَثِ الْمَقْرُونِيَا  
دُونَ الْرِّيَارَةِ أَبْرَاهِيَا وَغَرَائِنَ  
ظَلَّتْ عَسِيرِيْرِ مَثْلُ الْمَرْبَتِ نَشَائِنَ

يَنْبَغِنْ مَغْنِيَا لِلْبَيْنِ طَنَقَنَا  
هَلْ سَائِرِي تَارِكِ لِلْعَنِيْنِ إِشَائَا  
تَخْلُّيْلَهُمْ أَوْ تَخْلُّلِ يَقْرَائَا  
لَرْقَنِتْ مُضْبَحَنَا مِنْ حَيْثُ تَمَائَا  
تَنْلُلِ الْخَرَابِيِّ جَرَائِيَّ فَجَرَائِيَا  
بَيْنَ السَّلَطَطِيِّ وَالْرَّوْحَانِ صَرَائِنَا

وَجَبَّدا سَاكِنِ الرِّيَانِ مِنْ كَائِنَا  
تَأْيِيكَ مِنْ قِيلِ الرِّيَانِ أَخْيَاكَ  
عِنْدَ الصَّفَافِ الَّتِي تَزْقِي خَورَائَا  
عَيْشِ بِا طَالَا اخْلَوَى وَمَا لَائَا  
نَكْنُنْ يَتَوَنَّتِي إِذْ كُنْتُ شَبَنَائَا

٣٩—أَرْنَتْ الْمَرْبَتِ حَتَّى لَا حَيَاءِ بِو

[٥: فَضْلُ الْمَحَيَّالِ]

- ٤٠—طَازَ الْفَوَادِ مَعَ الْخَوْذِ الَّتِي طَرَقَتْ  
٤١—مَثَلُوْجَةَ الْرِّيقِ بَعْدَ النُّزْمِ وَاسْعَةَ  
٤٢—أَسْتَافُ بِالْعَنَبِ الْمَنَدِيِّ قَاطِنَةَ  
٤٣—ظَنِي يَكُنْ حَسَنٌ مِنْ خَيْرَةِ يَكُنْ  
٤٤—بِشَأْرَاهَا كَائِنَا مَالَكَرَنَ لَمَا  
٤٥—قَالَتْ تَغَرِّرْ قَلَنْ الْقَوْمُ قَذْ جَعَلُوا  
٤٦—لَائِيَتْ أَنْ قَذْ حَيْلَ دَوَيْهُمْ

[٦: فَضْلُ الرُّخْلَةِ]

- ٤٧—مَاذَا لَقِيَتْ مِنَ الْأَطْمَانِ وَرَمَّ تَنَا  
٤٨—أَتَبْنَتْهُمْ مَفَلَّةً إِنْسَانِيَا غَرِيقَ  
٤٩—كَائِنَ أَخْدَاجِهِمْ تَحْدِي مَقْبَةَ  
٥٠—مِيَامِ عَنْهَانَ مَا تَلَقَى رَوَاجِنَا  
٥١—تَحْدِي بِنَانِجُبْ دَتَسِي تَنَاسِهَا  
٥٢—تَرْمِي بِأَغْنِيَهَا تَجْدِنَا وَقَذْ طَلَعَتْ

[٧: فَضْلُ الدَّكْنَرِيِّ]

- ٥٣—بِا بَحَبَّدا جَبْلُ الرِّيَانِ مِنْ جَبَلِ  
٥٤—وَجَبَّدا نَعْحَاتِ مِنْ تَيَانِيَةَ  
٥٥—هَبَّتْ شَهَا لَأَقْلَمِرِيِّ مَا ذَكَرْ يَكُنْ  
٥٦—قَلْ مَزِيْجَنَ وَلَيْسَ الدَّهَرُ مُرْكَمَا  
٥٧—أَزْمَانَ يَدْعُورَتِي الشَّبَنَانَ مِنْ غَرَبِ

٥٨—مَنْ ذَلِّي طَلَّ يَشْلِي أَنْ أَزُورُكُمْ

[٨: فَضْلُ الْوَعِيدِ]

مَنْ صَرَّأَهُ الْخُوَرُ الْعَادِي بِحَفَّائَا  
فَقَذَ حَدَّتُهُمْ مُشَى وَوُخْدَائَا  
وَآخَرِينَ تَسَوَّلُهُمُ الدَّارِي خَضْبَائَا  
خَسِ اشْتَفَيْتُ وَخَسِ دَانَ مَنْ دَائَا  
فَانْتَقَنَ أَجْبَهُ غَيْرِ وَنَسَنَا  
يَسَّاْكُمْ ثَمَّ يَتَّاْكُمْ وَيَلَّاْكَا

- ٥٩—مَا يَدْرِي شَرَاءُ النَّاسِ وَنَاهُمْ  
٦٠—جَهَلًا مَّثَرَا حُدَائِي مِنْ قَلَامِي  
٦١—غَادَرُهُمْ مِنْ حَسِيرٍ مَاتَ فِي قَرْنَيْ  
٦٢—مَا زَالَ حَبْلِي فِي أَغْنَاهُمْ مَرِسَا  
٦٣—مَنْ يَذْعُنِي مِنْهُمْ يَنْفِي مَحَارَنِي  
٦٤—مَا عَفَنَ نَابِي قَرْمَا أَوْأَقْوَلَ كَمْ

[٩: فَضْلُ اللَّهِ (الرِّسَالَةِ)]

فَاجْعَلْ لِأَمْكَ أَيْرَ الْقَسْ مِيزَائَا / ١  
لِلنَّاسِ طَلَّا وَلَا يَلْحَزِبْ إِذْهَائَا  
مِنْ يَخْدِيفَ وَاللَّدُرا مِنْ قَبِيسَ عَيْلَائَا / ٢  
سَانَكَتْ أَوْلَ عَبَدِي مُحَلِّبْ خَائَا / ٤  
يَشَلَ ابْجِيدَاعَ الْقَسَوَافِي قَنَرَهَائَا / ٥  
لَا يَنْتَقِفَنَ إِلَى السَّدَيْرِيْنَ عَنَائَا / ٧  
نَادِيَنَ مَا أَعْظَمَ الْقَيْنِيْنَ جَرَدَائَا / ٨  
وَتَسْخَكُمْ مُشَلِّيْهِمْ رَخَانَهَ قُرَبَائَا / ٩  
يَسَّاخُرُ أَوْ تَجْعَلُوا الشَّوَّمَ ضَمَرَائَا / ١٠

- ٦٥—قُلْ لِلْأَخْبِطِيلِ [لَمْ يَتَّلَعْ مُوازَانِي] /  
٦٦—إِنِّي أَفْرُؤُمْ أَرْدَ فَبِمَنْ أَنَا يُمْكِنْ  
٦٧—أَخْسِي جَمَائِي يَأْغِلُ الْجَدِيدَ مُتَرَكِّي  
٦٨—قَالَ الْحَلِيقَةُ وَالْجَنَزِيرُ مُنْهَزِمْ  
٦٩—لَاقِي الْأَخْبِطِيلُ يَالْجَلُولَانَ فَاقِرَةً  
٧٠—يَا حُزْرَ قَنْلِبَ / ماذا بَالَ يَشْوِيْتُكُمْ  
٧١—لَمَارَوْسَنَ عَلَى الْجَنَزِيرِ مِنْ سَكِيرَ  
٧٢—هَلْ كَرِمُنْ إِلَى الْقَيْنِيْنَ وَجَرَكُمْ  
٧٣—لَئِنْ شَدِرَكُوا الْمَجَدَ أَوْ شَرَوْ عَبَاءَكُمْ



## تَفْصِيلُ الْقَصِيدَةِ

[٧] إن للشاعر بالقصيدة حين يقوّلها لقصدًا إلى إرسال رسالة (مُغَلَّغَةً، مَأْكُورةً) ما، تدل عليها أدلة مختلفة، منها ما يلي:

- ١ طبيعة القصيدة الخاصة.
- ٢ سياق القصيدة الشعري.
- ٣ سياق القصيدة الاجتماعي.

أما دلالة طبيعة القصيدة الخاصة فأن تتفصلُ فُصوّلها وتتوصلُ ظاهراً وباطناً بحيث تؤدي رسالتها، وأما دلالة سياق القصيدة الشعري في ديوانها وغيره فأن يشتمل على أشباهها اللاتي يغرين بالاطمئنان إلى فهم تلك الرسالة، وأما دلالة سياق القصيدة الاجتماعي في إِرْسَالِهَا وتألقها فأن ينص بحال صاحبها وبفهم متلقيها على تلك الرسالة، حتى إن علماء المتكلمين إذا صنفوا القصيدة مع غيرها من شعر صاحبها أو غيره وضعوها تحت عنوان باسم تلك الرسالة.

وأولئك المتكلمون هنا قسمان: مُرْسَلٌ إِلَيْهِ مقصود هو نفسه بالرسالة، ورَسُولٌ حامل لها موكولٌ إِلَيْهِ كثير من أمرها، وكلامها تحتاج إلى أن يتأتى له الشاعر، وإلا مَلَ الرسالة الرسُولُ فلم يُعْنِ نَفْسَهُ أَنْ يَلْعَمُهَا، أو كَرِهَهَا المرسُولُ إِلَيْهِ فلم يقبل أن يَشْعَرُ بها.

ولقد كان من منهج الشاعر العربي في الجاهلية وصدر الإسلام وعصربني أمية، أن قسم قصيده على فصول: فصل لرسالته، وفصول لعطف الرسول والمرسل إليه على رسالته - وأن جرى على تأخير فصل الرسالة إلى آخر القصيدة - وإن فرغ منه أولاً - حتى يجد مندوحة ليتأتى إليها ويعطف المتكلمين عليها، وحتى تكون آخر ما يتكلّم فيبقى.

فمن ثم ينبغي أن يكون من منهجي أن أندم النظر في فصل الرسالة الذي بدأ به الشاعران وأآخر النظر في فصول الثنائي التي ختما بها على الحقيقة؛ عسى أن أتبين من مَسِيرَتِي تَفَكِيرَتِهَا ما يستخفني بطيات نَصِيهَا.

## فصلُ الرسالةِ

### رسالتا الشاعرَيْنِ

[٨] لقد قصد الأعشى إلى منع ((يزيد)) أحد رؤوس بنى شيبان، من إغمار صدور ((بنى سيار)) أحد بيوت قبيلته، على ((بنى كعب)) أحد بيوت قبيلة الأعشى، ليقتلوا أحد رؤوسهم برجل منهم مُهْمَلٌ قتلوه - وقد جرير إلى منع الأخطل شاعر بنى تغلب الأكبر من التطاول عليه.

وعلى رغم أن ليس هذا المّتع بعيد من ذلك - فكلامهما منع من الكلام، ولthen كان كلام يزيد ما يفهي إلى القتال، لقد أفسى كلام الأخطل من قبل إلى مقتلة لم يمل جرير تعيره بها، و((الكلام من الكلام))! - كانت شناعة الدم وسيلة جرير إلى منع خصيمه، وسياسة الوعيد وسيلة الأعشى إلى منع خصيمه، وليس أدلة على المتسلل من وسليته؛ فأما المتعدد فصعب، وأما النّام فنفسوب!

### مقدار الرسائلتينِ

[٩] وعلى حين شغلت رسالة الأعشى اثنين وعشرين بيتاً بنسبة ٣٣٪، من آخر قصيده التي عدتها ستة وستون بيتاً، وكان فصلها أطول الفصول؛ فدل ذلك على فضل عنایته برسالته وجلال شأنها عنده - لم تشغل رسالة جرير غير تسعة أبيات بنسبة ١٢٪، من آخر قصيده التي عدتها ثلاثة وسبعون بيتاً، ولم يكن فصلها أطول الفصول؛ فدل ذلك على فضل استهانته برسالته وهوأن شأنها عليه، دون إهال أثر اختلاف الوعيد والدم - منها اتفقا في المنع السابق - في ذلك؛ ففي الوعيد علاج، وفي الدم برأ

### إحاطة الرسائلتينِ

[١٠] ثم على حين اجتمع الشاعران في بناء أجزاء رسالتيهما على هاتين الجملتين الطلبيتين [«أَبْلَغْ يَزِيدَ بْنَيْ شَيْبَانَ مَالَكَةَ (...»)، و«قُلْ لِلْأَخْيَطِيلِ (...»)، الخارجتين بمستديهما [« فعل أمر الإبلاغ»، و«فعل أمر القول»]، خرج النصيحة إعداداً إلى المتلقين، وبالمسند إليه الواحد فيها (ضمير المخاطب غير المعين الحضور) خرج التأنيث على الصمت والصبر الموضوعين في غير موضوعها متى كان المتكلم هو المخاطب على جهة التجريدة، أو خرج التّشميع بين الناس الذين لا يتناقلون شيئاً كما يتناقلون رسائل بعضهم إلى بعض ولا سبباً إذا توافقوا بكتابتها، متى كان المخاطب غير المتكلم - أَلْطَافُ الْأَعْشَى

وطأة أجزاء رسالته على خصيمه بتقديم كلمة «**مَالِكَة**» قبلها بحيث كانت تفريعاً عنها وتبييناً لها ويدلاً منها، والملائكة هي الرسالة التي لا تكون عادة إلا بين الإخوان الحريصين على التواصل في البعد كالتواصل في القرب، تذكيرًا له بحقه عليه عسى أن يجيئه إلى ما يستحق - وأقذع **جرير** وطأة أجزاء رسالته على خصيمه ب مباشرتها بفعل القول، تتكللا به **وَتَغْيِيرًا** له عن وجوه الجواب!

**ذِكْرُ الْخَصِيمَيْنِ**

[١١] ومهمها يكن **مَتَّجَةً** ضمير المخاطب فقد عزف **الأعشى** عن مواجهة خصيمه بتحميل غيره الوعيد إليه، وألطف **ذِكْرَه** له باسمه مضافاً إلى قوله «(...)**يَزِيدَ بْنِ شَيْعَانَ**»، تذكيرًا له بحقهم عليه ألا يملكون إمكانية ما سُوّدوه عليهم، كما عَرَفَ اسمه المضاف بعد ما ذهبت عنه عَلَمِيَّةُ اسْمُهُمُ الْمُضَافُ إِلَيْهِ<sup>٣٣</sup>، حتى تحمل ما في عزوفه عن مواجهته من استبقاءه والحرص عليه. عزف **جرير** عن مواجهة خصيمه بتحميل غيره الذم إليه، وأقذع **ذِكْرَه** بلقبه مصغراً «(...)**لِلْأَخْيَطِلَ**»، الذي نسب به «السفه واضطراب شعره»<sup>٣٤</sup>، تغیرًا له وحطاً منه، حتى تحمل ما في عزوفه عن مواجهته من اطراحه والزهد فيه.

### اسْمُ رِسَالَةِ الأَعْشَى

[١٢] وعلى حين اجتمع الشاعران بإطاري التبليغ والتّحدِيث اللذين في جلتيهما الأولين، على أن تتضمنا ما بعدهما على نحو ما و تستوليا عليه كما يتضمن الإطار ما فيه ويستولي عليه؛ فتوثق بذلك علاقة أجزاء الرسالة بعضها بعض على أحسن ما يمكن مُرسِلُ حريص على كلمته إلى المتلقى - استفاد **الأعشى** من جواز انقطاع ما بعد «**مَالِكَة**» منها وحله على الاستئناف، ما يتبيّنه ذلك لكل جزء من أجزاء رسالته من خصوصية تبدو بها حالة وجهين من اللين والقسوة **مُلْتَسِيْنِ**! ومهما تكون شدة إطار الجملة الأولى المحبط بأجزاء الرسالة، فلا غنى عن كسره وفحصها، ولا سيما أنها تفتقر فيها بينما هي إلى مقدار من التجاذب الباطني والظاهري يقيّم صلبها، ولا يتركها لذلك الإطار أشتاتاً متناولة ضعيفة التأثير.

### تَقْسِيمُ أَجْزَاءِ الرِّسَالَتَيْنِ

[١٣] لقد جمع بين الشاعرين المتع الذي أتاه؛ فإنه لما اقتضى (الوعيد = الذم) (متوعداً = ذاماً) و (متوعداً = مذوماً) و (شهوداً) تحمل من كُلِّ منها أو إليه وتحكم له أو عليه وإن تناقض أفعالها وضاعت بينها رسالة الوعيد أو الذم، قسم الشاعران أجزاء

رساليتها على ثلاثة الأقسام المنطقية السابقة؛ فجعل الأعشى أجزاء رسالتهخمس والثلاثين جملة<sup>٣٠</sup>: عشر جمل منها لنفسه هو منضيًّا إليه أحيانًا قوله (٪٢٩)، وسبع عشرة جملة منها يزيد منضيًّا إليه أحيانًا قوله كذلك (٪٤٩)، وثانية جمل منها للشهدود (٪٢٣) - وجعل جرير أجزاء رسالته العشر الجمل: سبع جمل منها للأخطلل و قوله (٪٧٠)، وجملتان اثنتان منها له هو وحده (٪٢٠)، وجملة واحدة منها للشهدود (٪١٠). ولكن كانت لنهجي الشاعرين في تقسيم الجمل على أصحابها، اللذين يتحرك بهما تفكيرهما، معالم تحتاج إلى فضل تأمل فيها يلي.

### أصحاب الأقسام

[١٤] لقد أدار الأعشى على خصيمه يزيد سبع عشرة جملة (٪٤٩) مستندة إلى ضمير خطابه، وعلى نفسه عشر جمل (٪٢٩) مستندة إلى ضمير تكلمه، وعلى الشهدود ثانية جمل (٪٢٣) مستندة إلى أسماء القتال والمقاتلين المعرفة بأل الموصولة وضيائير غيبيتهم. وأدار جرير على خصيمه الأخطلل سبع جمل (٪٧٠) مستندة أربع مرات إلى ضمير خطابه، ومرة إلى لقبه المتبرز به، ومرة إلى اسم استفهام عن بعض هموم قوله الخيشة، ومرة إلى ضمير غيبته - وعلى نفسه جملتين اثنتين (٪٢٠) مستندين إلى ضمير تكلمه، وعلى الشهدود جملة واحدة (٪١٠) مستندة إلى معرف بأل.

لقد أدارا جيئًا أكبر أقسام أجزاء رساليتها على خصيميهما، ولكنها اختلفا في نسبة تلك الأكبرية فكانت عند جرير أكبر منها عند الأعشى، وما ذلك إلا من انصراف جرير إلى التنكيل بخصيمه وتحييره عن وجوه الجواب وإخراسه أمام المتكلمين، وتمسك الأعشى بتتبئه خصيمه إلى أنه يعاون الدنيا كلها بما يتتوى لا الأعشى و قوله وحدهم، وشنان ما هما!

لقد كان التوفيق إلى أخف التهم والسباب والشتائم والتعابير والتغایط، هو هم جرير اللازم في أجزاء رسالته، حتى كاد لا يدع لغيرها مكانًا إلا أن يكون من بابتها، كما فيها اختباره للشهادة على ما بينه وبين خصيمه؛ فقد كان مقالة الخليفة نفسه في سب خصمه، إن تكون أخف إقذاعًا يكتفى أن تكون مقالة الخليفة المسنوع المثير. ولقد تخيَّل لي الأعشى باللحاظ على إسناد جمل خصيمه إلى ضمير خطابه، أن جلة الإطار الآنفة الذكر (أَبْلَغَ يَزِيدَ بْنَ شَيْبَانَ مَأْلُوكَ (...))، هي نفسها مستندة إلى ضمير خطاب يزيد نفسه كذلك، وكأنه بها طمع فيه وطمع إليه غافل عن حقيقة نفسه؛ فأراد الأعشى أن يريه إليها في مرآته، ولسان حاله يقول: نبه نفسك، وهذا ألطفُ تأتيا إلى إنجاز المراد!

## تتابع الأقسام

[١٥] وعلى حين حرص الأعشى على مزج كل طرف من أطراف أجزاء رسالته (يزيد، الأعشى، الشهود) بجمل غيره سريعاً ومدافعتها ومناقاتها لكيلا تفرد بمجال الصراع فتقطع بمعنى واحد يفسد عليه مراده من وعيده؛ فبدأ بندائه ليزيد حتى يتبعه إلى ما سيقوله له، وختم بمقالته لبعض خصومه حتى يرتدعوا، ووالجمل بين البدء والختم على النحو التالي:

الأعشى (١)-يزيد (٢، ٣، ٤، ٦، ٥)-الأعشى (٧)-القاتل (٨، ٩، ١٠)-الأعشى (١١)-يزيد (١٢، ١٣)-القاتل (١٧، ١٦، ١٥، ١٤)-الأعشى (١٩، ١٨)-يزيد (٢٠)-القاتل (٢١)-يزيد (٢٢)-الأعشى (٢٤)-يزيد (٢٥)-الأعشى (٢٦)-يزيد (٢٧)-القاتل (٢٨)-القاتل (٢٩)-الأعشى (٣٠)-يزيد (٣١)-الأعشى (٣٣)-القاتل (٣٤)-الأعشى (٣٥).

- لم يعبأ جرير بظهور جمل طرف من أطراف أجزاء رسالته (الأخطل، جرير، الشهود)، على غيره، وإنفراده بمجال الصراع الذي لا فخر فيه لفاخر، بل لا شيء غير العار؛ فبدأ وختم بإنفي القدرة عن خصيمه، ووالجمل بين البدء والختم على النحو التالي:

الأخطل (٢، ١)-جرير (٣)-الشهود (٤)-الأخطل (٥)-جرير (٦)-الأخطل (٧). (١٠، ٩، ٨).

## أزمان الأجزاء

[١٦] ثم على حين وجه الأعشى أكثر جمله (٨٣٪) إلى المستقبل وأقلها إلى الماضي (١٧٪)، وجه جرير نصف جمله إلى المستقبل وقرابة نصفها إلى الماضي. إن المصيبة عند الأعشى خشبة لم تقع بعد، فإن فعل خصيمه شيئاً خدعاً فعل هو مثله أو أشد منه، وشهد القاتل عند ذل الممحق على المُبطل، وفي الواقعات السالفة منهم لأعدائهم شاهد عدل لا يكذب، فاما صفات الجهلات الواقعية فينبغي للرؤساء أن يغضوا عنها ولا يُنكِّروها؛ وفي سبيل ذلك تلطّف الأعشى غاية التلطّف؛ فأنخرج جلاً كثيرة ملتبسة الأزمنة:

فمنها ما ظاهره الحاضر المستمر ولكن باطنه مستقبل متضرر، كما في الجمل ٤ - ٦ «تُغْرِي بِنَا (...)»، «تُرْدِي»، «تَعْتَرِلُ»؛ فربما أيقن من بلغه ما كان من يزيد حقاً أن الأعشى أراد هذا الحاضر، ولكن في طرف الجملة الأولى ظرفاً هو «عند» مضائياً إلى شيء

لم يحدث بعد هو ((اللقاء)), كفياً بصرف من لم يبلغه ما كان من يزيد عن الحاضر إلى المستقبل.

ومنها ما ظاهره الماضي المقطع ولكن باطنه مستقبل متظر، كما في الجملة ١٨ ((قَدْ كَانَ فِي أَهْلِ كَهْفٍ (... ) وَالْجَاهِزَةُ مَنْ يَشْعُرُ وَيَتَضَعُ ))؛ فربما ظن المتلقي سريعاً أن الأعشى يمتدح هؤلاء القوم بما استمر من فرسانهم ورماتهم قديماً، ولكن الأعشى يرمي بين طيات هذه الجملة جملة شرط ماضوية ظهرها مستقبلية باطنها هي ١٩ ((إِنْ هُمْ قَدْعُوا )) قبلها أداة شرطها المستغنية عن جوابها بما اعتبرته؛ فيرد المتلقي إلى نفسه ويتبيّن أنهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك، وأن الأعشى يريد لهم ألا يفعلوا، أو يمدحهم بأنّ آن يفعلوا.

ومنها ما ظاهره الحاضر المستمر أو المستقبل المتظر وباطنه الماضي المقطع، كما في الجملة ٢٤ ((إِنَا نُفَاتِلُهُمْ حَتَّىٰ نُقَاتِلُهُمْ عَنِ الدُّلَّا وَهُمْ جَارُوا وَهُمْ جَاهِلُوا ))؛ فربما ظن المتلقي أن بين الأعشى وقومه وبين هؤلاء الجاھرين الجاھلين الذين يتحدث عنهم بهذه الجملة، حرياً مشتعلة الآن أو غداً، ولا سيما أن ((آل)) التي في ((اللقاء)) في سياق الفعل المضارع، يجوز أن تكون عهدية متوجهة إلى الآن، وأن تكون جنسية متوجهة إلى الغد - حتى إذا ما وضعها المتلقي في سياقها بعد الجملة ٢٣ السابقة لها ((أَسْأَلْ رَبِيعَةَ عَنَّا كَيْفَ تَقْتَلُ ))، كانت آل عهدية متوجهة إلى الماضي؛ فعلم أنه أراد سابق حربهم لهم.

ومنها ما ظاهره الإطلاق من حدود الزمان وباطنه ماضٌ مقطوع، كما في الجملة ٣٣ ((تَخْنُ الْقَوَافِرُ يَوْمَ الْعَيْنِ ضَاحِيَةً جَنْبِيَ فُطِيمَةً لَا مِيلَ وَلَا عُزُلَ ))؛ فربما تلقيت مطلقة على أنها أصل راسخ لا يتغير، تكذّب فيها الأعشى بشاتهم وكلامهم، ثم تثبّت إلى ما في أول أحوال الخبر من تقيد ذلك بزمان ((يَوْمَ الْعَيْنِ)) الماضي.

وفي ذلك من سياسة المتلقين مهارة واضحة؛ فربما حلت المتوعّد وغيره فظاظة المتوعّد على إهمال الوعيد واحتقاره واطرائه؛ فلم يخل من وعيه بظاهر؛ فشدّ الأعشى وأخرى وأظهر وأخفى ودارى ومارى؛ فلم يكن جاھل متكلّمٌ مُخامرٌ غرّ مُخديعٌ مُندفعٌ أن يفهمه سريعاً، حتى يكون العالم الحكيم الرَّازِيزُ الرَّجِيجُ هو الذي يخبره بمراده وبجوابه إليه في وقت واحد معًا!

وإن المصيبة عند جرير - إن كانت ثمّ مصيبة! - هي هي في الماضي والمستقبل؛ فعظامه جرير التي بعثته بشرف الخصال وحملته على كريم الفعال، لن تزال تحمله عليهما، وحقارة خصيمه التي بعثته بوضيع الخصال وحملته على لئيم الفعال، لن تزال تحمله عليهما، ولا مندوحة لغير ذلك؛ فالطبع غلاب، ولا أمل في غير ذلك؛ ((وَتَأْبَى الطَّبَاعُ عَلَى النَّاقِلِ ))! وفي سبيل ذلك مضى جرير مُصرّحاً غير مضطر إلى تلطيف الأعشى، غير أنه أخرج جملته الثالثة التي كانت محور فقرته الأولى ((إِنِّي أَمْرُؤٌ (... ) عَيْلَانَا ))، بحيث اجتمع

فيها الزمان المستوليان على أجزاء، رسالته؛ فوجه نعتها الأول «أَرْدَ (...») جهة الماضي، ونعتها الآخر «أَنْجَى جَاهِي بِأَغْلِبِ الْمُجْدِ مَتَّلَقِي (...») جهة الحاضر المستمر إلى المستقبل؛ فبدأ الزمان فيها كلياً فوقياً، ولا سيما أن جملة النعت الآخر تحمل كما سبق، أن تكون حالاً من أي من ضميري [(«أَرْدَ»)، و(«أَنْجَى»)].

### تصدر المتكلمين

[١٧] ثم اجتمع الأشعى في أربع جل (١١٪) وجرير في جملة واحدة (١٠٪)، على صرف المتلقى عن تلك الأزمان قليلاً إلى الإنسان بتصدير المسندات إليها فيها وتحويلها هي وحدها من الفعلية المستولية على سائر الجمل، إلى الاسمية:

قال الأشعى:

- ٢٤ «إِنَا نُقَاتِلُهُمْ (...»).
- ٢٦ «إِنَا لِأَنْشِلُكُمْ (... قُتْلَ (...»).
- ٣٠ «إِنِّي لَعَمَرُ الَّذِي (... لَتَقْتَلُنِي مِثْلَهُ مِنْكُمْ (...»).
- ٣٣ «تَخْنُونَ الْفَوَارِسُ (...»).

وقال جرير:

- ٣ «إِنِّي امْرُؤٌ لَمْ أَرِدْ (... أَنْجَى جَاهِي (...»).

ولم يكن المصادر فيها كلها غير ضمير تكلم الشاعرين وكأنها انحصرت فيها وحدهما حقيقة الإنسان الفاعل، فاما خصيبيها فربما دعتها إلى الفعل - إِنَّا فَعَلَا - دواعي خارجة عن حقائقها.

لقد كان الأشعى معنياً بأساليب سياسة الناس متعجباً بخبراتها الموقين إلى مساعدتهم على رغم المكر والخرج<sup>٤٠</sup>، فوجب الانتباه إلى ما في تأثيره لهذه الجمل ولا سيما الجملة إلى أواخر أجزاء الرسالة، من مندوحة التمهيد لها بما قبلها، لكيلا ينقلب الفخر على الفاخر ولا يتجرز الوعيد مراده!

ثم قد ميز منها الجملة الثالثة، بإفراد المسند إليه («إِنِّي»)، على رغم رجوع الضمير إليه من جملة المسند جموماً («لَتَقْتَلُنِي»). إن الأشعى هو الغاضب في هذه القصيدة لا غيره، وربما ركن يزيد المتوعّد إلى آلا فعل ولا قدرة على شيء لشخص واحد منها كان غضبه؛ فنبهه الأشعى بضمير تكلمه في («إِنِّي») على أنه السيد المطاع في قومه، وبضمير تكلمه مع قومه في («لَتَقْتَلُنِي») على أن قومه لن يتركوه؛ فمن العقل آلا يغري يزيد المتوعّد أولياء المقتول المهمل بأن يقتلوه بأحد رؤساء قوم الأشعى، وإن اتصف الأشعى منه ومنهم وانتصر.

ثم قد ميز منها كذلك الجملة الرابعة الأخيرة، ٣٣، بخلانتها من أداة التوكيد «إن»؛ فخرجت في ظاهرها خرج النتيجة التي لا تحتاج إلى اجتهاد، ولكنها في باطنها مقدمة ما سبقها من هذه الجمل؛ فلو لم يستتر في قلوب الأشعى وقومه أئم الفوارس الذين تحجل عن قدرتهم وغلوتهم المزبوب، لم يجري على الوعيد.

أما جرير فقد كان خبيراً بإيذاء الناس، وليس آذى لهم من إنكار حقائقهم وإثبات أباطيل غيرهم أو حقائقهم؛ فوجب الانتباه إلى تقديميه لنفسه وحده في الجملة ٣ وإهماله لغيره، ثم لإعادته ضميري جلتي النعتين بالكلام المناسب للمسند إليه المصدر «إني»، بدلاً من الغيبة المناسبة للمنعوت القريب «أمرؤ»، حتى ملا الجملة بنفسه المتناثة بنفسها!

### تحقيق الفصلين

[١٨] ولقد أكمن الشاعران للمتأمل وراء جل أجزاء رسالتيهما، فقرتين متقابلين: كانت الفقرة الأولى عند الأشعى من الجمل التسع عشرة الأولى (١ - ١٩)، في تحرير ما عليه يزيد، وقد شغلت تسعة الآيات الأولى، وكان محورها الذي دارت في فلكه منجدية إليه قسم الأشعى أن يزيد خاذل من يغriهم بالقتل - لا حالة - بقوله:

لأغْرِقْتَ إِنْ جَدَّ التَّفَرِّيْثَا  
وَسُبْتَ الْخَرْبُ بِالطَّرَافِ وَاخْتَلَوا  
كَسَاطِعِ صَخْرَةِ يَوْمِ الْتَّقْلِيْفِ  
لَمْ يَفْزُهَا وَأَزْهَى قَرْنَةَ الْوَعْدِ  
الْتُّسِّينَ التَّفَرِّيْثَ مِنْكُمْ عَزْوَمُ لَمْ تَنْتَلِ.  
لأغْرِقْتَ إِنْ جَدَّتْ عَدَاؤُنَا وَ

وكانت الفقرة الأولى عند جرير من الجمل الخمس الأولى (٥ - ١)، في تعظيم ما هو نفسه عليه، وقد شغلت خمسة الآيات الأولى، وكان محورها الذي دارت في فلكه نفي جرير الظلم عن نفسه وإثبات الجرأة والحماية، بقوله:

إِنِ امْرُؤٌ لَمْ أَرَدْ فَيَمْنَأْنَأِيْفُ  
لِلنَّاسِ طَلْمَأْ وَلَا لِلْخَرْبِ إِدْهَانَا  
أَخْسِي جَاهِي بِسَاعِلِ الْمَجْدِ مَتِّلَسِي  
مِنْ بَنْدِيفِ وَالسُّدَّارِ مِنْ قَيْسِ عَيْلَانَا

وكانت الفقرة الأخيرة عند الأشعشى الجمل الست عشرة الأخرى (٢٠ - ٣٥)، في تعظيم ما هو نفسه عليه، وقد شغلت الثلاثة عشر بيتاً الأخيرة، وكان محورها الذي درات في فلكله منجديةً إليه قسم الأشعشى أنه متصفٌ - لا محالة - من يزيد ومن أطاعه، إذا مضى إغراوه، بقوله:

إِنِّي لَمُنْفَرٌ الَّذِي حَطَّتْ تَنَاهِيَّهَا  
لَقْتُلْنَّ مِثْلَنِي مِنْكُمْ فَتَنَاهِيَّ  
لَقْتُلْنَّ مِنْ وَمَاءَ الْقَرْمِ تَنَاهِيَّ

وكانت الفقرة الأخيرة عند جريبر الجمل الخامس الأخيرة (٦ - ١٠)، في تحير ما عليه الأخطل، وقد شغلت أربعة الأبيات الأخيرة، وكان محورها الذي دارت في فلكله منجديةً إليه تأيد نفي جريبر إدراك المجد عن الأخطل، بقوله:

لَنْ تُنْذِرُوكُوا الْمَجْدَ أَوْ تُشَرِّوْعَهَا كُنْ  
إِسْلَمُ أَوْ تَجْبَلُوا الْقَوْمَ قَسْرَانَا.

### الفقر وأبياتها

[١٩] لقد اجتمع الشاعران بتقسيم جمل أجزاء رسالتهم على فقرتين، على ملاممة ظاهرة الازدواج الإيقاعي الطبيعية من حولها، وكان آخر الفقرتين صدى صوت أولاهما المجيبة، وضلاً للمتلقى بمجرى رسالتهم؛ عسى أن يتأمل أجزاءهما، وبطابق بعضها بعض، تحصيلاً لمقصديها.

واجتمعا كذلك على زيادة نصيب فقرة تعظيم كل منها لما هو عليه من الأبيات على قريتها، ترويجاً لقوة ما هما عليه (الصوت الداعي) وضعف ما خصياهما عليه (الصدى المجيب). ولكنها افترقاً فيما وراء ذلك:

### منازل الفقر

[٢٠] فعل حين قدم الأشعشى فقرة تحير ما عليه خصيمه على فقرة تعظيم ما هو عليه؛ فدل على أن حقارة ما عليه يزيد هي التي حلته على تعظيم ما هو عليه، ولو لا تلك ما كان هذا - قدم جريبر فقرة تعظيم ما هو عليه على فقرة تحير ما عليه خصيمه؛ فدل على أن عظمة ما هو عليه هي التي حلته على تحير ما عليه خصيمه، ولو لا تلك ما كان هذا!

لقد أراد الأعشى لنفسه ولخصيمه السلام؛ فنثت في روعه أخيراً لا قدرة له عليه، وأراد جرير لخصيمه الندامة؛ فقدف في ذنه أخيراً لا خير له في نفسه!  
**مُحَورًا فِقْرَيِ الْأَعْشَى**

[٢١] ثم أقسم الأعشى في جملة محور فقرته الأولى، على ما لا يملك من خذلان يزيد، مثلما أقسم في جملة محور فقرته الأخيرة، على ما يملك من الاتصال منه، وأخرج المقسم عليه فيها جميعاً جملتين متسلكتين في جملة قسمية واحدة على النحو التالي:  
أما الجملتان في الفقرة الأولى [«لأغْرِفْتُكَ (... )» و «لأغْرِفْتُكَ (... )»]، فقد كانتا جميعاً جوابين متعاطفين بعاطف عذوف موضعه قبل [«لأغْرِفْتُكَ (... )»] الأخيرة، لقسم واحد عذوف، وكادت الأخيرة منها تكون توكيداً لفظياً للأولى لو لا بعض مكملاً لها، والتوكيد اللفظي بمترتبة الصدى الحاكي والمؤكد قبله بمترتبة الصوت المحكى.  
وأما الجملتان في الفقرة الأخيرة [«لَقْتُنَ (... )» و «لَمْ تُلْقِنَا (... )»]، فقد كانتا جميعاً جوابين متعاطفين بعاطف عذوف موضعه قبل [«لَيْنَ مُنِيتَ (... )»]، لقسم واحد مذكر [«لَعَمْرُ الَّذِي (... )»] في خبر اسم إن في [«إِنِي (... )»] المحيطة بالجملة القسمية كلها منها تعدد أجوبتها.

ثم علق الأعشى أجوبة جملتيه القسميتين جميعاً بشروط وقوعها؛ فاعتراض جملته القسمية في الفقرة الأولى بقوله: «إِنْ جَدَ التَّغْيِيرُ (... )»، في أثناء جوابها الأول، و قوله: «إِنْ جَدَتْ عَدَاوَتُنَا (... )» في أثناء جوابها الآخر، واعتراض جملته القسمية في الفقرة الأخيرة بقوله: «إِنْ قَتَلْتُمْ عَمِيدًا (... )»، في أثناء جوابها الأول، و قوله: «إِنْ مُنِيتَ بِنَا (... )» في أثناء جوابها الآخر، وجعل اعتراضاته كلها بجمل شرطية فعلية ماضوية لا أداء لها غير [«إِنْ (... )»].

ولا اعتراض على هذا التخريج بامتناع نفي المضارع بلـم في جواب القسم «لأنهم ينفونه بما يجوز حذفه للاختصار (... )»، والعامل الحرفي لا يحذف مع بقاء عمله، وإن أبطلوا العمل لم يتغير النافي المذوق<sup>(٣٧)</sup> – الذي يقتضي جعل جواب القسم «لَمْ تُلْقِنَا (... )»، جواب الشرط قبله [«لَيْنَ مُنِيتَ بِنَا (... )»]؛ فمراجعة واقع اتساق الشعر على ما تبين آنفاً أهم من مراعاة جواز حذف النافي من جواب القسم، ثم قد يكون هذا التركيب مما وقع شاذًا في هذا الباب<sup>(٣٨)</sup>.

ثم لا اعتراض على هذا التخريج أيضًا برواية البيت على النحو التالي:

**لَمْ يَرِدْ مِنْ بَعْدِهِ مَنْ يُؤْمِنُ  
وَمَا وَلَدَ لِيَتَّسِعُ الْأَرْضُ**

شاهدنا ((على أنه يجوز بقلة في الشعر أن يكون الجواب للشرط مع تأخره عن القسم؛ فإن لام (أثنين) موطة للقسم، قوله: (لا تلفنا) جواب الشرط دون القسم، بدليل الجزم))<sup>(٣)</sup>؛ ففضلاً عن أنَّ من أصول اللغة ألا تُستيقِّطَ رواية رواية، ينبغي أن تحمل هذه الرواية متي صحت، على أنها من تقصير ياء المد الطويلة<sup>(٤)</sup>، وألا جزم ثمَّ ولا جواب للشرط إلا المحذوف المدلول عليه بجواب القسم؛ هذا ما يتضمنه اتساق الشعر كذلك. ولقد أحاط الأعشى جلته القسمية في الفقرة الأولى ببستان كأنها من تشابهها ظاهراً وباطناً بيت واحد، هما قوله:

تُفْرِي بِنَارَفَطٍ مَسْعُودَ وَإِخْرَقَهُ  
ثُلِّيْمَ أَزْمَاحَ ذِي الْجَذَّيْنِ سَوْرَتَهُ

ففعل إلزامه سورتهم في اللاحق مجاز عن فعل إغرائه بهم في السابق، وأرماح ذي الجدين في اللاحق مجاز عن رهط مسعود وإخوته في السابق، والظرف ومضافة «عند اللقاؤ» هنا فيها، وأداة العطف «الفاء» هي هي فيها، فعل إلزاته هو هو فيها، وضمير المُرْدِّينَ في اللاحق عذوف من السابق مفهوم سريعاً برجوعه إلى رهط مسعود، والعاطف «الواو» في اللاحق بمتنزلة العاطف «ثم» في اللاحق، وفعل اعتزاله هو هو فيها - فأغرق جملته القسمية الأولى في دُوّامة التكرار، على حين لم يفعل مثل ذلك بجملته القسمية الأخيرة.

ولكن مع ذلك كله تظل جملة **الأعشى** القسمية الأولى فعلية قطب حركتها فعله المتصدر فيها تقديرًا (أُقيِّم) حتى إنه لما حُذفَ تَصَدَّرَ جملتي جوابها فعلاه («أعْرِف (... أَعْرِف») كذلك، إيهاماً بأن فعل خصيمه هو أصل كل تحبير عسى أن يُغَيِّرَ، على حين جملة القسمية الأخيرة اسمية قطب حركتها اسمه (ضميره) المتصدر فيها (إني)، إيهاماً بأنه هو أصل كل تعظيم عسى أن يُتَمَسَّكَ به!

ثم إن الأشعر بالغ في تقصير جملة القسم من الجملة القسمية الأولى، حتى حذفها مكتفياً بلام القسم في [(أَلْأَغْرِقْتَكَ (...)), و (أَلْأَغْرِقْنَاكَ (...))، على حين بالغ في ذكر

جملة القسم من الجملة القسمية الأخرى «العمر الذي (... )»، حتى شغلت بيتاً كاملاً، مستبدلاً بالقسم به البيت الحرام اسمًا موصولاً ذكر في صلبي طرفاً من مناسك الحج إلىه. ثم ميز الأعشى جملة الجواب الأول من الجملة القسمية الأولى بها أطوال من بيان المقسم عليه فيها بأنه «كناطح صخرة (... )» حتى شغل بيتاً كاملاً صار به مثلاً شروداً، على حين اكتفى في جملة الجواب الأول من الجملة القسمية الأخرى بأن المقسم عليه سيكون «مثلكم مثلكم».

ثم رمى الأعشى الاعتراض في الجملة القسمية الأولى بين أجزاء جلتي جوابها [«لأغرتك - إن جد (... ) - كناطح (... )»، و«لأغرتك - إن جدث (... ) - تحتمل»]؛ فكان اعتراضًا لها من خلال اعتراض جلتي جوابها، على حين جعل الاعتراض في الجملة القسمية الأخيرة قبل كلٍّ من جلتي جوابها [«إن قتلتم (... ) - لتفتنن مثلهم»، «إن منيت بيتا (... ) - لم تُتفتنا (... )»]؛ فكان اعتراضًا لها هي لا بجملتي جوابها.

ثم جعل الأعشى اعتراضه في الجملة القسمية الأولى، بخمس جمل: ثلات [«جد التفريينا»، «ثبتت الحرب»، «التحتملوا»]، ثم اثنان [«جدث عداوشا»، «الثوس التصر منكم»]، على حين جعل اعتراضه في الجملة القسمية الأخيرة، بجملتين: واحدة [«قتلتم عميداً لم يكن صدداً»]، ثم واحدة [«منيت بيتاً عن غب معركة»].

#### محوراً في ترتيب جرير

[٢٢] ثم أقبل جرير يميز جملتي محوري فقرتيه بعضهما من بعض على النحو التالي:  
أولاً: أستد جرير أو لاها إلى ضمير تكلمه «إني (... )» والآخرة إلى ضمير خطاب خصيمه وقومه «إن تذكريوا (... )» على غير ما فعل الأعشى; فلم تكن به رغبة في تغيير حال خصيمه وقومه إلى أحسن منها، بل في كيدهم بسوتها فلا تقوم له منهم قائمة أبداً، ثم في جعل نفسه بضمير تكلمه خصيمهم بضمير خطابهم دلالة للمتكلمي على أنه وحده كفاؤهم جيئاً معًا.

ثانياً: قدم جرير المسند إليه في جملة الفقرة الأولى على المسند وجعلها اسمية قطب حركتها اسمه (ضميره)، إيهاماً بأنه هو أصل كل تعظيم وحرفيًّا بأن يقدر قدره، على حين صدر الفعل في جملة الفقرة الأخيرة وجعلها فعلية قطب حركتها فعل خصيمه وقومه المنفي عنهم، إيهاماً بأن أفعالهم هي أصل كل تغيير وحرية بأن تغيروا ولا كان قد عكس ترتيب الأعشى لفقرتيه، كان في هذا الوجه من التمييز جارياً مجراء.

ثالثاً: زاد جرير جملة الفقرة الأولى تركيباً دون جملة الفقرة الأخيرة، وحسبني أن أجد الجملة الأولى مبسوطة على بيتهما والأخرى مقبوضة في بيتهما واحد، على حين بسط الأعشى قريتيهما عنده كلاماً منها على ثلاثة أبيات.

لقد أستد في جلة فقرته الأولى إلى ضمير تكلمه نكرة مشهورة بالتمهيد للكلام ((أمرٌ)), تبيح له أن يضيف إليها ما يتيسر له شيئاً فشيئاً، ثم نعتها بجملة أستد فيها إلى ضمير تكلمه معنى العدل والشجاعة ((أَمْ أَرِذْ (...))), ثم بجملة أستد فيها إلى ضمير تكلمه كذلك معنى الحياة والمجد ((أَخْمِي (...))), تحتمل أن تكون حالاً من أحد ضميري تكلمه اللذين في جلة النعنة السابقة ((أَمْ أَرِذْ (...)), و((أَنَا وَهُوَ (...))]) ولا سيما الآخر، وجعل فيها جازاً و مجروراً ((يَأْغُلُ الْمَجْدَ)) يحتمل أن يكون حالاً من المضاف في ((جَاهَ)) قبله، وأن يكون خبراً مقدماً على مبتدئه والمعلوم عليه ((مَتَّزَّلْتَ)) (...) وَالَّذِرَا (...) في جلة حال من فاعل ((أَخْمِي)) أو المضاف إليه في ((جَاهَ)) الذي مضافة بمنزلة جزء، وهو الأرجح للاحاحه على التقديم والتأخير في جلة هذه الفقرة كلها:

١ ((ظُلْمًا لِلنَّاسِ = لِلنَّاسِ ظُلْمًا))

٢ ((إِذْهَانًا لِلْحَرْبِ = لِلْحَرْبِ إِذْهَانًا))

٣ ((مَتَّزَّلْتَ (...)) يَأْغُلُ الْمَجْدَ مَتَّزَّلْتَ (...))

بتقديم معمولي المصدررين عليها أولاً وثانياً، وخبر المبتدأ عليه ثالثاً، تمسكاً بما وراء التقديم في المركبين الأولين من معنى الاحتراس الذي في قصر غایته على ما سيأتي من معنى الحياة، تصديقاً لقوله مرة في جواب من سأله عن شتمه الناس: «لا أُبَتِّدِي وَلَكِنْ أُعْتَدِي»<sup>٣٣</sup> أي أجازي أخذنا بمشاكلاه اعتماد المتصرف لاعتداء الجائز في قول الحق - سبحانه، وتعالى - : {مَنْ اغْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاقْتُلُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اغْتَدَى عَلَيْكُمْ}<sup>٣٤</sup>، وتمسكاً بما وراء التقديم في المركب الثالث من معنى التمدح الذي في قصر منزلته من أهله على أعلى المجد. وألح كذلك على عطف الأشباء على الآشباء في آخر البيتين:

١ ((لِلنَّاسِ ظُلْمًا = وَلِلْحَرْبِ إِذْهَانًا))

٢ ((مَتَّزَّلْتَ مِنْ خَنْدِيفٍ = وَالَّذِرَا مِنْ قَيْسٍ عَيْلَانًا))

إيالا في معنى التمدح، ولا سيما في التعبير الأول بأخر البيت الأول الذي أضاف إلى العدل الشجاعة وما مختلفان، على حين لم يضف التعبير الآخر - منها كان - إلى المنزلة من ألم قومه إلا المنزلة من أبيهم، وما متكمالان!

فعل جريز ذلك كله بجملة الفقرة الأولى على حين أستد في جلة فقرته الأخرى تأييد العجز عن إدراك المجد إلى ضمير خطاب خصيمه وقومه، وإن استمر منه هنا كذلك عطف الشبيه على الشبيه في آخر البيت، وهو المظهر الوحيد الذي يمكن عده في وجوه الاتفاق، ولكن لا ظهور له مع وجوه الاتفاق العديدة!

رابعاً: أغمض جريز تركيب جلة الفقرة الأخيرة دون تركيب جلة الفقرة الأولى من عدة جهات مختلفة، منها ((أَوْ)) الأولى التي يقتضي ظاهر سياقها أن تكون بمعنى ((إلى))،

ويقتضي باطن سياقها أن تكون بمعنى «إلا»؛ فإن إدراك المجد الذي هو عند عامة الناس مما يحصل شيئاً فشيئاً، كما في قول الملك الضليل **الحاضر** هم سريعاً:

لأنَّهُمْ الصُّفَّةُ أَوْ أَذْرَكُ الْمُسِّ  
فَمَا انْفَادَتِ الْأَمَالُ إِلَّا يُصَابُ<sup>٢٠</sup>

يقتضي أن تكون «أو» في بيت جرير كما كانت في بيت الملك الضليل بمعنى «إلى» الملائم لما يحصل شيئاً فشيئاً. ولكن الملائم لقصد جرير من رسالته بيان أن خصيمه وقومه لم يسمعوا بالمجد أصلاً بله أن يكونوا بسيله، وألا حيلة لهم إليه إذا خطأ لهم مرة وعُنتْهُ **عَنْ** إلا أن تشق لهم السماء عنه فجأة وهم في وَهْدَةِ الخبال كما انشقت لسلفهم عن المائدة، وفي تأويل «أو» هنا بمعنى «إلى» كما كانت في بيت الملك الضليل تضييع الحق هذا الشعر وقياس لما لا ينقاذه وتشبيه لما لا يشبه.

ومن جهات الإغراض أيضاً الفعل «تَشَرَّوْا» الذي يجوز أن يؤول بمعنى «يَبْيَعُوا» فتكون الباء داخلة على الماخوذ، وبمعنى «يَتَبَاعِعُوا» فتكون الباء داخلة على المتروك، والأول أكثر كما في قول الحق - سبحانه، تعالى - : {وَلَيْسَ مَا هَرَوْا بِهِ أَفْسَهُمْ} <sup>(٣٣)</sup>، أي لبُّسُمَا يَأْعُوا بِهِ أَنْفَسُهُمْ <sup>(٣٤)</sup>، وهو ما يغيري به تحكيم آخر البيت في أوله؛ فالفعل «يَتَجَمَّلُوا» بمعنى «تَصْبِرُوا وَتَحْرُلُوا»، و«التَّنَوُّم» و«الضَّمْرَان» من صغار الشجر، أو هما يتفرق عن حب يستعمل في شؤون كثيرة ربما عيب على مستعمله بعضها، وأآخرها ذو خشب يُخْتَبُ ولا آراه بعيداً من «الضَّمْرَان» أو الضَّمِيرَان (رِيحَانُ الْبَر) <sup>(٣٥)</sup>؛ فقد اشترط جرير بأخر بيته هذا «أَوْ يَتَجَمَّلُوا التَّنَوُّمَ ضَمْرَانًا»، على خصيمه وقومه ليدركوا المجد - ولن يدركوه - أن يحملوا التنمّ و هو المذكور أولاً، إلى ضمّران وهو المذكور آخرًا؛ فيكون تأويل «تَشَرَّوْا» (يَبْيَعُوا) على الأكثر فيه، من مناسبة أول البيت لآخره.

ولكن في ذلك تضييعاً لحق الشعر؛ فالعباءة من ألبسة العرب والخذ من ألبسة العجم <sup>(٣٦)</sup>، ولم يرد جرير إلا تعير خصيمه العربي وقومه وهم نصارى، بتشبيهم بالعجم كراهة للعرب المسلمين الغالبين عليهم؛ فمن ثم كان «تَشَرَّوْا» بمعنى «يَتَبَاعِعُوا» على غير الأكثر.

لقد أخرج جرير جملة فقرته الأخيرة بيتاً عجبياً غريباً، في تأيد النفي على طريقة بعض الأمثال التعبيرية <sup>(٣٧)</sup>، وكأنها أراده ليذهب مثلاً شروداً لا يدع الناس السخرية به من خصيمه وقومه، كسائر أبياته التي أقض بها مضاجع مهجوبيه وأقلق راحتهم! ولما كان قد عَكَسَ ترتيب الأعشى لفقرته، كان في هذا الوجه من التمييز جارياً عمراه.

خامسًا: وَسَطَ جَرِيرُ جَلْتَهُ الْأُولَى فِي فَقْرَتِهَا عَلَى مَا فَعَلَ الْأَعْشِي، بِحِيثُ صَارَتْ هَذِهِ قَلْبًا تَدُورُ حَوْلَهُ سَائِرُ جَلْلَاهَا مِنْ قَبْلِهَا وَمِنْ بَعْدِهَا، عَلَى حِينَ أَخْرَجَتْهُ الْآخِرَةُ فِي فَقْرَتِهَا عَلَى غَيْرِ مَا فَعَلَ الْأَعْشِي، بِحِيثُ صَارَتْ هَذِهِ الْمَغَايِةُ تَؤْمِنُهَا مِنْ قَبْلِهَا سَائِرُ الْجَمْلِ وَتَتَهَمِّي إِلَيْهَا.

### ما وَرَاءَ تَرْكِيبِ الْمُحَاوِرِ

[٢٣] لَقَدْ أَوْشَكَ الْأَعْشِي أَنْ يَدْلِلَ بِهَا سَبْقَ مِنْ وِجْهِهِ اتِّفَاقِ جَلْتَيْهِ الْقَسْمَيْتَيْنِ (مُحُوري فَقْرَتِيْهِ الَّتِيْنِ انْقَسَمَتْ عَلَيْهِمَا أَجْزَاءَ الرِّسَالَةِ) عَلَى أَنْ تَقْتَهُ بِهَا سَيْكُونَ مِنْ يَزِيدُ مِثْلَ تَقْتَهُ بِهَا سَيْكُونَ مِنْهُ، وَهَذَا مَعْنَى جَسْوُرٍ لَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَيْهِ وَلَا مَتَّفَعَةَ لَهُ بِهِ؛ إِذَا لَا يَفْضِي إِلَى تَنْفِيرِ الْمُتَرَعِّدِ وَضَيْاعِ الْمَرَادِ؛ فَخَلْطٌ بِوْجُوهِ الْإِتْفَاقِ وَجُوهِ افْتَرَاقِ أَخْفَتِ جَسَارَتِهِ، وَكَفَكَتْ اسْتِطَالَتِهِ، وَكَفَلَتْ عَطْفِ الْمُتَلَقِّيِّ عَلَيْهِ وَإِنْجَازِ مَرَادِهِ. وَلَقَدْ أَرَادَ جَرِيرٌ أَنْ يَرْفَعَ نَفْسَهُ إِلَى أَعْلَى عَلَيْنِ وَيَخْفَضَ خَصِيمَهُ وَقَرْمَهُ إِلَى أَسْفَلِ سَافَلَيْنِ؛ فَتَحْرِيَ أَنْ يَسْتَمِرَ بَيْنَ جَلْتَيْهِ مُحُوري فَقْرَتِيْهِ الْإِتْفَاقِ عَلَى النَّحْوِ السَّابِقِ، عَسْيَ أَنْ يُظْهِرَ الْقُدُّسُ الْمُدْبُرُ.

### فُصُولُ التَّائِيِّ

#### التَّائِيِّ بِتَحْزِيزِ الْعُشَاقِ

[٢٤] إِنْ إِنْجَازَ فَصْلِ الرِّسَالَةِ نَفْسَهُ وَلَا سَيْا إِذَا كَانَ مِنْ بَابَةِ الْمَجَاهَدِ كَالْوَعِيدِ وَالذِّمِّ اللَّذِيْنِ هُنَّا، عَمَلُ مُفْرِحٍ رَبِّيَا كَانَتْ عَاقِبَتِهِ الإِنْسَانِيَّةُ أَنْ تَهَلَّلَ فُصُولُ التَّائِيِّ إِلَى الْمُتَلَقِّيِّنَ بِالْفَرْجِ نَفْسِيِّهِ قَبْلَ فَصْلِ الرِّسَالَةِ حَتَّى تَتَهَمِّي إِلَيْهِ، وَلَكِنَّ التَّحَزِيزَ الَّذِي حَمَّلَتْهُ فِي شِعْرِيِّ الْأَعْشِيِّ وَجَرِيرٍ وَلَا سَيْا فِي مَادَّةِ هَذَا الْبَحْثِ، يَبْيَّنُ الدَّلَالَةَ عَلَى إِيَّاهُمَا الْعِنَابِيَّةَ بِالْمُتَلَقِّيِّنِ؛ فَلَيْسَ أَعْطَفَهُمْ عَلَيْهِمَا مِنَ الْحَزَنِ الَّذِي يَدْهِيْهَا ضَعِيفِيْنَ يَبْرَأُنَّ مِنْ حَوْلِهِمْ وَقَوْتِهِمْ.

وَرَبِّيَا اقْتَضَى التَّائِيِّ بِتَحْزِيزِهِ إِلَى عَطْفِ الْمُتَلَقِّيِّنَ عَلَى رِسَالَتِيْنِ مِنْ بَابَةِ الْمَجَاهَدِ، أَنْ يَكُونَ عَلَى حَدَّثَانِ الزَّمَانِ الَّذِي يَكْرِمُ اللِّثَامَ وَيَهِيِّنُ الْكَرَامَ، أَوِ الَّذِي يَسْمُو بِالْجَبَنَاءِ وَيَنْجُو بِالشَّجَاعَانِ مَثَلًا، وَلَكِنَّ اقْتِصَارِ التَّحَزِيزِ فِي فُصُولِ التَّائِيِّ إِلَى الْمُتَلَقِّيِّنَ بِشِعْرِيِّ الْأَعْشِيِّ وَجَرِيرٍ وَلَا سَيْا فِي مَادَّةِ هَذَا الْبَحْثِ، عَلَى حَدَّثَانِ الْعُشْقِ الَّذِي يَسْتَكِيِّ الْأَنْفُسَ الْخَالِيَّةَ السَّاکِنَةَ فَيَعْذِبُهَا أَكْثَرُ مَا يَنْعَمُهَا، يَبْيَّنُ الدَّلَالَةَ عَلَى مَيْلِ الْمُتَلَقِّيِّنَ جَمِيعًا دَائِمًا إِلَى مَا يَنْشَا وَيَنْتَطِرُ بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ.

## تفصيل معاني الأعشى وبيانها

[٢٥] لقد تعلق الأعشى في فصل البين بالسفر - وإن حمل نفسه على توديع حبيبته - كفاء ما تعلقت هي بالصادف في فصل الإعراض؛ فأرانا إياها مظلومة حين بان عنها وظالمه حين أعرضت عنه، لأن الأول على رغمها بيده والآخر على رغمه بيدها، كما كشف قوله في فصل البين: ((إِنَّ الرَّكْبَ مُرْجَحُ)), الذي قام فيه قاتم السفر فاتره عليها، وقوله في فصل الإعراض: ((رَأَتْ رَجُلًا أَعْشَى أَصْرَرَ يَرْبِّي رَبِّ الْمُنْوَنَ وَدَهْرًا مُفْنِدَ حَيْلُ)), الذي حالت فيه حاله فضجرت به.

ثم أضاف فصلي نعمتها إلى ذين الفصلين على حسب كل منها؛ فبعقب فصل البين أورد فصل الاستحسان الذي تحملت فيه بنتعوت طيبة يتمناها الرجال لنسائهم، وبعقب فصل الإعراض أورد فصل الاستلذاذ الذي جلأها فيه بنتعوت خبيثة يتبعها في النساء الرجال المشتهون، كما كشف قوله في فصل الاستحسان: ((لَيَسْتَ كَمَنْ يَكْرَهُ الْجَيْرَانُ طَلَعَتْهَا)), الذي لم يملأها فيه معاملوها المطاعون على أحواها دائياً، وقوله في فصل الاستلذاذ: ((يَقْرَرُهَا لِلَّذْهَرِ الْمُرْءُ لَا جَافٌ وَلَا تَقْلُ)), الذي لم تستعص فيه على طالب.

ثم أضاف في فصل الخيبة تفسيرًا لذلك التدابير؛ فقد أحبها عفواً من دون قصد، وأحببت هي غيره عفواً من دون قصد؛ فلم تستقم بينهما علاقة ولم تصلح زيارة. ولكنه انتصف منها بأنها أحببت رجالاً لم يحبها، ثم بأنه هو والرجل الآخر قد أحببتهما فتاتان لم يحباهما، كما كشف قوله: ((كُلُّنَا مُغْنِرُمْ يَنْدِي يَصَارِبِهِ نَاءٌ وَدَانٌ وَمَخْبُولٌ وَمَخْتَلٌ)), الذي كان فيه ويلاً عليها كما كانت ويلاً عليه، على نحو عام لم ينج منه رجل ولا امرأة!

ثم حلته على الرحلة عنها هذه الخيبة العامة التي أحاطت بأولئك المجاهيل المتدايرين، فلم تختص بالرجال دون النساء، ولكنه لم ينشط لها حتى دل في فصل الطمأنينة على فروسيته؛ فلم يرحل عنها حتى اطمأن إليها في غيث ونعمه، كما كشف قوله: ((يَشْقِي دِيَارًا لَمَّا قَدْ أَصْبَحَتْ عُزْيَا زَوْرًا تَجَانَّتْ عَنْهَا الْقَرْدُ وَالرَّسْلُ)), الذي بدا الغيث فيه مرسلًا منه لها على بعدها.

ثم أقبل في فصل الرحلة على الفلاة القائنة المهلكة يتحرى أن تكون حاله عكس حالها، متداوراً من حمى الحب الفادحة بصيهد القيط الآسي، ومن صحبة الخيبة المخالفه بصحبة الناقة المواتية، كما كشف قوله: ((جَاوَزْتُهَا يَطَّلِعُ جَنْرَةً سُرِّحَ فِي مِرْقَنَهَا إِذَا اسْتَعْرَضْتَهَا فَتَلَّ)), الذي كان بمثيل تلك الفلاة وهذه الناقة شغله في عياساها.

ثم أقبل في فصل التلهي على الشراب والسماع والنساء، يوازي عبث الخيبة وسخريتها بعبث وسخرية أشد منها، ظاهر الفرح بقدرته الآتقة على الفلاة المترامية، كما

كشف قوله: «في التجارب طول اللهو والنزوء»، الذي جعل التلهي فيه عن الخيبة كالتعلق بها، تجرب من التجارب، لن تقطع. ثم أضاف أخيراً فصل الوعيد (الرسالة) السابق بحثه في خلال ست عشرة فقرة [٨ - ٢٣]، على سبيل الاستطالة التي تُسْرِعُها للمتكلمين قدرته السالفة على الرحلة وعلى التلهي جميعاً معاً، وكان هذا الوعيد أَفْهَمُ من تلك الألاميّا

### تفصيل معاني جرير وتأوصيلها

[٦٦] وتعلق جرير في فصل البين بالبقاء لا السفر؛ فقد كان هو وحبيبه والدار التي عهدها وعهدهما، كائناً واحداً عجيباً مثلاً للأرواح منفصلاً ما حوله من الناس والزمان والمكان كما تفصل السفينة المبحرة في أثابع البحار لا تلوي على شيء؛ فصار بين حبيبه شلواً من شمل مُتَّرق وتوحاً من سفينة خَرِبة، كما كشف قوله: «لا يَتَغَنِي بِدُلَى بِالْدَارِ دَارًا وَلَا الْجِيرَانَ جِيرَانًا»، الذي تجلت فيه حقيقة معنى الوصل لديه.

ثم تخيل في فصل الرسول كل رايك راحلا إلى حيث حبيبته، قادرًا على وصل الدار بالدار الذي عَجَزَ هو عنه؛ فحمله سلامه وسلم الدار القديمة التي عهدها وعهدهما عليها وعلى ديارها الحديثة، وتعلقه بها الذي لم يفهمه حتى افتقدها، كما كشف قوله: «هَيَاهَاتٌ مِنْ مَلَحِي بالْقَوْرِ مُهَدَّانًا»، الذي افتضخ فيه تعلقه بالدار وتآلمه بعد القديمة من الحديثة.

ثم قَصَّ في فصل المكيدة كيف تلَعَّبت به حبيبته وأنته قبل رحيلها، وكأنه استبعد أن تَعْطِفَها الرسالة الآنفة، كما كشف قوله: «ضَسْتِ بِمُؤْرَدَةٍ كَائِنَتْ لَنَا شَرَعًا تَشْفِي صَدِي مُسْتَهَامِ الْقَلْبِ ظَمَانًا»، الذي قطعت فيه عليه وعلى نفسها طريق الريّ الجامعة الشاملة. ثم رد فصل الوجد على فصل البين فاشتكى غرابة الأشياء من حوله بعد بين حبيبته، وبدا كأنه ذلك البحار المائلة سفيته قد أيقن بالغرق، كما كشف قوله: «لَمْ تَلْقَ بَعْدَكُمْ كَأْلَعْرِقِ عِزْقًا وَلَا السُّلَانِ سُلَانًا»، الذي أنكر فيه بعدها كل ما حوله.

ثم تخيل حبيبته في فصل الخيال قد أجبته وعطفت عليه وأمكته من نفسها بعد إخلاصه لها الوجود بها، كما كشف قوله: «لَا ذُنْبًا كَذُنْبَانًا»، الذي انبعث فيه ذلك الكائن الواحد العجيب المثلث الأرواح، ولكن خيالها تفلت منه وعاد إليها؛ فأضاف إلى البين بيناً إلى الألم ألمًا.

ثم اضطر في فصل الرحلة إلى سنة التداوي بالرحيل الذي ليس من رأيه، فأخذاه في طيات رحيل حبيبته الذي من رأيها، حتى تكاد لا تقطع للمتأمل ريبة في أنه رحل على الحقيقة كما رحلت، إلا أن يكون رحيله كان في خلال رحيلها مُلَازِمَةً لها وَتَعَلَّقاً بها، حتى

يش من ردها، كما كشف قوله: «قَدْ قَطَمْتَ بَيْنَ السَّلُوْطِيْنِ وَالرَّوْحَانِ صَوَّانَا»، الذي علق فيه عينيه على الطريق، ولا سيما أنه تعلق بعذنه في فصل الذكرى بصور من صورها في الدار التي عهدها وعهدتها حتى أثارته في ذيل الصور صورة بعض أقربائها يحمل دونها؛ فاحتقره غاضبًا عليه متنمياً أن لو دار الزمان فانتصف منه، كما كشف قوله: «كُنْتُ شَيْطَانًا»، الذي أسف فيه على سوء الحال وضياعة المال.

ثم عَمَّ في فصل الوعيد غضبه حتى شمل به خصومه من الشعراء؛ ففخر بما في إفحامه لهم جميعاً من مأثر سالفة ومشاهد باقية مستمرة، كما كشف قوله: «قَدْ حَدَّوْتُهُمْ مُثْنَى وَوُخْدَانَا»، الذي قدم فيه نفسه عليهم رائداً لهم.

ثم أضاف أخيراً فصل الدم (الرسالة) السابق بحثه في خلال ست عشرة فقرة [٨ - ٢٣]، من باب إضافة الخاص إلى العام، اصطفانه لأحد الخصائص الشعراء (الأخطل) الذي لن يكون إلا واحداً منهم؛ فتحرى إفحامه بكل ما يشينه ويؤديه من خصاله ومعايشه هو وقومه.

لقد اجتمع الشاعران على الثاني إلى المتكلمين بتحاذن العُشاق، وعلى تقسيم فصول الثاني على تسعه، ولكن كانت لكل منها في توجيه التسعة الفصول وجهةً تولّها واعيًّا أو غافلًا:

### ما وراء تفصيل الأعشى وتأوصيله

[٢٧] أما الأعشى فتقاوى على حبيبته وتعزّز وأدار على نفسه أكثر فصول الثاني؛ فلم يخلص لها إلا فصل الاستحسان والإعراض اللذين بدت في أولها كأنها تخبرت لنفسها ما شاءت من طيب الصفات وفي آخرها كأنها اجرأت بما اتصفت من طيب تلك الصفات، وأما فصل الخيبة فقد كان شركة بينهما، وأما فصول البين والاستلذاذ والطمأنينة والرحلة والتلهي فقد أخلصها لنفسه يرى فيها ويفعل ما يدبه.

### تفصيل مباني الأعشى وتأوصيلها

[٢٨] لقد استهل قصيده في فصل البين باستاد فعل أمر توديع امرأة معينة إلى ضمير خطاب نفسه على التجريد ((وَدُعُّ هُرَيْرَةً))، فدل على أنه هو المسافر عنها البائن منها، وأن بعضه يلوم فيها بعضاً. وتحرى في قوله الكاشف ((إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَجِلٌ)) أن يكون جملة اسمية مؤكدة ((بيان)) مستندة فيها صفة الارتجال إلى معرف بأـلـ العـهـدـيـةـ؛ فـبـدـاـ قـوـلـهـ الكـاـشـفـ قـدـرـهـ المـقـدـورـ الـذـيـ لـاـ جـلـةـ فـهـ إـلـاـ يـخـضـعـ لـهـ.

ثم قطع فصل البين، واستأنف في فصل الاستحسان إسناد طائفة من الصفات الطيبة مفردة ومركبة أولاًها مفردة صفة مشبهة، إلى ضمير غيبة هريرة المبتدأ المذكوف المذكوف المفهوم «(هي) غَرَاءٌ (... )»، على منهج عربي أصيل في ذلك<sup>(٣٥)</sup>، أراد به الأعشى صرف المثلقين عن الموصوفة المذكورة اسمها إلى صفاتها المذكورة، ليتأملوها كأنها هي التي أمامهم. وتحري في قوله الكاشف «لَيَسْتَ كَمَنْ يَكُرَّهُ الْجِيرَانُ طَلَعَتْهَا» أن يكون جملة اسمية منسوبة «بِلَيْسَ» مستدلاً فيها شبه الجملة الحرفي التشبيهي إلى ضمير غيبة حبيبته؛ فبدا قوله الكاشف هديته إليها التي تحسدتها النساء عليها!

ثم قطع فصل الاستحسان، واستأنف في فصل الإعراض إسناد طائفة فعل ماضي الصدود عنه إلى اسمها لا ضميرها ملتفتاً عن ذلك الخطاب «(... ) لَا تَرَاهَا (... )» في آخر ذكر سابق لنفسه، إلى هذا التكلم «صَدَّتْ هُرِيرَةٌ عَنَّا مَا تُكَلِّمُنَا»، بِوَحْيٍ سَيِّدٍ من مرارة صدودها وغرابة شأنها. وتحري في قوله الكاشف «رَأَتْ رَجُلًا أَغْشَى أَضَرَّرَ بِهِ رَبِّ الْمُرْنَ وَدَهْرٌ مُفْنِدٌ خَلِيلٌ»، أن يكون جملة فعلية مستدلاً فيها فعل ماضي روبيه رؤية رجل ضرير بحدثان خطوب الزمان إلى ضمير غيبة هريرة؛ فبدا قوله الكاشف مَأْخَذَةً عليها أن أضجرها ظاهِرٌ عَجِزَهُ عَنْهَا

ثم قطع فصل الإعراض، واستأنف في فصل الاستلذاذ إسناد طائفة من الصفات الخبيثة مفردة ومركبة أولاًها مركبة جملة المدح الفعلية، إلى ضمير غيبة هريرة المبتدأ المذكوف المفهوم «(هي) نَفَمُ الضَّجْعُ (... )»، على المنهج العربي الأصيل السابق نفسه، وكانها أراد أن تطابق الصفاتُ الصفات؛ فينتسب بعضها بعضاً، ويتنقلُ الطيبُ حُبّها. وتحري في قوله الكاشف «يَصْرَرُ عَهُ لِلَّذَّةِ الْمُرْءَ (x) لَا جَافٍ وَلَا تَقْلُ»، أن يكون جملة فعلية مستدلاً فيها فعل مضارع قسرها على التمعن بها إلى شَيْئِه المذكوف وأن يحتمل المعرف بالـ العهدية «الْمُرْءُ» أن يكون معرفاً بالـ الجنسية؛ فبدا قوله الكاشف كيداً لها بدوام قدرته عليها زماماً طويلاً وينبغي التنبيه على أن كلمة «جافي» غير صالحة للفاعلية؛ إذ لا يتضمن الفاعل «بلا» بعد فعله المثبت؛ فلا أقول مثلاً: «جاء لا زَيْدٌ وَلَا عَمْرُو»، لتناقض آخر هذا الكلام المنفي وأوله المثبت، بل يتضمن الفعل قبل فاعله؛ فأقول مثلاً: «لَا جَاءَ زَيْدٌ وَلَا عَمْرُو» في مثالٍ، و«لَا يَصْرَرُ عَهُ جَافٍ وَلَا تَقْلُ» - فتكون كلمة «جافي» نعتاً للفاعل المذكوف على غير طريقته تَكْرُرْ جَاءٌ<sup>(٣٦)</sup>، فَهِيَ لَهُ من الكلام قبله وبعده؛ «فَإِذَا كَانَ الْكَلَامُ إِنَّمَا يَصْلَحُهُ وَيَفْسُدُهُ مَعْنَاهُ، وَكَانَ هَذَا مَعْنَى صَحِيحًا مُسْتَقِيمًا لِمَ أَرَبَّهُ بَاسًا»<sup>(٣٧)</sup>.

ثم قطع فصل الاستلذاذ، واستأنف في فصل الخيبة إسناد فعل ماضي تعلق حبيبته المبني للمجهول، إلى ضميره ملتفتاً عن احتفال غيبة ذلك التعريف بـالـ العهدية «(... )»

المُرْء (...)) في آخر ذكر سابق لنفسه، إلى حضور هذا التكلم «عُلِقْتُهَا عَرَضاً»؛ فبدا شفقةً بها صفةً لها متولدة من صفاتها التي لم يملك لها دفعاً حين تعرضت له بها. وتحري في قوله الكاشف «كُلُّنَا مُغَرَّمٌ بِهِنْدِيِّ صِصَاجِيَّهُ نَاءُ وَدَانُ وَمَحْبُولُ وَمُخْتَلُ»، أن يكون جملة اسمية مُسندة فيها صفات إغرام المَذَهَنِين وصفات تدابرهم إلى العشاق المذكورين جميعهم؛ فبدا قوله الكاشف قضاةً مُتَصَصِّفِ لِلرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ!

ثم قطع فصل الخيبة، واستأنف في فصل الطمأنينة التنبية على إسناد جملة تأمل السحاب الفعلية المضارعية، إلى اسم استفهم «يَا مَنْ يَرِى عَارِضاً قَدْ يُثْبِتْ أَزْقَبَهُ (...»)، استئارة لصحبه إليه وإشهاداً عليه. وتحري في قوله الكاشف «يَسْقِي وَيَبَرِّأْهَا قَدْ أَصْبَحَتْ عُزْبَيَا زُورَّا مُجَانَّفَةً عَنْهَا الْقَوْدُ وَالرَّسْلُ»، أن يكون جملة فعلية مسندًا فيها فعل مضارع سقِيًّا ديار الحبيبة البعيدة إلى ضمير غيبة ماء العارض؛ فبدا قوله الكاشف لذلة الشَّهْمِ الْخَدِيبِ المطمئن.

ثم قطع فصل الطمأنينة، واستأنف في فصل الرحلة إسناد جملة مخدوفة مفهومة إلى نكرة مبرورة بِرَبِّ المخدوفة المستغنى عنها بواهها ((وَبِلَدَةٍ...»)، فتحير حبيبه: أهيَ بِلَدَةٍ أَمْ بِلَدَاتٍ، وسَفَرَةٌ أَمْ سَفَرَاتٍ؟ ففي ((رَبِّ)) تقليل متواصل غير أنه أهْفَلَ حتى صار استعماله كالمجاز، وتکثير متفرع عن ذلك التقليل غير أنه أهْفَلَ حتى صار استعماله كالحقيقة<sup>۳۰</sup>. ثم حيرها مرة أخرى: أهو سفر الراضي عنها المهموم بحوادث شؤونه، أم سفر الغاضب عليها الماشرب منها؟ فعامل ((رَبِّ)) (جوابها) مخدوف بعقب نعوت مبروعوها مُسْتَغْنَى عنه بما مُقْدَرٌ بفعل ماض كالمذى في ((أَخْلَدَنِي (...))) أو ((شَغَلتَنِي (...))) مثلًا، جوابًا ل الكلام قبل ((رَبِّ)) مقدر بمثل ((ما أَخْلَدْتُكَ مِنْ سَبِيلِكَ أَيْهُ بِلَدَةٍ»)، أو ((ما شَغَلتَكَ عَنْ حَبِيبِكَ أَيْهُ بِلَدَةٍ») مثلًا<sup>۳۱</sup>، يمكن أن يكون قاله للأشعشى صَحْبُهُ. ولقد جَرَيْتُ أَنْ أَجْعَلْ عَامِلَ ((رَبِّ)) (جوابها) هو الفعل الماضي في ((جاَوَزْتُهَا (...))) الجملة المذكورة أخيراً، ثم آثرت أن أقدره مخدوفاً لما وجدت مثل هذا المذكور في كثير من الشعر القديم الذي قدر فيه على قوله عامل ((رَبِّ)) مخدوفاً، ولا سيما في فصل الرحلة كما في لامية الأعشى التي بين يدي؛ فهذا سبوبه يقول: «سَأَلْتُ الْخَلِيلَ عَنْ قَوْلِهِ - جَلْ ذَكْرِهِ - {رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مَنَادِيَ يَنْادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ قَامَنَا رَبَّنَا فَأَفْغَرْنَا ذُلْوَبَنَا وَكَفْرَنَا سَبَّانَا وَكَوْقَنَا مَعَ الْأَئْرَارِ \* رَبَّنَا وَآتَنَا مَا وَعَدْنَا عَلَى رُسُلِنَا وَلَا تُغْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ»، أين جوابها؟ (...)) فقال: إن العرب قد تركت في مثل هذا الخبر [الجواب] في كلامهم، لعلم الخبر لأي شيء وضع هذا الكلام. وزعم أنه وجد في أشعار العرب ((رَبِّ)) لا جواب لها. من ذلك قول الشاعر:

## وَدَوْيَةٌ قَفْرٌ تُمْشِي نَعَامَهَا

كَمَشِي النَّصَارَى فِي خَفَافِ الْأَرْثَدِجِ

وَهَذِهِ الْقُصْبِدَةُ الَّتِي فِيهَا هَذَا الْبَيْتُ لَمْ يَجِدْ فِيهَا جَوَابَ (رُبَّ)، لَعْلَمُ الْمَخَاطِبِ أَنَّهُ  
يَرِيدُ (قَطَّعَهَا)، وَمَا فِيهِ هَذَا الْمَعْنَى»<sup>٣٣</sup>. ثُمَّ رَاجَعَتْ دِيَوَانَ الشَّيَخِ؛ فَوَجَدَتْ هَذِينَ الْبَيْتَيْنِ  
مِنَ الْقُصْبِدَةِ الثَّانِيَةِ:

وَدَوْيَةٌ قَفْرٌ تُمْشِي نَعَاجِهَا  
قَطَّعْتُ إِلَى مَعْرُوفِهَا مُنْكَرَاهَا

كَمَشِي النَّصَارَى فِي خَفَافِ الْأَرْثَدِجِ  
إِذَا خَبَّ أَلَّا أَمْنَزِ الْمُسَوَّجِ»<sup>٣٤</sup>.

وَفِي رَوَايَةِ أُولَئِكَ أَرْبَعَ مَخَالِفَاتٍ لِرَوَايَةِ سِيبُوِيَّهُ، وَفِي أَوَّلِ آخِرِهَا مَا يَغْرِي بِجَعْلِهِ عَامِلَ  
(رُبَّ) (جَوَابِهَا) الَّذِي قَدِرَهُ سِيبُوِيَّهُ. وَقَدْ كَانَ مَحْقُوقُ الْكِتَابِ الْعَالَمَةُ عَلَقَ عَلَى بَيْتِ  
الشَّيَخِ فِي نَصِّ سِيبُوِيَّهُ قَوْلَهُ: «الْمُشَاهِدُ فِي حَذْفِ جَوَابِ (رُبَّ) لِعِلْمِ السَّاعِمِ. وَالْمَعْنَى  
(رُبَّ دَوْيَةٌ قَطَّعْتُ) أَوْ نَحْوُ ذَلِكِ. وَقَدْ رُدَّ عَلَى مَا نَقَلَهُ سِيبُوِيَّهُ عَنِ الْخَلِيلِ مِنْ تَأْوِيلِهِ مِنْ  
حَذْفِ الْجَوَابِ بَأْنَ بَعْدِ الْبَيْتِ»:

قَطَّعْتُ إِلَى مَعْرُوفِهَا مُنْكَرَاهَا  
وَقَذَّخَبَ أَلَّا أَمْنَزِ الْمُسَوَّجِ»<sup>٣٥</sup>.

وَفِي رَوَايَتِهِ مَخَالِفَةً وَاحِدَةً لِرَوَايَةِ الْدِيَوَانِ. وَكَانَ مَحْقُوقُ دِيَوَانَ الشَّيَخِ عَلَقَ عَلَى الْبَيْتِ  
الْآخِرِ قَوْلَهُ: «(قَطَّعْتُ) هُوَ جَوَابُ (رُبَّ) الْمُقْدَرَةِ فِي الْبَيْتِ السَّابِقِ»<sup>٣٦</sup>، أَخْذَا لَا رِبْ فِيهِ  
بِمَا سَبَقَ مِنْ تَعْلِيقٍ مَحْقُوقِ الْكِتَابِ الْعَالَمَةِ. وَلَقَدْ كَانَ تحريرُ الْخَلِيلِ أُخْرَى بِالتأمِلِ مِنْ كَلِمَةِ  
سِيبُوِيَّهُ الَّتِي حَمَلَهُ عَلَيْهَا عَدَمُ رَوَايَتِهِ لِلْبَيْتِ الْآخِرِ؛ فَلَوْ قَدْ رَوَاهُ لَعِرْفُ أَنَّ عَامِلَ (رُبَّ)  
(جَوَابِهَا) شَيْءٌ وَرَاءَ (قَطَّعْتُ) وَمَا فِي مَعْنَاهُ، يَبْتَدِئُ بِطُولِ تَأْمِلِ سِيقِ الْكَلَامِ، اجْتَهَدَ أَنْ  
أَتَبِعَهُ فِيَا سَبَقَ. وَلَقَدْ تَحْرَى الْأَعْشَى فِي قَوْلِهِ الْكَاشِفِ «جَاؤَهُمَا بِطَلَبِيْجِ جَسْرَةِ شُرُّحِ فِي  
بِرِّ فَقَيْهَا إِذَا اسْتَعْرَضَتْهَا قَلْلُ»، أَنْ يَكُونَ جَلَةُ فَعْلِيَّةٍ مُسْتَدِّيَّةً فِيهَا فَعْلٌ مَاضِيٌّ مُجاوِزَةُ الْبَلَدَةِ  
بِنَاقَةٍ شَدِيدَةٍ إِلَى ضَمِيرِ تَكْلِيمِهِ؛ فَبِدَا قَوْلُهُ الْكَاشِفُ عَلَمَةً بِهِجَةِ الْبَرِّيِّ بِنَهْضَةِ الْعَافِيَّةِ!  
ثُمَّ قَطَعَ فَصْلَ الرَّحْلَةِ، وَاسْتَأْنَفَ فِي فَصْلِ التَّلَهِيِّ تَرتِيبَ تُوكِيدِ إِسْنَادِ ثَبَاتِ الْأَخْلَاقِ  
فِي أَنْتَهِ التَّقْلِبِ بَيْنَ حَالِي الْبُؤْسِ وَالنَّعْمَةِ إِلَى ضَمِيرِ تَكْلِيمِهِ، عَلَى إِسْنَادِ رَوْيَتِهِ بِائِسَ إِلَى  
ضَمِيرِ خَطَابِ حَيْبِيَّتِهِ (إِمَّا تَرَكَنَا حُفَّةً لَا يَعْالَمُ لَنَا إِنَّا كَذَّلِكَ مَا تَحْفَى وَتَسْتَعِلُ)، سَخِيرَةٌ  
مِنْ غَفْلَتِهَا بِالظَّاهِرِ عَنِ الْبَاطِنِ الْخَصْلَةِ النَّسَانِيَّةِ الْأَزْلِيَّةِ الْأَبْدِيَّةِ. لَقَدْ زَادَ (مَا) عَلَى (إِنْ)

في ((إما)) مؤكداً حال ابتسامه التي رأته عليها غير متبرئ منها، ولكنه زادها على ((تحفى وَتَسْتَعِلُ)) مرة أخرى في جواب الشرط بعد أن كان حذف فاء ربط الجواب بالشرط والأداة، مؤكداً أنه هو على رغم التقلب بين البوس والنعيم، ولكنها لا ترى ما ينبغي أن ترى<sup>٢٩</sup>. وتحرى في قوله الكاشف ((في التجارب طول اللهو والغزل)), أن يكون جملة اسمية مستنداً فيها شبه جملة حرفي مقدم يحتمل حرفة ((في)) طرورة معنى ((من)) التبعية على أصل معنى الظرفية فيها<sup>٣٠</sup>، إلى مضاف إلى معرف بأـل الجنسية مؤخر؛ فبدا قوله الكاشف نصيحة المستغنى.

ثم قطع فصل التلهي، واستأنف أخيراً فصل الوعيد (الرسالة).

### ما وراء تفصيل جرير وتوصيله

[٢٩] وأما جرير فتضاعفت حبيبته وتذلل وأدار عليها أكثر فصول الثاني؛ فلم يخلص لنفسه غير فضلي الرسول والذكرى اللذين بدا في أولها حريصاً على حاضر علاقته بحبيبته وفي الآخر حريصاً على ماضيها، وأما فصل الرحالة فقد كان شركة بينهما، وأما فصول البين والمكيدة والوجود والخيال فقد أخلصها لحبيبته ترى فيها وتفعل ما يuido لها، وأما فصل الوعيد فلم يكن من باب تحازن العشاق الذي استوى على فصول الثاني، بل من بابه المهجاء الذي استوى على فصل الرسالة، ولكن ما يأتي من دلالته على استواء التمكّن من الخبرية وصدارة الشعراـء، يميز قصيده بوقوع هذا الفصل منها في منزلة بين منزلتي الثاني والرسالة.

### تفصيل مباني جرير وتوصيلها

[٣٠] لقد استهل قصيده في فصل البين بإسناد فعل ماضي البـين إلى معرف بأـل العهدية صفة على قـليل بمعنى **مـفاعـل** أو **مـفـاعـل** مستغنى بها عن الموصوف (الحبيبة) المفهوم ((بانـ الخـلـيطـ)); فإنه ((إذا كانت المـفـاعـلة بينـ اثـيـن جاءـ كلـ وـاحـدـ مـنـهـاـ عـلـىـ (ـقـليلـ))) كما جاء على **مـفـاعـلـ»**، دلالة على **الـمـازـجـةـ** السابقة بين حبيبته وبين الدار وبينها وبينه، ثم على مبلغ الضـرـرـ الحـادـثـ بـتعـطـيلـ الـبـينـ لـطـبـانـ الـأـحـيـاءـ. وتحـرىـ فيـ قـولـهـ الكـاـشـفـ ((ـلاـ تـبـتـغـيـ بـدـلـاـ بـالـدـارـ دـارـاـ وـلـاـ بـالـجـيرـاـنـ جـيرـاـنـ))ـ،ـ أـنـ يـكـونـ جـلـةـ فـعـلـيـةـ مـسـنـدـاـ فـيـهاـ فـعـلـ مـضـارـعـ إـرـادـةـ بـتـبـيـلـ الـدـارـ وـالـجـارـ المـنـفـيـ إـلـىـ ضـمـيرـ تـكـلـمـهـ،ـ مـشـتـمـلـةـ عـلـ ظـاهـرـةـ يـسـمـيـهاـ النـحـاةـ ((ـالـعـطـفـ عـلـ مـعـمـولـيـ عـاـمـلـيـ مـخـتـلـفـيـ))ـ؛ـ فـقـدـ كـانـ يـنـبـغـيـ فـيـ التـرـكـيبـ أـنـ يـكـونـ ((ـلـاـ تـبـتـغـيـ بـدـلـاـ بـالـدـارـ دـارـاـ وـلـاـ بـالـجـيرـاـنـ جـيرـاـنـ))ـ بـحـيـثـ يـكـونـ ((ـبـالـجـيرـاـنـ))ـ مـعـطـوـفـاـ عـلـ ((ـبـالـدـارـ))ـ

وـ«جِرَانَا» معطوفاً على ((داراً))، وكل المعنون على عدده من معمولات ((تَبَغِي)) المنفي؛ فلما حذف الباء من ((الجِرَان)) المجرور كان هو وحده معطوفاً على معمول الباء ((الدار))، وـ«جِرَانَا» على حاله؛ فكان الكلام ملتبساً ممتنعاً على العموم عند طائفة من النحويين، ولتبساً غير ممتنع على العموم عند طائفة أخرى، وغير ملتبس ولا ممتنع متى كان على النحو الواقع في عبارة جِرَرِ الْأَنْفَة عند طائفة ثالثة من النحويين، لتساوي الكلام وتوازنه وجري آخره على قوله ((أُولَئِكَ))؛ فبدا قوله الكاشف شهادة حالة الصادقة على حقيقة إيمانه بمعنى امتزاج الأرواح الثلاثة امتزاج الصور وراء الحقيقة الواحدة!

ثم قطع فصل البين، واستأنف في فصل الرسول بعد دعوة من لم يعبأ بتعريفه لنا إلا بصفتين معيتين ((يا أَيُّهَا الرَّاكِبُ الْمُزَجِيْ مَطْيَّتَهُ)) حرصاً على ألا يُعْتَدَّه، إسناد فعل أمر التبليغ على جهة الرجاء إلى ضمير خطاب المدعا ((بَلْغْ تَحْتَنَا)), موقعاً الرجاء على ظُهُوره مضافة إلى ضمير تكلمه، تبيّن له على أنه لن يضره جوابها؛ فما على الرسول إلا البلاغ. وتحرى في قوله الكاشف ((هَيَّاهُتْ مِنْ مَلَحِيْ بِالْغَوْرِ مُهَدَّانَا)), أن يكون جملة فعلية مستنداً فيها اسم فعل البعد عن دار الخيبة الحديثة إلى اسم مكان الإهداء دارها القديمة التي عهدها وعهدتها، المضاف إلى ضمير تكلمه؛ فبدا قوله الكاشف بِؤْحاً من مصدح عاجز عن رأب صُدُوعِهِ!

ثم قطع فصل الرسول، واستأنف في فصل المكيدة إسناد فعل ماضي قول الإغراء باللقاء إلى ضمير غيبة حبيبته ((قَالَتْ أُمِّ بِنًا (...))), مباعدة لها منه قليلاً حتى يثبت عليها علامات المكر به. وتحرى في قوله الكاشف ((ضَنَثْ بِمَوْرَدَةٍ كَائِنَتْ لَنَا شَرَّعًا تَشْفِي صَدِيْ مُسْتَهَامِ الْقَلْبِ ظَمَانًا)), أن يكون جملة فعلية مستنداً فيها فعل ماضي الضن بالطريق المشترك إلى ماء الحياة، إلى ضمير غيبة حبيبته<sup>٣٣</sup>؛ فبدا قوله الكاشف استنكاراً شديداً لجهلها حقيقة معنى الامتزاج الذي آمن به.

ثم قطع فصل المكيدة، واستأنف في فصل الوجد إسناد اسم الاستفهام عن الميالة إلى معرف بأــالــعــهــدــيــةــ: ((كَيْفَ تَلَاقَيْ (...))), اعتذاراً عن كمده اللاحق؛ فقد امتنعت عليه في السفر بينها وفي الحضر يمكرها. وتحرى في قوله الكاشف ((لَمْ تَلْقَ بَعْدَكُمْ كَائِنِيْرِيْ عِزْقَا وَلَا الشَّلَانِ سُلَانَا)), أن يكون جملة فعلية مضارعية مستنداً فيها فعل مضارع لــقــيــاــ شــيــبــهــ الدــارــ المــنــفــيــ ((بــلــمــ))ــ إلى ضمير تكلمه، مشتملة على ظاهرة ((العطف على معمولي عاملين مختلفين)) السابقة ودلالاتها نفسها؛ فبدا قوله الكاشف ثُدْبَةً نَدَبَ بها أحد عناصر ذلك المزاج المركب الثلاثة!

ثم قطع فصل الوجد، واستأنف في فصل الخيال إسناد فعل ماضي الطيران مع خيال الخيبة إلى معرف بأــالــعــهــدــيــةــ: ((طَارَ الْفَوَادُ مَعَ الْخَرُودَ الْأَيْ طَرَقَتْ فِي النَّرْ (...))), دلالة

على شدة تعلقه بها وضيّعه نصبيه منها. وتحرى في قوله الكاشف ((لا ذئياً كذُنِيَنا)), أن يكون جلة اسمية منسخة ((بلا)) النافية للجنس، مستدلاً فيها شبه جلة حرف تشبيهي إلى اسم نكرة؛ فبذا قوله الكاشف علامه ابوعاث ذلك الكائن الواحد العجيب المثلث الأرواح

ثم قطع فصل الخيال، واستأنف في فصل الرحلة إسناد فعل ماضي لقباً أي شيء من الحبيبة مجهول مستفهم عنه تأفيلاً له، إلى ضمير خطابه على التجريد تفجعاً وتوجهاً ((ماذا لقيت من الأطعana (...)), دلالة على سوء رأيه في الرحلة المضطرب إليها. وتحرى في قوله الكاشف ((قد قطعت بينَ السَّلْوَطَحَ وَالرَّوْحَانَ صَوَانَا)), أن يكون جلة فعلية مستدلاً فيها فعل ماضي قطع الأرض بين الدار التي عهده وعهده حبيبته وبين غيرها إلى ضمير غيبة التوق الراحلة به وبصحبه؛ فبذا قوله الكاشف بــ((آخراً آخر من مصدّع عاجز عن رأب صُدُوعه بعد قوله الكاشف السابق في فصل الرسول؛ فلم يزدد بالرحيل الذي لم يكن من رأيه إلا صدوعاً؛ فهو في السفر كبوحه في الحضر! ولقد يتبيني أن يكون ثم نعمت مخدوف دل عليه سياق الكلام من قبل ومن بعد ولا سيما إذا أخرين إلقاؤه على مثلثيه<sup>٣٣</sup>، تقديره ((صَوَانَا لَمْ يَكُنْ يَبْغِي أَنْ يَنْقُطِعَ)) أو ((صَوَانَا فِي قَطْعِهِ قَطْعَ رَجِينا الْوَاسِحةَ)) أو ما إليهما مما يناسب المراد المفهوم، ولا سيما أن الصوان حجارة يُفتح بها أو حجارة سود ليست بصلة<sup>٣٤</sup>، ولا غباء بهذا وحده في هذا المقام.

ثم قطع فصل الرحلة، واستأنف في فصل الذكرى إسناد جلة المدح الفعلية الماضوية المقدمة إلى مضاف إلى عَلَمٍ مؤخر ((يا حبذا جبل الريان من جبل)), شوقاً واضحاً إلى معهد الصبا الذي مُكِنَّ في حاء من حبيبته، واهتززاً ظاهراً للذكرى الحبيبة بأداة التنبية ((يا)) التي تحتمل نداء مخدوف مفهوم، عموم حذفه أتفق في الدلالة على المعنى المراد من خصوص ذكره. وتحرى في قوله الكاشف ((كُنْتُ شَيْطَانًا)), أن يكون جلة اسمية منسخة ((بكان)) مستدلاً فيها صفة مفردة نكرة إلى ضمير تكلمه أسفما على سوء الحال وضيّعه المال، مشهوراً في العرب عن الشیوخ حتى سموا الشیوخ ((كُنْتِيًّا)) بكثرة قوله: كُنْتُ كذا<sup>٣٥</sup>!

ثم وصل غضبه؛ فعطف في فصل الوعيد إسناد فعل مضارع ادْرَأَ أي شيء منه ((اختاليه)) مجهول مستفهم عنه استنكاراً له إلى مضاف إلى معرف بأي الجنسية ((ما يَدْرِي شُعَرَاءُ النَّاسِ (...)), على شبيهه في فصل الذكرى ((مَنْ ذَا الَّذِي ظَلَّ يَغْلِي أَنْ أَزُورَكُمْ)) - وإن اعترض بينهما بالدعاء - بأداة عطف محددة مفهومه؛ فدل على أن شعراً الناس الحائلين دون التسليم له بالصدارة هم وقربت حبيبته الحائل دون تمكينه من لقائها سواءً لديه في الخصومة، وتسليمهم له بالصدارة وتمكينه له من حبيبته سواءً لديه في القصد؛

فقصيده وحيبيه والدار التي عهدته وعهدتها صور سواه تثوب كها سبق إلى حقيقة واحدة! وتخرى في قوله الكاشف ((قَدْ حَذَّرُوكُمْ مَثْنَى وَوُحْدَانًا)), أن يكون جملة فعلية مسنداً فيها فعل ماضي سوق الشعرا مجتمعين متقويا كل واحد منهم بغيره ومنفردین مكتفيا كل واحد منهم بنفسه، إلى ضمير تكلمه؛ فبذا قوله الكاشف وصمة العار التي لن تزول عنهم تشنيعاً عليهم وتسعيماً بهم!  
ثم قطع فصل الرعيد، واستأنف أخيراً فصل النم (الرسالة).

### افتراضات مفاصل الفصول

[٣١] لقد فصل الشاعران فصول التأي بقطع تركيب أول لاحتها من تركيب آخر سابقها واستئناف تركيب أول لاحتها بعد تركيب آخر سابقها، وهو الإفتراض عند القدماء، ((وَذَاكَ أَنْ يَقْطَعَ الشَّاعِرُ كَلَامَهُ الَّذِي هُوَ فِيهِ، وَيَسْتَأْنِفَ كَلَامَهُ أَخْرَى غَيْرَهُ مِنْ مَدِيجٍ أَوْ هَجَاءٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، وَلَا يَكُونَ لِلتَّأْنِي عَلَاقَةٌ بِالْأَوَّلِ، وَهُوَ مَلْعُوبُ الْعَرَبِ وَمَنْ يَلْبِيهِمْ مِنَ الْمُخْضَرِ مِنْ))<sup>٢٠٣</sup>، ولا ريب في أن اقتضاب التراكيب يعين الشاعر على تفصيل الفصول، ولكن الريب في زعم انقطاع علاقة آخر الكلمات فيه بالأول من أجل تجاور آخر تراكيب السابق وأول تراكيب اللاحق بالاستئناف وعدم تداخلها بالعاطف وما أشبهه؛ فإنها لا تتقطع، بل تخفي صلتها على المتعجل، ثم الريب في وقوفه عند الجاهلين (العرب) والمخضرمين؛ فإنه لم يقف عندهم، بل ((الإفتراضات الواردة في الشعر أكثر من أن يُحصى))<sup>٢٠٤</sup>، وهذا جرير الإسلامي الأموي قد جرى منه مجرى الأعشى الجاهلي.

وينبغي الا يخرج من ذلك الافتراض إلى التخلص ما كان وصلاً وعطفاً على مثل ما فعل جرير بتركيب آخر فصل الذكرى وأول فصل الرعيد من عطف هذا على ذاك؛ فإنه قد أخرج الوصل والعاطف خرج القطع والاستئناف بحذف العاطف والاعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه حتى ليكاد المتأمل يذهل عنه، ثم إن التخلص عند القدماء إضافة بعض ما يخص الفصل اللاحق إلى طرف الفصل السابق؛ ((أَنْ يَأْخُذَ مُؤْلَفُ الْكَلَامِ فِي مَعْنَى مِنَ الْمَعْنَى، فَيَبْتَهَا هُوَ فِيهِ إِذَا أَخْدَى فِي مَعْنَى أَخْرَى غَيْرِهِ، وَجَعَلَ الْأَوَّلَ سَيِّسًا إِلَيْهِ؛ فَيَكُونُ بَعْدُهُ أَخْدَى بِرْقَابِ بَعْضِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَقْطَعَ كَلَامَهُ وَيَسْتَأْنِفَ كَلَامَهُ أَخْرَى، بَلْ يَكُونُ جَمِيعُ كَلَامِهِ كَائِنًا أَفْرَغَ إِفْراغًا وَاحِدًا، وَذَلِكَ مَا يَدْلُلُ عَلَى جَذْقِ الشَّاعِرِ وَقُوَّةِ تَضُرُّفِهِ))<sup>٢٠٥</sup>. ولقد أحسن الشاعران إذا اقتضبا ولم يخلقا؛ فخلقا قصيدينهما من إضافات تتقطع أكثر مما توصل؛ فلم يبدلي في كثير من عبارات التخلص المعروفة، غير كثير من علامات التكلف المنكرة!

## ما وراء الأقوال الكاشفة

[٣٢] ثم قد أكثَرَ الشاعران للملقين وراء مفاصل فصول الثاني كما سبق في الفقر [٢٥، ٢٨، ٢٦، ٣٠]، أقوالاً معينة مختلفة، ترددت في أنفسها من قبل تكوين أي فصل حتى استقرت في مواضعها، ثم ابنت عليها فصوصها حتى صارت محاور نفسية دارت عليها، كفيلة كلها تأمُلُوها أن تكشف لهم طرقاً جديدة من مسيرةٍ تُنكِّيرُها، أو ازان بعضها ببعض فيما يلي:

ف	الأعشى	حرير
١	إذ الراكب مزغبي	لاتبني بدلاً بالتلار هازاً ولا الجيران جيراناً
٢	لست عشن يذكر؛ الجيران ملئتها	قيهات مبن مثلث بالفقر مهدئاً
٣	رأث رجلأ أعشى أثغر به زنب المثرون وتفتر مثيذ شبل	شتت مسرورة كثث أنا ثرثعاً أشفي صدى مشتمل القلب صدماً
٤	يعذرها للثانية لا جاف ولا نجوى	لم تلقي بعذمك عالمي عزقاً ولا شلان شلاناً
٥	كثنا مفرم بيدي بصاحبه ناد ودان وغبرول وغتيل	لا دنياً كثنياً
٦	يشفي دياراً ما قد أسبحت عزباً زوراً لجائب عنها الفرد والوسل	قد قطعت بين السطوطين والرُّوحان صواباً
٧	جاوزتُم بطالبي حسنة مُريخ لي مركبها إذا اشترطتها قتل	كُثُتْ كيطةاً
٨	في التجارب طول اللهو والتزل	قد خذلهم مشى ووحداناً

ينبغي التنبيه أولاً على خفة وطأة العمل بفصوص الثاني على الشاعرين؛ فعلى حين انقسمت أجزاء الفصل على فقرتين في فصلي الرسالة، التأمت على فقرة واحدة في فصوص الثاني، ثم على حين اكتشاف في فصل الرسالة مراد الأعشى بقولين كاشفين في ستة أبيات ومراد حرير بقولين كاشفين في ثلاثة أبيات، اكتشاف في كل فصل من فصوص الثاني مراد الأعشى بقول واحد في بيت واحد مرتين اثنتين (سادساً وسابعاً)، وفيها يجوز بيتاً مخروماً عالجه الشاعر عندما سلكه في موضعه من فصله بإضافة الفاء إلى أوله مرة واحدة (خامساً)، وفي شطر واحد مرة واحدة (ثانية)، وفيها يجوز شطرًا مخروماً عالجه الشاعر عندما سلكه في موضعه من فصله بإضافة الواو إلى أوله مرة واحدة (ثامناً)، وفي أطول من شطر وأقصر من بيت مرتين اثنتين (ثالثاً ورابعاً)، وفي أقصى من شطر مرة واحدة

(أولاً) - ومراد جرير بقول واحد في بيت واحد مرة واحدة (ثالثاً)، وفي شطر واحد مرة واحدة (ثانية)، وفيها يجوز شطراً خرولاً عالجه الشاعر عندما سلكه في موضعه من فصله بإضافة الفاء إلى أوله مرة واحدة (ثامناً)، وفي أطول من شطر وأقصر من بيت ثلاث مرات (أولاً ورابعاً وسادساً)، وفي أقصر من شطر مرتين اثنتين (خامساً وسابعاً). ولا تخلو زيادة أقوال الأعشى الموزونة بيّناً وشطر بيت جيّماً معًا وهي خمسةٌ، على أقوال جرير الموزونة بيّناً وشطر بيت جيّماً معًا وهي ثلاثةٌ - من دلالة على غنائية الأعشى السابق ذكرها في الفقرة [٥]؛ فقد كان أكثر انجذاباً في محاور بناء فصوله إلى الأقوال الموزونة، فأما جرير فقد كان أكثر تعويلاً على روافد السياق الذي سيضع فيه تلك المحاور.

ثم ينبغي التنبيه آخرًا على دوران أقل أقوال الأعشى الكاشفة عليه هو حتى إذا ما استقرت في مواضعها وابتنت عليها فصوتها دار أكثرها عليه هو، والتنبيه على دوران أكثر أقوال جرير الكاشفة عليه هو بصور مختلفة حتى إذا ما استقرت في مواضعها وابتنت عليها فصوتها لم يدر عليه غيرُ أقلها!

أما الأعشى فقد كان قوله الأول مثلاً مطلقاً من قيد الجهة، حتى إذا ما أضيف إلى ((وَدْعَ هُرَيْرَةَ)) انصرف إلى الاستئناف عنه وصار المعرف بأي فيه ((الرَّكْبَ)) إلى العهدية التي تتبّع فيها آل عن ضميره؛ فإن ((الرَّكْبَ)) ركبٌ<sup>٢٠</sup> - وكان قوله السادس متوجهاً إلى ضمير غيبة الغيث، حتى إذا ما أضيف إلى قوله ((حَتَّى تَحْمَلَ مِنْهُ الْمَاءَ)) انصرف إلى الحال من الماء المستفاد من النيث المعنوت في جواب صحب الأعشى طلبَةً - وكان قوله الشامن مطلقاً من قيد الجهة، حتى إذا ما أضيف إلى ((مِنْ كُلِّ ذَلِكَ يَوْمَ قَدْ مَكُورُ بِهِ)) انصرف إلى الحال من ضمير تكلمه وصار المعرفات بأي فيه ((التجارِبُ، الْهُوَرُ، التَّرَلُ)) إلى العهدية التي تتبّع فيها آل كذلك عن ضميره.

وأما جرير فقد كان قوله الأول مثلاً متوجهاً متوجهها إليه، حتى إذا ما أضيف إلى ((حَيُّ الْمَازِلَ)) انصرف إلى الاستئناف عنه خصوصاً لسيطرة دار الحببية البائنة التي عهدها وعهدتها - وكان قوله الرابع متوجهاً إليه، حتى إذا ما أضيف إلى ((تَهْوِي تَرَى الْعِرْقَ)) انصرف إلى الاستئناف عنه خصوصاً كذلك لسيطرة دار الحببية البائنة التي عهدها وعهدتها - وكان قوله الخامس متوجهاً إليه، حتى إذا ما أضيف إلى ((طَارَ الْفُرَادُ مَعَ الْخُزُودَ الَّتِي طَرَقَتْ فِي النَّوْمِ (...))) انصرف إلى الاستئناف عنه اندفاعاً بوجه الوصال.

لقد استأنف الشاعران مثلاً قوليهما الكاشفين الأولين استئناف تعلييل عن جملتين

طلبيتين:

القول الكاشف اللاحق	أدلة التعليل	الجلسة السابقة
إنَّ الرَّبْتَ مُرْكَبٌ	إذ	وَدَمْ هُرِبَةً
لَا يَتَّسِعُ بِدَلَّالِ التَّارِدَادِ لَا جَيْرَانَ جَرِيَّاً	إذ	حَمْ المَازِلَ

وكان قول الأعشى منها مطلقاً من الاتجاه إليه، وقول جرير مقيداً بالاتجاه إليه، ولكن لما كان الأعشى بادئاً بائناً مستغنى بالسفر، وجرب جرير مبدواً مبيناً عنه متمسكاً بالبقاء، وبجرت حال كل منها على ما يؤثره لأقواله الكاشفة عن وعي منه أو غفلة - تقييد مطلق الأعشى وأطلق مقييد جريراً

ولا ريب لدى الآن في علاقة ما انتهجه كلاً الشاعرين في فصول الثاني، بما انتهجه في فصل الرسالة؛ فإنه لما لان الأعشى يوعده في فصل الرسالة قساً بتحارُبِه في فصول الثاني، ولما قسا جرير بذلك في فصل الرسالة لان بتحارُبِه في فصول الثاني؛ عسى أن تعتدل عند متلقى كلتا قصصتيهما جميعاً كيفتَا ميزانها؛ فتفوز بقبوهم الذي يكفل لصاحبها بلوغها مبلغها

## خاتمة

[٣٣] لم يخل اشتغالى بمحققى مقالة أبي عمرو بن العلاء - رضي الله عنه! - هذه التفيسة: «نظير الأعشى» في الإسلام بجرير، ونظير النابغة الأخطل، ونظير زهير الفرزدق»<sup>١٠٠</sup>، من إجلال لما في موازنة الكلام العربي بعضه ببعضه من دعوة خالدة إلى بحث نحوى راسخ شامخ، لا يتناهى في آية الجهتين إلى غاية، بل يتراحب كلما سار فيه النحويون، نافياً عنهم خوفهم من تقاد مسائل البحث وتكرارها الذي ي恐رّ لهم، واقفاً غيرهم على جلال ما يعملون لهذه الثقافة العربية الإسلامية المشرفة المضيّعة؛ فاخترت لهذا البحث شعر أول أزواج الشعراء المذكورين بمقالته (الأعشى وجبرير).

ثم لما وجدت كلا الشاعرين قد فصل قصيده إلى فصل للرسالة صنعه أولاً ووضعه آخرًا وفصل للتأني صنعها آخرًا ووضعها أولاً، قدمت النظر في فصل رسالتها؛ فانتبهت إلى اجتماعها عليها، ثم إلى افتراقها في مقدارها، ثم إلى اجتماعها على إطار أجزائهما، ثم إلى افتراقها في ذكر خصيميهما، ثم إلى اختصاص الأعشى بتقديم اسم رسالته قبل أجزائهما، ثم إلى اجتماعها على أقسام أجزائهما، ثم إلى افتراقها في أنصبة أصحابها، ثم إلى افتراقها في تتابع أقسامها، ثم إلى افتراقها في أزمان أجزائهما، ثم إلى اجتماعها على ما تتصدر فيه ضميرتكلمهما من أجزائهما، ثم إلى اجتماعها على تنقير قضيبيها، ثم إلى اجتماعها على أعداد الفقر ومقاديرها، ثم إلى افتراقها في منازل الفقر، ثم إلى افتراقها في تراكيب حماور الفقر - وأخرت النظر في فصول التأني؛ فانتبهت إلى اجتماعها على التأني بتحاذن العناق، ثم إلى افتراقها في تفصيل المعانى وتوصيلها، ثم إلى افتراقها في تفصيل المباني وتوصيلها، ثم إلى اجتماعها على اقتضاب مفاصل الفصول، ذلك كله على النحو التالي في الجدول:

مسائل الافتراق	مسائل الاجتماع	م
مقدار الرسالة	تفصيل القصيدة	١
ذكر الخصم	إحاطة الرسالة	٢
تقديم اسم الرسالة	تقسيم أجزاء الرسالة	٣
أصحاب الأقسام	تصدر المتكلم	٤
تابع الأقسام	تقدير فصل الرسالة	٥
أزمان الأجزاء	الفقر وأياتها	٦
منازل الفقر	التأني بتحاذن العناق	٧
حماور الفقر	اقتضاب مفاصل الفصول	٨
تفصيل المعانى وتوصيلها	تفصيل المباني وتوصيلها	٩

لقد ظهرت بين الشاعرين مسائل جامدة، ربيا كانت وراء مقالة أبي عمرو بن العلاء، رضي الله عنه! ولكن ثم مسائل أخرى فارقة ظهرت على تلك المسائل الجامدة، ربيا كانت وراء بقائها جميعاً في العربية شاعرين كبارين، حتى قال يحيى بن الجون العبدي راوية بشار: «تَخْنُ حَاكَةُ الشِّعْرِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ، وَتَخْنُ أَعْلَمُ النَّاسِ بِهِ». أَغْشَى قَيْسَ نَنْ تَغْلِبَةً أَسْنَادُ الشُّعْرَاءِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَجَرِيرُ بْنُ الْحَطَّافِيُّ أَسْنَادُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ»<sup>١٠٣</sup>

## حواشي الفصل الثالث

١ ابن سلام: ٦٦ / ١.

٢ السابق: ١ / ٦٥؛ فقد نقل عن أصحاب الأعشى احتجاجهم له بأنه «أكثركُمْ عروقًا»، وهو ما فسره في حاشية الصفحة نفسها أستاذنا محمود محمد شاكر - رحمه الله! - بقوله: «يعني كثرة أوزانه واحتياطها، وكذلك تجده شعر الأعشى».

٣ ضيف: ٣١٧ - ٣٢٤.

٤ الأصفهاني: ٩ / ٣٢٢٩، وابن منظور: صنح.

٥ وفي ذلك قوله - الأعشى: ٥٩ -

«وَمُسْتَجِيبٌ لِحَمَالِ الصُّنْحِ يَسْمَعُهُ إِذَا تَرْجَعُ فِيهِ الْقِبَةُ الْفَضْلُ  
مِنْ كُلِّ ذَلِكَ يَوْمٍ قَدْ مَكُرْتُ بِهِ وَفِي التَّجَارِبِ طَوْلُ الْلَّهُو وَالْغَزَلُ».

٦ وفي ذلك قوله - جرير: ١٦٥ / ١ -

«أَقْلَلَ يَرِيجَعُنَّ وَأَئْتَنَ الدُّفُرَ مُرْجِعَهُ عَيْنِهِ طَالَّا اخْتَلَّ وَمَا لَانَا  
أَزْمَانَ يَدْعُونَنِي الشَّيْطَانَ مِنْ غَرْبِي فَكُنْ يَهْوَيْنِي إِذْ كُنْتُ شَيْطَانًا».

٧ البحراوي: ٥٦.

٨ الأعشى: ٥٥ - ٦٣، وربما ظنَّ حسناً أن أقدم هذه القصيدة بشرح بعض مفرداتها، ولكنني استحسن ألا أفعل؛ فربما أفسدتها تقديم مثل هذا الشرح، ولا سيما أن سياق البحث كفيل به.

٩ أكتب الآيات متصلة الأشعاع بلا ياض بين صدورها وأعجازها، إلا الآيات المصرعة أو المقفاة الواضح قصد الشاعر فيها إلى الوقف على أحوازها تشبيها لها بضرورها - أخذنا بها رأيه من أصالة انتقاماً في عمل الشاعر وحداثة انتقاماً في عمل المروضي، على ما أغربنا أستاذنا محمود محمد شاكر - رحمه الله! - بمثل قوله - شاكر: ٦٥ - ٦٦: «جريت في هذه المقالات (نمط صعب ونمط خفيف) على كتابة بيت الشعر سطراً واحداً، ليس بين المصنعين ييأس، كما ألفنا فيما نشره من الشعر، هذا، والقدماء كانوا يكتبون الشعر كذلك سطراً واحداً متصلًا في جميع المخطوطات القديمة»، وإن لم يجر هو نفسه على ذلك في كثير مما أخرج، فربما خالفه الطابع إلى ما ناه عنه، ولا سيما أنني سمعته يشكرون كثرة أخطاء طباعة كتبه على رغم شدة عنایته بتدقيقها!

١٠ قسمت هذا الفصل على فترته وجلها، ورقمتها، تمهدًا لبحثها فيما يأتي، تحبباً للتطویل بإعادة ذكرها:

١١ جرير: ١ / ١٦٧ - ١٦٠، وكذلك استحسن ألا أفسد هذه القصيدة بتقديم شرح بعض مفرداتها.

١٢ وكذلك قسمت هذا الفصل تمهدًا وتحبباً.

١٣ ابن يعيش: ١ / ٤٤ - ٤٥.

- ١٤ ابن دريد: ٣٣٨-٣٣٩، وكذلك ١٠٦.
- ١٥ الجملة في هذا البحث مركبة لفويّة من عصرين مؤسسين بينهما علاقة إسناد، ربيا انضافت إليها أو إلى أحد هما عناصر مكتملة (متسلقات)، وربما انضافت إلى تلك العناصر كلها أو إلى بعضها عناصر أخرى ملؤية (أدوات).
- ١٦ يدل على ذلك تأمل ديوانه، ولا سيما عينيه -الأعشى: ١٠١-: «بائت شعاع وأمسى حبنها انقطعاً واحتلت الغنائم فابنيين فالفرعا»، ودالبه -الأعشى: ٢٢٧-: «أتوى وأقصر نيله ليزوداً ومضى وأخلف من قبيلة موعداً».
- ١٧ الرضي: ٣٣٩/٢.
- ١٨ حسن: ٤/٤٨٤.
- ١٩ البغدادي: ١١/٤٦٦، وقد نبه محققه العلامة في حاشية الصفحة، على علاقة كلمة جريبر بآية سورة البقرة.
- ٢٠ ابن عصفور: ١١٩ وما بعدها.
- ٢١ ابن قيبة: ١/٤٦٦، وقد نبه محققه العلامة في حاشية الصفحة، على علاقة كلمة جريبر بآية سورة البقرة.
- ٢٢ البقرة: من الآية ١٩٤.
- ٢٣ ابن هشام: ١/٦٤.
- ٢٤ البقرة: من الآية ١٠٢.
- ٢٥ ابن منظور: شري.
- ٢٦ السابق: قسم، وضمير.
- ٢٧ السابق: خرز.
- ٢٨ صقر: ١٠٥-١٠٦.
- ٢٩ الجرجاني: ١٧١-١٧٢.
- ٣٠ حسن: ٣/٤٤٩٤، ومن ثم جعلوا من شروط حذف المعنوت صلاح نعته لما شرطه عامله إلا إذا كان المعنوت بعض كُلِّ سابق مغيره «بمن» أو «في»، وليس منه معنوت الأعشى!
- ٣١ ابن جنبي: ٤٢٥/٢، على رغم بيانه شدة القول بحذف الفاعل عند كثير من التحورين.
- ٣٢ الرضي: ٣٣٠/٢.
- ٣٣ ابن يعيش: ٨/٢٩.
- ٣٤ سيبويه: ٣/١٠٣-١٠٤.
- ٣٥ الشماخ: ٨٣-٨٤.
- ٣٦ سيبويه: ٣/ حاشية ص ١٠٤.

- ٣٧ الشياخ: حاشية ص ٨٤.
- ٣٨ ابن هشام: ١١/٢، فقد اتبه إلى زيادة «ما» في هذا البيت مرتين.
- ٣٩ ابن هشام: ١٤٤/١ - ١٤٦.
- ٤٠ البغدادي: ١٥٧/٧.
- ٤١ ابن الحاجب: ١٣٤/١، وابن هشام: ١٠٢/٢.
- ٤٢ ابن منظور: ورد، شرع؛ فقد أشار إلى معنى الطريق إلى الماء الذي في «مَوْرِدَة»، ومعنى التساوي في الحق الذي في «شرع».
- ٤٣ ابن جني: ٢/٣٧٢ - ٣٧٣.
- ٤٤ ابن منظور: صون.
- ٤٥ السابق: كون.
- ٤٦ ابن الأثير: ١٢١/٣.
- ٤٧ السابق: ١٤١/٣.
- ٤٨ السابق: ١٢١/٣.
- ٤٩ الفارابي: ١٠٨٩، ١٠٨٨ فقد نبه على أن أقصر الأقوال الموزونة هو الشطر (المصراع)، وأن أطولاً لا حد له، ولكنه يكون بمضاعفة ذلك الشطر (المصراع).
- ٥٠ ابن هشام: ٥٢/١ فقد نبه على مسألة نهاية آل عن الضمير عند الكوفيين وبعض البصريين وكثير من المتأخرین، وهي في أمثلتهم ملتبسة بالمعهدية.
- ٥١ ابن سلام: ٦٦/١.
- ٥٢ الأصفهانی: ٣٢٣٢/٩. ومن أعجب ما اجتمع عليه الأعشی وجریر، أن تسمى ابنٌ بـ جریر مـ منحلاً كاسم ريني الأعشی (شيطانه) القائل هو فيه:  
 «إذا منحـلـ سـنـدـيـ فيـ الـقـوـلـ أـنـطـقـ»  
 - وأن دفون جریر بالسماوة حيث قبر الأعشی!

## **كتُبُ الفَضْلِ الثَّالِثِ**

- ابن الأثير (أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم الجزري): «المثل السادس»، قدم له وحققه وعلق عليه الدكتور أن أحد الحوفي ويدوي طباعة، وطبعته ونشرته دار نهضة مصر بفجالة القاهرة.
- ابن جني (أبو الفتح عثمان): «الخصائص»، حققه محمد علي النجار، وطبعته الطبعة الثالثة في ١٩٨٧ م الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- ابن الحاجب (أبو عمر عثمان): «أماله»، حققه الدكتور فخر صالح سليمان قدارة، وطبعته في ١٩٨٩ م دار الجيل بيروت.
- ابن دريد (أبو يكر محمد بن الحسن): «الاشتقاق»، حققه عبد السلام هارون، وطبعته الطبعة الأولى في ١٤١١ هـ = ١٩٩١ م ونشرته دار الجيل بيروت.
- ابن سلام (محمد الجمحي): «طبقات فحول الشعراء»، ترآه وشرحه محمود محمد شاكر، وطبعته مطبعة المدى بالقاهرة.
- ابن عصفور (أبو الحسن علي بن عبد المؤمن الإشبيلي): «ضرائر الشعر»، حقه السيد إبراهيم محمد، وطبعته الطبعة الثانية في ١٩٨٢ م ونشرته دار الأندلس بيروت.
- ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم الكوفي الديينوري): «الشعر والشعراء»، حققه وشرحه أحد محمد شاكر، وطبعته ونشرته دار المعارف بالقاهرة.
- ابن منظور (أبو الفضل محمد بن مكرم المصري): «السان العرب»، طبعته دار المعارف بالقاهرة.
- ابن هشام (جال الدين الأنصاري): «معنى الليب»، طبعته ونشرته دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي وشركاه) بالقاهرة.
- ابن يعيش (موقع الدين بن يعيش): «شرح الفصل»، نشرته مكتبة المتني بالقاهرة.
- الأصفهاني (علي بن الحسين القرشي): «الأغانى»، حققه إبراهيم الإيساري، وطبعته في ١٩٦٩ م ونشرته دار الشعب بالقاهرة.
- الأعشى (ميمون بن قيس): «ديوانه»، شرحه وعلق عليه الدكتور محمد محمد حسين، وطبعته المطبعة النموذجية بالقاهرة، ونشرته مكتبة الآداب بجماليز القاهرة.
- البحراوي (الدكتور سيد): «العروض وإيقاع الشعر»، طبعته في ١٩٩٣ م الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- البغدادي (عبد القادر بن عمر): «خزانة الأدب»، حققه وشرحه عبد السلام هارون، وطبعته الطبعة الثانية في ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨ م مطبعة المدى بالقاهرة، ونشرته مكتبة الخانجي بالقاهرة.
- الجرجاني (أبو يكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد): «دلائل الإعجاز»، طبعته في ١٩٨٤ م مطبعة المدى بالقاهرة، ونشرته مكتبة الخانجي بالقاهرة.

- جرير (ابن عطية بن حذيفة الخطفي): «ديوانه»، حققه الدكتور نعيم محمد أمين طه، وطبعته الطبعة الرابعة ونشرته دار المعارف بالقاهرة.
- حسن (عياس): «النحو الراقي»، طبعته الطبعة السادسة ونشرته دار المعارف بالقاهرة.
- الرضي (محمد بن الحسن الاسترابادي): «شرح الكافية»، طبعته في ١٤٠٥ هـ=١٩٨٥ م ونشرته دار الكتب العلمية بيروت.
- سيفيه (أبو بشر عمرو بن قبر): «الكتاب»، حققه عبد السلام هارون، وطبعته الطبعة الثالثة في ١٩٨٨ م مطبعة المدى بالقاهرة، ونشرته مكتبة المانجي بالقاهرة.
- شاكر (عمود محمد): «كتاب الشعر»، نسخة مصورة عن أصل لدى أستاذنا لم أجده منشوراً بعد.
- الشياخ (ابن ضرار الذبياني): «ديوانه»، حققه وشرحه صلاح الدين الهادي، وطبعته في ١٩٧٧ م ونشرته دار المعارف بالقاهرة.
- صقر (الدكتور محمد جمال): «الأمثال العربية القديمة: دراسة نحوية»، طبعته الطبعة الأولى في ١٤٢١ هـ=٢٠٠٠ م مطبعة المدى بالقاهرة.
- ضيف (الدكتور شوقي): «الشعر والغناء في مكة والمدينة»، طبعته الطبعة الرابعة ونشرته دار المعارف بالقاهرة.
- الفارابي (أبو نصر محمد بن طرخان): «كتاب الموسيقا الكبير»، حققه وشرحه غطاس عبد الملك خشبة، وراجعه وصدره الدكتور محمود أحد الخطفي، وطبعته دار الكاتب بالقاهرة.



## الفَصلُ الرّابعُ

بَيْنَ الرَّافِعِيِّ وَشَاكِرٍ  
مُوازَنَةٌ نَصِيَّةٌ نَحْوَيَةٌ



## مُقدمة

### الشَّقِيقُ الْعَرَبِيُّ الْإِسْلَامِيُّ

[١] إذا هجرَ المُتَّقِفُونَ ثقافَهُمْ جَهْلُوهَا؛ فضاعَ لِيَاهُمْ بِهَا، وَرَهَدُوا فِيهَا، وَخَلَفُوا؛ فِيمَنْ مُشَاغِلٌ عَنْهَا بِهَادِيَاتِ حِضَارَتِهِ وَكَانَهَا لَغْزٌ يُعْتَشَهُ النَّظَرُ فِيهِ، وَمِنْ مُذَبِّرٍ عَنْهَا إِلَى غَيْرِهَا مِنَ الثَّقَافَاتِ وَكَانَهَا عَارِيَّةً يَبْتَغِي أَنْ يَبْتَهِرَ مِنْهُ، وَمِنْ مُقْبِلٍ عَلَيْهَا بِالْتَّحْرِيفِ وَكَانَهَا قَرَزَةً يَبْتَغِي أَنْ يَهْذِبَهَا - حَتَّى إِذَا مَا تَسَرَّ لِعَصْمَهُ أَنْ يَسْتَرِعَهَا حَتَّى تَلَأَ عَلَيْهِ أَفْطَارَ نَفْسِهِ، فَيَوْمَنَ بِهَا حَتَّى يَصِيرَ هُوَ نَفْسُهُ مَظَهُرًا كُنْهِهَا، وَيَخْرُصُ عَلَيْهَا حَتَّى يَصِيرَ هُوَ نَفْسُهُ لِسَانَ حَالِهِ - أَقْبَلَ يَتَأَنِّي إِلَى تَعْلِيمِهَا، وَيَغْرِيَ الْمُتَّقِفِينَ بِمَرَاجِعَهَا.

وَيَبْدُلِي أَنْ حَيَّاتَ الثَّقَافَاتِ الْكَبِيرَةِ حَيَّاتٍ مُسْتَدِيرَةً، تَسْوَالُ فِيهَا مِنْ قَدِيمِهِ الْحَدِيثُ، أَحْوَالُ الْوَصَالِ وَالْمَجْرَانِ، وَالْاسْتِعَابُ وَالْجَهْلُ، وَالْقُوَّةُ وَالْعَسْفُ؛ فَقَدْ ابْتَلَتِ الثَّقَافَةُ الْعَرَبِيَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ فِي الْقَرْنِ الْمَهْجَرِيِّ الرَّابِعِ عَشَرَ (الْمِيلَادِيِّ الْعَشَرِيِّينَ)، بِطَرَائِفِ مِنْ أُولَئِكَ الْجَاهِلِينَ الشَّاكِنِينَ الْزَاهِدِينَ، تَشَاغَلُوا، وَأَذْبَرُوا، وَحَرَّفُوا، وَمَكْثُوا<sup>١</sup>، حَتَّى نَشَأَ مُصْطَفِيُّ صَادِقِ الرَّافِعِيِّ (١٨٨٠ - ١٩٣٧م)، ثُمَّ تَلَمِيذُهُ مُحَمَّدُ شَاكِرُ (١٩٠٩ - ١٩٩٧م) - رَحْمَهَا اللَّهُ - فَلَمْ يَكُونَا إِلَّا مُتَّقِفَيْنَ أُوتِيَا مِنَ اسْتِعَابِ الثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْإِيَّاهِنَ بِهَا وَالْخَرْصِ عَلَيْهَا، مَا أَقْبَلَا يَتَأَنِّيَانَ بِهِ إِلَى تَعْلِيمِهَا وَالْإِغْرَاءِ بِمَرَاجِعِهِمَا<sup>٢</sup>، حَتَّى اسْتَحْدَثُوا أَسَالِيبَ أُدِيَّةً مُتَعَدِّدةَ مُخْتَلِفَةً، أَثْرَتِ فِي الْمُتَّقِفِينَ تَأثِيرًا شَدِيدًا.

### أشدُّ الْأَسَالِيبِ التَّشْقِيقِيَّةِ تَأثِيرًا

[٢] وَلَكِنَّهُمْ أَسْلَوبِيُّنَ بِجَازِئَنَ، كَانُوا أَشَدَّ أَسَالِيبِهِمَا تَأثِيرًا<sup>٣</sup>:  
١ تَكْمِيلَةُ الْكُتُبِ الْقَدِيمَةِ: فِيهِ يَكْتَبُانْ نَصوصَهَا فِيَارِيدَانَ أَنْ يَبْيَنَاهُ لِعَاصِرِهِمَا مِنْ مَعَالِمِ الثَّقَافَةِ الَّتِي اسْتَوْعَبُهَا، عَلَى مَنْهِجِ كِتَابِ قَدِيمٍ أَثْرَ لَدَنِهِمَا مَعْرُوفٍ مَشْهُورٍ لَدِيِّ الْمُتَّقِفِينَ، ثُمَّ يَنْسِبانْ نَصوصَهَا تِلْكَ إِلَى هَذَا الْكِتَابِ، مُتَّقِفَيْنَ بِأَثْرِهِ الرَّاسِخِ فِي نُفُوسِ الْمُتَّقِفِينَ، مُذَعِّيَنَ أَنَّهُ وَقَعَتْ لَكُلِّ مِنْهُمَا نَسْخَةٌ مِنْهُ لَمْ تَقْعُ لِغَيْرِهِ حَتَّى صَاحِبُ الْكِتَابِ نَفْسُهُ، مُوقِيَنَ أَنَّهُ لَنْ يَغْفَلْ أَحَدٌ مِنَ الْمُتَّقِفِينَ عَنْ بِجَازِعِهِمَا!

أَمَّا الرَّافِعِيُّ فَنَسَبَ نَصوصًا فِي مَخَاصِمَةِ بَعْضِ الْأَدِبَاءِ، إِلَى كِتَابِ «كَلِيلَةُ وَدَمْنَةُ»، ثُمَّ ضَمَّنَهَا كِتَابَهُ «تَحْتَ رَأْيِ الْقُرْآنِ». وَأَمَّا شَاكِرُ فَنَسَبَ نَصوصًا فِي مَخَاصِمَةِ بَعْضِ الْأَدِبَاءِ كَذَلِكَ، إِلَى الْكِتَابِ نَفْسِهِ، عَلَى أَثْرِ أَسْتَاذِهِ، ثُمَّ ضَمَّنَهَا كِتَابَهُ «أَبَاطِيلُ وَأَسْمَارُ»، وَنَسَبَ نَصوصًا أُخْرَى فِي اسْتِشَرَافٍ مُسْتَقْبِلِ الْوَطَنِ الْعَرَبِيِّ، إِلَى كِتَابِ «تَارِيخِ الطَّبَرِيِّ»، ثُمَّ تَضَمَّنَهَا كِتَابَ «جَهَرَةُ مَقَالَاتِ مُحَمَّدِ شَاكِرِ»، الصَّادِرُ بَعْدَ وَفَاتَهُ.

٢ تكملة المجالس القديمة: فيه يكتب الكاتبان نصوصها فيما يريدان أن يبناه لمعاصريهما من معالم الثقافة التي استوعبها، على منهج مجالس أعلام حلة ثقافتها القدماء التي يرويها الأخباريون، ثم ينسبان نصوصها تلك إلى هؤلاء الأعلام، مُتَّوِّيْنَ بِأَثْرِهِم الراسخ في نفوس المتكلمين، مُدَعِّيْنَ أَنَّهَا سمعاً وشاهدوا ما لم يسمعه أو يشاهده غيرها حتى الأخباريون السابقون أنفسهم، موقنِّينَ أَنَّهُ لَنْ يغفل أحدٌ من المتكلمين عن مجاز عملها هذا كذلك!

أما الرافعي فروى نصوصاً في تهذيب الأخلاق النفسية والاجتماعية، عن بعض العلماء والزهاد، ثم ضمنها كتابه «وحى القلم». وأما شاكر فروى نصوصاً في تهذيب الأخلاق النفسية والاجتماعية كذلك، وفي تبنيه الوعي السياسي، عن أبي الخطاب عمر بن أبي ربيعة الشاعر الغزل المشهور، ثم تضمنها كتاب «جهرة مقالات محمود محمد شاكر» نفسه. وعلى رغم وضع شاكر فوق عناوين نصوص هذا الأسلوب، عبارة «(من مذكرات عمر بن أبي ربيعة)»، يمْنَعُ من إضافتها إلى الأسلوب الأول، ألا وجود في الكتب القديمة، لما تشير إليه العبارة!

### جَوَامِعُ الْأَسْلُوْبِيْنَ وَفَوَارِقُهُمَا

[٣] وعلى رغم تحلي آيتين من اتصال الحاضر الذليل بالماضي العزيز (هم الكاتبين) في نصوص الأسلوبين: استدعاء الماضي إلى الحاضر في نصوص الأسلوب الأول، ورحيل الحاضر إلى الماضي في نصوص الأسلوب الأخير - ميَّزَ هذين الأسلوبين الاثنين في خلال ذلك الاتصال الواحد:

١ أن الأسلوب الأول أميل إلى العلمية - وإن عُدَّ كتاب «كليلة ودمنة» في الكتب الفنية - من حيث يجري عملي المحققين، والأخير أميل إلى الفنية، من حيث يجري عملي القصاصين؛ فكأنما حرص الكاتبان على أن يسلكا إلى المتكلمين، كل سبيل!

٢ أن أحداث نصوص الأسلوب الأول مُذَعَّةٌ على الكتب المسورة إليها، وأحداث نصوص الأسلوب الآخر مُحَفَّةٌ على أصحابها، وإن شابتها زيادات لا تؤثر فيها.

٣ أن افتراق الأسلوبين بما سبق، أفضى إلى كثرة نصوص الكاتبين في الأسلوب الأخير عنها في الأسلوب الأول، وإن كانت نصوص شاكر على وجه العموم أقل كثافة من نصوص أستاذة، شأن المعارض؛ فمهما أحبَّ التلميذُ المعارضُ أستاذة المعارض، وكان مُوقِّعاً في معارضته، فسيظلُّ أكبرُ إخلاصه لما يستتبعه هو نفسه، ما دام فناناً مبدعاً!

## نُصوصُ الأُسلوبِ الآخرِ

[٤] ولقد كان في جلال الغاية التي أمهَا الكتابان، وفي صدق معنى المدرسة الثقافية الواحدة بينهما، وفي نجاح أسلوبها الأخير الواضح في زيادة نصوصه على نصوص الأسلوب الأول - ما يستغرق تأمل النحوى، حتى يوازن بينها موازنة نصية نحوية؛ فيشرح من معالم الغاية والمدرسة والأسلوب، ما يتقدم بدراسته النحوية في سبيل وعي علمي جديد.

- فانطلقت من نصوص شاكر هذه القليلة، في الأسلوب الآخر:
  - ١ ((ذات النطاقين))<sup>(٣)</sup>، في الشدائى التي عانتها حتى ماتت.
  - ٢ ((الحقيقة المؤمنة))<sup>(٣)</sup>، فيها ابتنى به عروة بن الزبير.
  - ٣ ((أيام حزينة))<sup>(٣)</sup>، فيها ابتنى به ابن أبي عتيق.
  - ٤ ((جريرة ميعاد))<sup>(٣)</sup>، في بعض الواقع الغزلية.
  - ٥ ((صديق إيليس))<sup>(٣)</sup>، في بعض الواقع الغزلية.
  - ٦ ((صديق إيليس))<sup>(٣)</sup>، في بقية ذلك.
  - ٧ ((حديث غد))<sup>(٣)</sup>، في إجلاء يهود عن بلاد العرب.
- إلى نصوص الرافعى هذه الكثيرة في الأسلوب الآخر نفسه:
  - ١ ((سمو الحب))<sup>(٣)</sup>، في الحب بين الرجل والمرأة.
  - ٢ ((قصة زواج وفلسفة مهر))<sup>(٣)</sup>، في حسن اختيار الزوج.
  - ٣ ((ذيل القصة وفلسفة المال))<sup>(٣)</sup>، في بقية ذلك.
  - ٤ ((زوجة إمام))<sup>(٣)</sup>، في مكانة المرأة.
  - ٥ ((زوجة إمام: بقية الخبر))<sup>(٣)</sup>، في بقية ذلك.
  - ٦ ((قبح جيل))<sup>(٣)</sup>، في حسن اختيار الزوجة.
  - ٧ ((رقبا في السماء))<sup>(٣)</sup>، في حسن علاقة الزوج بزوجته.
  - ٨ ((بنته الصغيرة))<sup>(٣)</sup>، في الفوز بالأبناء.
  - ٩ ((بنته الصغيرة))<sup>(٣)</sup>، في بقية ذلك.
  - ١٠ ((الانتحار))<sup>(٣)</sup>، في علاج اليأس من الدنيا.
  - ١١ ((الانتحار))<sup>(٣)</sup>، في بقية ذلك.
  - ١٢ ((الانتحار))<sup>(٣)</sup>، في بقية ذلك.
  - ١٣ ((الانتحار))<sup>(٣)</sup>، في بقية ذلك.
  - ١٤ ((الانتحار))<sup>(٣)</sup>، في بقية ذلك.
  - ١٥ ((الانتحار))<sup>(٣)</sup>، في بقية ذلك.

- ١٦ «السمكة»، في الإيثار على النفس.
  - ١٧ «الزاهدان»، في بقية ذلك.
  - ١٨ «إيليس يعلم»، في بقية ذلك.
  - ١٩ «الدنيا والدرهم»، في بقية ذلك.
  - ٢٠ «الشيطان»، في معنى الصلاح والفساد.
  - ٢١ «الأسد»، في ثبات العلماء وكراماتهم.
  - ٢٢ «أمراء للبيع»، في جلال العلماء وسطوتهم.

مادّة المُوازنة

[٥] تَلْمِسْتُ كُلَّ رُؤْجَنِ مُشَايِهِنْ وَمَدَارًا وَرِسَالَةً، حَتَّى عَثَرْتُ لِنَصْ شَاكِرِ الثَّانِي «الْحَقِيقَةِ الْمُؤْمِنَةِ»، عَلَى نَصْ الرَّافِعِيِّ الْخَادِيِّ وَالْعَشَرِينِ («الْأَسْدُ»)؛ فَفَصَلَّتْهَا بِمَا أَشْتَوَّ عَبْتُهَا، وَعَنْوَتْ فُصُولَهَا، وَرَقَمَتْهَا، وَشَكَلَتْهَا، عَلَى النَّحُو التَّالِي: («الْأَسْدُ»، لِلرَّافِعِي<sup>(٣)</sup>:

«جلَسَ أَبُو عَلَيْهِ أَخْدُونْ بْنُ مُحَمَّدَ الرَّوَّابِدَيِّ الْبَغْدَادِيِّ فِي مَجَlisٍ وَعَظِيْهِ يُومَضَرَّ بَعْدَ وَفَاءِ شَيْخِهِ أَبِي الْحَسَنِ بنَانَ الْحَسَنِ الْزَاهِدِ الْوَاسِطِيِّ شَيْخِ الدِّيَارِ الْمُضْرِيَّ، وَكَانَ يُضَرِّبُ الْمَقْلُولَ بِعِيَادَتِهِ وَرُؤْسِهِ، وَقَدْ حَرَّجَ أَكْثَرَ أَهْلِ مِضَرٍّ فِي جِنَاحِهِ، فَكَانَ يَوْمَهُ يَوْمًا كَالْيَوْمِ هَانَ مِنَ الْعَالَمِ الْآخِرِ لِأَهْلِ هَذِهِ الدُّنْيَا: مَا يَقِيْ أَخْدُونْ إِلَّا افْتَنَعَ أَنَّهُ فِي شَهَوَاتِ الْحَيَاةِ وَأَبَاطِيلِهَا كَالْأَعْمَى فِي سُوَءِ تَعْيِيزِهِ بَيْنَ لَوْنِ التُّرَابِ وَلَوْنِ الدِّقِيقِ؛ إِذَا يَنْتَرُ كُلُّ امْرِيِّ فِي مَصَالِحِهِ وَمَنَافِعِهِ مِثْلَ هَذِهِ النَّظَرَةِ، بِاللَّمْسِ لَا بِالْبَصِيرِ، وَبِالْتَّوْهِمِ لَا بِالْتَّحْقِيقِ، وَعَلَى ذَلِيلِ تَقْسِيمِهِ فِي الشَّيْءِ لَا عَلَى ذَلِيلِ الشَّيْءِ فِي تَقْسِيمِهِ، وَبِالْأَذْرَاكِ مِنْ جَهَةٍ وَاحِدَةٍ دُونَ الْأَذْرَاكِ مِنْ كُلِّ جَهَةٍ، ثُمَّ يَأْتِي الْمُزَكَّ، فَيَكُونُ كَالْمَاءُ صَبًّا عَلَى الدِّقِيقِ وَالْتُّرَابِ جَمِيعًا، فَلَا يَرْتَابُ مُبَصِّرٌ وَلَا أَعْمَى؛ وَيَنْطَلُّ مَا هُوَ بَاطِلٌ، وَيَحْقِقُ الَّذِي هُوَ حَقٌّ.

[٢] التَّلْكُلُ إِلَى لِقَاءِ الْبَطْلِ

وَتَكَلَّمَ أَبُو عَلَيْ، فَقَالَ: كُنْتُ ذَاتَ يَوْمٍ عِنْدَ شِيخِنَا الْجَيْدِ فِي بَعْدَادٍ، فَجَاءَهُ كِتَابٌ مِنْ يُوسُفَ بْنِ الْحَسْنِ شِيخِ الرَّأْيِ وَالْجَيْدِ فِي وَقْتِهِ، يَقُولُ فِيهِ:

لَا أَذَاقُ اللَّهَ طَعْمَ تَفْسِكِكَ، فَإِنَّكَ إِنْ دُقْتَهَا لَمْ تُذَقْ بَعْدَهَا خَيْرًا أَبَدًا

قَالَ: فَجَعَلْتُ أَفْكَرُّ فِي طَعْمِ النَّفْسِ: مَا هُوَ، وَجَاءَتِي مَا لَمْ أَزْهَهُ مِنَ الرَّأْيِ، حَتَّى سَوَّيْتُ بِخَيْرِ بُنَانٍ - رَجَهَ اللَّهُ - مَعَ أَخْدَنَ بْنَ طَلْوَنَ أَمْرِيْرَ مَصْرَ، فَهُوَ الَّذِي كَانَ سَبَبَ قُدْوِيِّ إِلَى هُنَا لِرَأْيِ الشَّيْخِ وَأَضْحَبَهُ وَأَنْتَقَمَ بِهِ.

### [٣: مكانة أئمّة البطل]

والبَلْدُ الْذِي لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ أَهْلِ الدِّينِ الصَّحِيفَ وَالنَّفْسِ الْكَامِلَةِ وَالْأَخْلَاقِ الْإِلهِيَّةِ، هُوَ فِي الْجَهَنَّمِ كَالْبَلْدِ الْذِي لَيْسَ فِيهِ كِتَابٌ مِنَ الْكِتَبِ الْأَبْشَرَةِ، وَإِنْ كَانَ كُلُّ أَهْلِهِ عُلَمَاءٌ، وَإِنْ كَانَ فِي كُلِّ عَلَمٍ مِنْهُ مَدْرَسَةٌ، وَفِي كُلِّ دَارٍ مِنْ دُورِهِ خِزَانَةٌ تُكْتُبُ؛ فَلَا تُعْنِي هَذِهِ الْكِتَبُ عَنِ الرِّجَالِ؛ فَلَيْسَ هِيَ صَوَابٌ أَنْ خَطَأَ يَتَّهِي إِلَى الْعُقُولِ، وَلَكِنَّ الرَّجُلَ الْكَامِلَ صَوَابٌ يَتَّهِي إِلَى الرُّوحِ، وَهُوَ فِي تَأثِيرِهِ عَلَى النَّاسِ أَفْوَى مِنَ الْعِلْمِ، إِذَا هُوَ تَفْسِيرُ الْحَقَائِقِ فِي الْعَمَلِ وَحِيَاتِهِ عَامِلَةً مَرْبِيَّةً دَاعِيَّةً إِلَى تَقْسِيمِهِ. وَلَوْ أَفَاقَ النَّاسُ هَذِهِ سِينَيَّةَ يَتَّهِيُونَ فِي مَعَانِي الْفَضَائِلِ وَوَسَائِلِهَا، وَوَصَعُوا فِي ذَلِكَ مِثْقَلَةً كِتَابًا، ثُمَّ رَأَوُا رَجُلًا فَاضِلًا يَأْسِدُ مَعَانِي الْفَضْلِيَّةِ، وَخَالَطُرُهُ وَصَحْبُوهُ - لَكَانَ الرَّجُلُ وَخَدْهُ أَكْبَرَ فَائِدَةً مِنْ تِلْكَ الْمُنَاظَرَةِ - وَأَجْدَى عَلَى النَّاسِ مِنْهَا، وَأَدَلَّ عَلَى الْفَضْلِيَّةِ مِنْ مِنْ كِتَابٍ وَمِنْ كِتَابٍ وَمِنْ كِتَابٍ؛ وَلِهذا يُرْسِلُ اللَّهُ النَّبِيُّ مَعَ كُلِّ كِتَابٍ مُنْزَلٍ لِيُغَنِّي الْكَلِمَةَ قَوَّةً وَجُودَهَا، وَيُخْرِجُ الْحَالَةَ الْنَّفْسِيَّةَ مِنَ الْمُنْتَنَى الْمُنْقُولِ، وَيُنْشِئُ الْفَضَائِلَ الْإِنْسَانِيَّةَ عَلَى طَرِيقَةِ النَّشْلِ مِنْ إِنْسَانِهِ الْكَبِيرِ.

وَمَا مَثَلَ الْكِتَابِ يَتَعَلَّمُ الْمَرْءُ مِنْهُ حَقَائِقَ الْأَخْلَاقِ الْعَالِيَّةِ، إِلَّا كَوْضِعَ الْإِنْسَانَ يَدَهُ تَحْتَ إِيْطَهِ لِيَرْفَعَ جَسْمَهُ عَنِ الْأَرْضِ؛ فَقَدْ أَنْشَأَ يَعْمَلُ، وَلَكِنَّهُ لَنْ يَرْفَعَ؛ وَمِنْ ذَلِكَ كَانَ شَرُّ النَّاسِ هُمُ الْمُعْلَمَةُ وَالْمُعْلَمَيْنِ إِذَا لَمْ تَكُنْ أَخْلَاقُهُمْ دُرُوسًا أُخْرَى يَعْمَلُ عَمَلًا آخَرَ خَيْرَ الْكَلَامِ؛ فَلَوْ أَخْدَهُمْ لِيَجِيلُسْ مَجِيلُسُ الْمُعْلَمِ، ثُمَّ تَكُونُ حَوْلَهُ رَذَافَلَهُ تَعْلَمُ تَعْلَمِيَا آخَرَ مِنْ حَيْثُ يَدْرِيُ وَلَا يَدْرِي، وَيَكُونُ كِتَابُ اللَّهِ مَعَ إِنْسَانَ الظَّاهِرِ مِنْهُ، وَكِتَابُ الشَّيْطَانِ مَعَ إِنْسَانَ الْخَفْيِ فِيهِ.

### [٤: صفة البطل عند اللقاء]

قال أبو عليٌّ: وقدمنَتُ إِلَى مضرٍ لِأَرْأِي أَبَا الْخَسْنَ وَأَخْدَأَ عَنْهُ وَأَحْقَقَ مَا سَمِعْتُ مِنْ تَحْرِيرٍ مَعَ ابْنِ طَولُونَ؛ فَلَمَّا لَقَيْتُهُ لَقَيْتُ رَجُلًا مِنْ تَلَامِيدِ شَيْخِنَا الْجَنْتِيدِ، يَسْلَالًا فِي نُورِهِ، وَيَعْمَلُ فِيهِ سِرْرَهُ؛ وَهُمَا كَالشَّمْعَةِ وَالشَّمْعَةِ فِي الضُّوءِ وَإِنْ صَغَرَتْ وَاحِدَةٌ وَكَبَرَتْ وَاحِدَةٌ؛ وَعَلَامَةُ الرَّجُلِ مِنْ هُوَلَاءِ أَنْ يَعْمَلُ وَجُودَهُ فِي مِنْ حَوْلِهِ أَكْبَرَ إِمَّا يَعْمَلُ هُوَ بِنَفْسِهِ، كَانَ يَنْبَئُ الْأَزْوَاجَ وَيَتَّهِي شَابِيكًا، فَلَهُ مَعْنَى أَبُو الْأَبِ في أَبْنَاهِ: لَا يَرَاهُ مِنْ يَرَاهُ مِنْهُمْ إِلَّا أَحْسَنُ اللَّهُ شَخْصُهُ الْأَكْبَرُ؛ فَهَذَا هُوَ الْذِي تَكُونُ فِيهِ التَّكْمِيلَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ لِلنَّاسِ، وَكَأَنَّهُ خَلُوقٌ خَاصَّةٌ لِإِثْبَاتِ أَنَّهُ غَيْرُ الْمُسْتَطَاعِ مُسْتَطَاعٌ.

وَمِنْ عَجِيبِ حِكْمَةِ اللَّهِ أَنَّ الْأَمْرَاضَ الشَّدِيدَةَ تَعْمَلُ بِالْمَذْدُوِيِّ فِيمَنْ قَارَبَهَا أَوْ لَامَسَهَا، وَأَنَّ الْقُوَى الشَّدِيدَةَ تَعْمَلُ كَذِيلَكَ بِالْمَذْدُوِيِّ فِيمَنْ اتَّصلَ بِهَا أَوْ صَاحَبَهَا؛ وَلِهذا يَخْلُقُ اللَّهُ الصَّالِحِينَ، وَيَعْجِلُ التَّقْوَى فِيهِمْ إِصَابَةً كَلِاصَابَةِ الْمَرْضِ، تَغْرِفُ عَنْ شَهَوَاتِ الْذُنُوبِ كَمَا يَغْرِفُ الْأَرْضُ عَنْهَا، وَتَكْثِيرُ النَّفْسِ كَمَا يَكْثِيرُهَا ذَاكَ، وَتَفْقِدُ الشَّيْءَ مَا مُوَبِّه.

شيء، فتتحول قيمته، فلا يكون بها فيه من الورفم، بل فيها فيه من الحق. وإذا عيّد الناس هذا الرجل الذي يُعد بهم بقوته العجيبة، فقلما يصلحون للنفوة، فكيار الصالحين وكيار الزعماء وكيار القواد وكيار الشجعان وكيار العلماء وأمثالهم، كُلُّ هؤلاء من باب واحد، وكُلُّهم في الحكمة وكبار المرضى.

[٥: شهود كراهة البطل]

قال أبو علي: وَهَمِّشْتُ مَرَّةً أَنْ أَسْأَلُ الشَّيْخَ عَنْ خَبَرِهِ مَعَ ابْنِ طَولُونَ، فَقَطَّعَتْهُ هَيْثَهُ، فَقُلْتُ أَخْتَالٌ بِسُوَالِهِ عَنْ كَلِمَةِ شَيْخِ الرَّيْ: «لَا أَذَاقَنَا اللَّهُ طَعْمَ تَفْسِيكَ». وَبَيْنَمَا أَهْيَى فِي كَلَامًا أَبْرَيْ فِيهِ هَذِهِ الْعِيَازَةَ، جَاءَ رَجُلٌ، فَقَالَ لِلشَّيْخِ: لِي عَلَى قُلُّانِي مِنْهُ دِينَارٌ، وَقَدْ دَعَبَتِ الْوَثِيقَةُ الَّتِي كُتِبَ فِيهَا الدِّينُ، وَأَخْشَى أَنْ يُنْكِرَ إِذَا هُوَ عَلَمَ بِصَيْاعِهَا؛ فَأَذْعَجَ اللَّهَبِيَّ وَلَهُ أَنْ يُظْفِرَنِي بِدِينِي وَأَنْ يُبَيِّنَهُ عَلَى الْحَقِّ. فَقَالَ الشَّيْخُ: إِنِّي رَجُلٌ قَدْ كَرِبْتُ، وَأَنَا أَحِبُّ الْخَلْوَى؛ فَأَذْهَبْتُ، فَأَشَرَّ رِطْلًا مِنْهَا، وَأَنْتَنِي بِهِ حَتَّى أَذْعُورَ لَكَ! فَذَهَبَ الرَّجُلُ، فَأَشَرَّ الْخَلْوَى، وَوَضَعَهَا لَهُ الْبَايِعُ فِي وَرَقَةٍ، فَإِذَا هِيَ الْوَثِيقَةُ الْقَبَائِعَةُ! وَجَاءَ إِلَى الشَّيْخِ، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ: حُذِّ الْخَلْوَى، فَأَطْعَمْنَاهَا صِبَيَّاتِكَ، لَا أَذَاقَنَا اللَّهُ طَعْمَ أَنْفُسِنَا فِيهَا أَشْتَهِيَ إِنَّمَّا أَنْتَتَ إِلَيَّ، وَقَالَ: لَزَّ أَنْ شَجَرَةَ اشْتَهَتْ غَيْرَ مَا يَهِي صَحَّةٌ وُجُودُهَا وَكَمَّ مَنْعِنْتُهَا، فَأَذْيَقْتَ طَعْمَ تَفْسِيسِهَا، لَأَكْلَتْ نَفْسَهَا، وَذَرْتَ

قال أبو علي: وَالْمُعْجَزَاتُ الَّتِي تَحَدُّثُ لِلْأَتِيَاءِ، وَالْكَرَامَاتُ الَّتِي تَكُونُ لِلْأَتِقِيَاءِ، وَمَا يَجْرِيُ الْعَادَةُ وَيَخْرُجُ عَنِ النَّسَقِ - كُلُّ ذَلِكَ كَقُولُ الْفُدْرَةِ عَنِ الرَّجُلِ الشَّادِ: هُوَ هَذَا. فَلَمْ يَبْقَ بِي حَاجَةٌ إِلَى سُوَالِ الشَّيْخِ عَنْ خَبَرِهِ مَعَ ابْنِ طَولُونَ، وَكُنْتُ كَأَنِّي أَرَى بِعَيْنِي رَأْسِي كُلَّ مَا سَمِعْتُ، يَيْدَ أَنِّي لَمْ أَنْصَرْفْ، حَتَّى لَقِيَتْ أَبَا بَعْفَرَ القَاضِي أَحْمَدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُسْلِمٍ بْنِ قُتْبَيَةِ الدِّينَوْرِيِّ، ذَلِكَ الَّذِي تَحَدُّثُ بِهِ أَيْسُهُ كُلُّهَا مِنْ حِفْظِهِ، وَهِيَ وَاحِدَةٌ لَعَلَكَ اشْتَهَيْتَ مِنْ خَبَرِ بُنَانِي مَعَ ابْنِ طَولُونَ، فَمِنْ أَجْلِهِ - زَعْمَتْ - جَثَّ إِلَى مَضَرِّ؟. قُلْتُ: إِنَّهُ تَوَاضِعٌ؛ فَلَمْ يَجْرِنِي، وَبَيْهُ؛ فَلَمْ أَسْأَلْهُ.

قال: تَعَالَ أَحْدُثُكَ الْحَدِيثَ:

[٦: حِصْنَةُ خَصِيمِ الْبَطْلِ]

كان أَحْمَدُ بْنُ طَولُونَ مِنْ جَارِيَةِ تُرْكِيَّةِ، وَكَانَ طَولُونُ أَبُوهُ تَمْلُوكًا حَكَمَهُ نُوحُ بْنُ أَسِدٍ عَامِلٌ بِخَارِي إِلَى الْمُؤْمِنِينَ فِيهَا كَانَ مُوَظَّفًا عَلَيْهِ مِنَ الْمَالِ وَالرَّفِيقِ وَالْبَرِادِينَ وَغَيْرِ ذَلِكَ؛

فُولَدَ أَخْدُو فِي مَنْصِبٍ ذَلِيلٍ تَسْتَطِهِ الْطَّفَلُونَ، وَكَانَتْ هاتَانِ طَبِيعَتِيهِ إِلَى آخِرِ عُمُرِهِ، فَلَدَعَ بِهِ مَذْعِباً بَعِيداً، وَنَشَأَ مِنْ أَوْلَى أَنْيَرِهِ عَلَى أَنْ يُتَمَّمَ هَذَا النَّقْصُ وَيَكُونَ أَكْبَرَ مِنْ أَصْلِهِ؛ فَعَلَّبَ الْفُرُوشِيَّةَ وَالْعِلْمَ وَالْحَدِيثَ، وَصَحَّبَ الرُّعَاةَ وَأَمْلَأَ الْوَرَعَ، وَتَغَيَّرَ عَلَى الْأَنْرَاكِ وَطَمَحَ إِلَى الْمُعَالِيِّ، وَظَلَّ يَرْمِي بِتَفْسِيهِ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَكْبِرُ وَلَا يَزَالْ يَكْبِرُ، كَانَهَا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُطِعَ مِنْ أَصْلِهِ وَيَتَسَوَّجَ بِالْأَمْرَاءِ، فَلَمَّا تَسَوَّجَ يُظْلَمُ بِكَبَرِهِ لِتَحْقِيقِ الْمُلُوكِ، فَلَمَّا بَلَغَ هُولَاءِ كَانَتْ نِيَّتُهُ عَلَى مَا يَعْلَمُ اللَّهُ أَعْلَمُ

قَالَ: وَكَانَ عَقْلُهُ مِنْ أَثْرِ طَبِيعَتِيهِ كَالْعَقَلَيْنِ لِرَجُلَيْنِ حَتَّىْلَيْنِ: فَلَمَّا يَدْ مَعَ الْمَلَائِكَةِ، وَيَدُهُ

الْأُخْرَى مَعَ الشَّيَاطِينِ:

فَهُوَ الَّذِي بَنَى الْمَارِشَتَانَ وَأَنْفَقَ عَلَيْهِ وَأَقَامَ فِي الْأَطْيَاءِ، وَشَرَطَ إِذَا<sup>٣٣</sup> جَيَّءَ بِالْعَلِيلِ أَنْ تُتَرَّعَ شَاهَ وَتُحْفَظَ عِنْدَ أَمِينِ الْمَارِشَتَانِ، ثُمَّ يُلْسَسْ شَاهَا وَيُفَرَّشَ لَهُ وَيُنْدِي عَلَيْهِ وَيُرَأَّحَ بِالْأَذْوَى وَالْأَغْذِيَّةِ وَالْأَطْيَاءِ وَحَتَّىْ يَرِدَ، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا قَبْلَ إِمَارَتِهِ.

وَهُوَ أَوْلُ مَنْ نَظَرَ فِي الْمَظَالِمِ مِنْ أَمْرَاءِ مِصْرَ.

وَهُوَ صَاحِبُ يَوْمِ الصَّدَقَةِ، يَكْبِرُ مِنْ سَدَقَاتِهِ كُلَّمَا كَثُرَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَمَرَاثِيَهُ لِذَلِكِ فِي كُلِّ أَشْبَعِ ثَلَاثَةَ آلَافِ دِينَارٍ سَوْى مَطَابِخِهِ الَّتِي أَقِيمَتْ فِي كُلِّ يَوْمٍ فِي دَارِهِ وَغَيْرِهَا، يَذَبَّحُ فِيهَا الْبَقَرُ وَالْكَيْاْشُ وَتَعْرِفُ لِلنَّاسِ، وَلِكُلِّ مِنْكِنِ أَرْبَعَةَ أَرْبَعَةٍ يَكُونُ فِي اثْنَيْنِ مِنْهَا فَالْوَدْجُ وَفِي الْآخَرَيْنِ مِنَ الْقُدُورِ، وَيُسَنَّادِي: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَخْضُرَ دَارَ الْأَمْرِ فَلَيَخْضُرْ أَنْ وَتَنْفَعُ الْأَبْوَابُ، وَيَدْخُلُ النَّاسُ وَهُوَ فِي الْمَجْلِسِ يَنْظُرُ إِلَى الْمَسَاكِينِ وَيَتَأَمَّلُ قَرَاهُمْ إِسَا يَأْكُلُونَ وَيَجْمِلُونَ، كَيْسِرُهُ ذَلِكَ، وَيَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى نِعْمَتِهِ، وَكَانَ رَاتِبُ مَطَابِخِهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ أَلْفَ دِينَارٍ، وَاقْتَدَى بِهِ ابْنُهُ حَمَارَوَنِي، فَلَمَّا بَغَدَهُ مَطَابِخُ الْعَائِمَّةِ يُنْفَقُ عَلَيْهِ ثَلَاثَةَ وَعِشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ كُلُّ شَهْرٍ. وَقَدْ يَلْغَى مَا أَرْسَلَهُ ابْنُ طَولُونَ إِلَى قُرَاءِ بَعْدَادَ وَعَلِمَهَا فِي مُدَّةٍ وَلَا يَتَهَمِّمُهُ أَلْفُ دِينَارٍ.

وَكَانَ كَثِيرَ التَّلَاقِ لِلْقُرْآنِ، وَقَدْ أَخْدَدَ حُجَّرَةً بِقُزْبِهِ فِي الْقُصْرِ وَقَمَعَ فِيهَا رِجَالًا سَتَاهُمْ بِالْكُبُرِيَّةِ، يَتَعَاقِبُونَ اللَّيْلَ نُوبَا يَكْبِرُونَ، وَيُسَبِّحُونَ، وَيَحْمَدُونَ، وَيَهْلِلُونَ، وَيَفْرُوْنَ الْقُرْآنَ تَطْرِيْيَا، وَيُشَدِّدونَ نَصَادِيْرَ الْزَّهْدِ، وَيُؤَذِّنُونَ أَوْقَاتَ الْأَذَانِ.

وَهُوَ الَّذِي فَتَحَ آنْطاكيَّةَ فِي سَنَةِ تَخْسِ وَيَتَيْنِ وَيَتَيْنِ، ثُمَّ مَفَى إِلَى طَرْسُوسَ كَانَهَا يُرِيدُ فَتَحَهَا، فَلَمَّا نَابَدَهُ أَهْلُهَا وَقَاتَلُهُمْ أَمْرَأُ أَصْحَابِهِ أَنْ يَنْهَزِمُوا عَنْهَا، لِيَتَلَعَّذَ ذَلِكَ طَاغِيَّةَ الرُّومِ فَيَعْلَمَ أَنَّ جَيْوَشَ ابْنِ طَولُونَ عَلَى كَثْرَتِهَا وَشَدَّدَتِهَا لَمْ تَقْمِ لِأَهْلِ طَرْسُوسِ، فَيَكُونَ بِهِذَا كَانَهُ قَاتَلَهُ وَصَدَّهُ عَنْ بَلْدِهِ مِنْ بِلَادِ الْإِسْلَامِ، وَيَجْعَلُ هَذَا الْحَبْرَ كَالْجَنِيْشِ فِي تِلْكَ النَّاجِيَّةِ وَمَعَ كُلِّ ذَلِكَ فَإِنَّهُ كَانَ رَجُلًا طَائِشَ السَّيْفِ، يَجُوْرُ وَيَغِيْسُ، وَقَدْ أَخْوَيَ مَنْ قَاتَلُهُمْ صَبَرَا أَوْ مَاتُوا فِي سِجْنِهِ، فَكَانُوا أَئْمَانَهُ عَصَرَ الْفَلَّا.

وَأَمْرَ بِسَجْنِ قاضيهِ بِكَارِبِنْ فَتِيَّةَ فِي حَادِثَةِ مُعْرُوفَةٍ، وَقَالَ لَهُ:  
 غَرَّكَ قَوْلُ النَّاسِ مَا فِي الدُّنْيَا مُشَّلَّ بِكَارِبِنْ؟ أَنْتَ شَيْخٌ قَدْ حَرَفْتَ ا  
 ثُمَّ حَبَّسْتَهُ، وَقَيَّدْتَهُ، وَأَخْدَدْتَهُ بِجَمِيعِ عَطَايَاهُ مُسْدَدًا وَلَا يَهِيَّهُ الْقَضَاءُ، فَكَانَتْ عَصَرَةً آلَافِ  
 دِينَارٍ، قَيَّلَ إِلَيْهَا وُجِدَتْ فِي بَيْتِ بِكَارِبِنْ خَتْمَهَا لَمْ يَسْهَلَهَا زُهْدًا وَتَوْرُعًا.  
 وَلَمَّا ذَهَبَ شَيْخُكَ أَبُو الْحَسْنِ يُسْتَهْنَهُ وَيَأْمُرُهُ بِالْمُرْوُفِ وَنَهَاهُ عَنِ الْمُنْكَرِ، طَاشَ عَقْلُهُ؛  
 فَأَمْرَ بِالْفَقَاهَةِ إِلَى الْأَسْدِ، وَهُوَ الْمُحْبِرُ الْأَذِي طَارَ فِي الدُّنْيَا حَتَّى بَلَغَكَ فِي بَعْدَادَا

[٧: تَعْرِيْضُ الْبَطْلِ لِلْأَفْرِاسِ]

[١ = صِفَةُ الْأَسْدِ]

قَالَ: وَكُنْتُ حَاضِرًا أَمْرُهُمْ ذَلِكَ الْيَوْمُ، فَجَيَّءَ بِالْأَسْدِ مِنْ قَصْرِ ابْنِهِ حَمَارَوَيْهِ. وَكَانَ  
 حَمَارَوَيْهِ هَذَا مَشْغُولًا بِالصَّيْدِ، لَا يَكَادُ يَسْمَعُ بِسَيْئَةِ أَوْيَالِنَّ وَإِلَّا قَصَدَهُ وَمَعَهُ  
 رِجَالٌ عَلَيْهِمْ لُبُودٌ، فَيَدْخُلُونَ إِلَى الْأَسْدِ، وَيَتَنَاهُ لَوْنَهُ بِأَيْدِيهِمْ مِنْ غَايَةِ عَنْوَةٍ وَهُوَ سَلِيمٌ،  
 فَيَصْبِعُونَهُ فِي أَقْفَاصٍ مِنْ خَشْبٍ مُحَكَّمَةِ الصُّسْنَعَةِ يَسْعُ الْوَاحِدُ مِنْهَا السَّيْعَ وَهُوَ قَائِمٌ. وَكَانَ  
 الْأَسْدُ الَّذِي اخْتَارَهُ لِلشَّيْخِ، أَغْلَظَ مَا عِنْدَهُمْ، جَسِيَّاً، ضَارِبًا، عَارِمًا الْوَخْشِيَّةَ، مُتَزَبِّلًا  
 الْعَضَلِ، شَدِيدَ عَصَبِ الْخَلْقِ، هَرَاسًا، قَرَاسًا، أَغْرَى الشَّدْقِ، يَلْسُونُ بِسَدْقَهُ مِنْ سَعَيْهِ  
 وَرَوْعَيْهِ كَفَشَّةَ الْقَنْرِ، يُبَيِّنُ أَنْ جَوْفَهُ مَقْبَرَةٌ، وَيَظْهُرُ وَجْهُهُ خَارِجًا مِنْ لِيَرَتِهِ، يَبْيَمُ أَنْ  
 يَنْقِدِفَ عَلَى مَنْ يَرَاهُ فِي أَكْلَهَا

[٢ = كَبِيْرَةُ الْأَسْدِ]

وَأَجْلَسُوا الشَّيْخَ فِي قَاعَةٍ، وَأَشْرَفُوا عَلَيْهِ يَنْظُرُونَ، ثُمَّ قَتَحُوا بَابَ الْقَصْصِ مِنْ أَعْلَاهُ،  
 فَجَدُّهُمْ؛ فَازْتَهَعَ، وَهَجَّهُجُوا بِالْأَسْدِ بِزُجُورِهِ، فَانْطَلَقَ بِزُغْرَهُ وَبِزُؤْرَهُ زَغِيرًا تَشَقَّ لَهُ الرَّأْيُ،  
 وَيَتَوَهَّمُ مَنْ يَسْمَعُهُ أَنَّهُ الرَّاعِدُ وَرَاءَهُ، الصَّاعِدَةُ ثُمَّ اجْتَمَعَ الْوَحْشُ فِي نَفْسِهِ، وَاقْشَرَ، ثُمَّ  
 تَمَطَّى كَالْمَجِيْقِ يَقْدِفُ الصَّخْرَةَ، فَمَا يَقِيَ مِنْ أَجْلِ الشَّيْخِ إِلَّا طَرَقَهُ عَيْنِهِ.

[٣ = ذُهُولُ الْأَسْدِ]

وَرَأَيْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ سَايَّاً مُطْرِقًا لَا يَنْفَرِرُ إِلَى الْأَسْدِ وَلَا يَخْفِلُ بِهِ، وَمَا مِنْ إِلَّا سَنَ كَادَ  
 يَنْهَاكُ حِجَابُ قَلْبِهِ مِنَ الْفَزَعِ وَالرُّغْبَ وَالْإِشْفَاقِ عَلَى الرَّجُلِ /١/ وَلَمْ يَرُغُنا إِلَّا دُعُولُ  
 الْأَسْدِ عَنْ وَخْشِيَّهِ /٢/ فَاقْعَى عَلَى ذَنْبِهِ، /٣/ ثُمَّ لَعِقَ بالْأَرْضِ هُنْيَهَ يَتَنَاهُشُ ذِرَاعِيْهِ، /٤/  
 ثُمَّ تَهَضَّ تَهَضَّةً أُخْرَى كَانَهُ غَيْرُ الْأَسْدِ، /٥/ فَمَسَى مُتَرَفِّقًا تَقْلِيلَ الْخَطْوِ تُسْمَعُ لِفَاصِلِهِ  
 فَعَفَقَعَةً مِنْ شَدَّدِهِ وَجَسَاتِهِ، /٦/ وَأَقْبَلَ عَلَى الشَّيْخِ، /٧/ وَطَلَقَ يَخْتَكُ بِهِ وَيَلْحَظُهُ وَسَشَهُ كَمَا  
 يَضْنَعُ الْكَلْبُ مَعَ صَارِخِهِ الَّذِي يَأْتِسُ بِهِ، وَكَانَهُ يَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ لَيْسَتْ مُصَاوَلَةً بَيْنَ الرَّجُلِ  
 التَّقِيِّ وَالْأَسْدِ، وَلَكِنَّهَا مُبَارَزَةٌ بَيْنَ إِرَادَةِ ابْنِ طَولُونَ وَإِرَادَةِ اللهِ /٨/

[٤ = يَهْبَطُ الْبَطْلُ]

وَضَرَبَتْ رُوحُ الشَّيْخِ؛ فَلَمْ يَقُلْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَدْمِيِّ عَمَلٌ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ بِإِزَاءِ لَحْمٍ وَدَمٍ، فَلَنْ أَكُلَ الْفَضْلَةَ وَالْفَوَاءَ وَالْحَجَرَ وَالْحَدِيدَ، كَانَ ذَلِكَ أَقْرَبُ وَأَيْسَرُ مِنْ أَنْ يَأْكُلَ هَذَا الرَّجُلُ التَّنَاهَلُ فِي رُوْحِهِ، لَا يُجُسُّ لِصُورَةِ الْأَسَدِ مَعْنَى مِنْ مَعَانِيهَا الْفَاتِحَةِ، وَلَا يَهْرِي فِيهِ إِلَّا حَيَاةً خَاصِّيَّةً مُسَخَّرَةً لِلنَّفْرَةِ الْعَظِيمِ الَّتِي هُوَ مُؤْمِنٌ بِهَا وَمُتَوَكِّلٌ عَلَيْهَا، كَحِيَاةِ الدَّوْدَةِ وَالْمَعْلَةِ وَمَا دَوَاهَا مِنْ اَهْوَامَ وَالْأَنْدَارِ وَوَرَةَ النَّوْرِ عَلَى هَذَا الْقَلْبِ الْمُؤْمِنِ يَكْشِفُ لَهُ عَنْ قُرْبِ الْحَقِّ - شُبُّحَاهُ، وَتَعَالَى - : فَهُوَ لَيْسَ بَيْنَ يَدَيِ الْأَسَدِ وَلَكِنَّهُ هُوَ وَالْأَسَدُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ. وَكَانَ مُنْدَعِّيًا فِي يَقِينِهِ هَذِهِ الْأَكِيَّةَ: {وَاصْبِرْ لِعَكْمِ رَبِّكَ لِكَمْ بِأَعْتَشَا}. وَرَأَى الْأَسَدُ رَجُلًا هُوَ خَوْفُ اللَّهِ، فَخَافَ مِنْهُ، وَكَانَ خَرَجَ الشَّيْخُ مِنْ ذَاهِهِ وَمَعَانِيهَا النَّاقِصَةِ، خَرَجَ الْوَخْشُ مِنْ ذَاهِهِ وَمَعَانِيهَا الْوَخْشِيَّةِ: فَلَيْسَ فِي الرَّجُلِ خَوْفٌ وَلَا هَمٌ وَلَا جَزَعٌ وَلَا تَعْلُقٌ بِرَغْبَةٍ، وَمِنْ ذَلِكَ لَيْسَ فِي الْأَسَدِ تَقْلِيقٌ وَلَا ضَرَاوَةً وَلَا جُرُوعً وَلَا تَعْلُقٌ بِرَغْبَةٍ. وَتَبَيَّنَ الشَّيْخُ نَفْسَهُ، فَكَانَتْ رَأْهُ الْأَسَدُ مِنْهَا وَلَمْ يَجِدْ فِيهِ (أَنَا) الَّتِي يَأْكُلُهَا، وَلَنْ أَنْ خَطَرَةً مِنْ هُمْ الدُّنْيَا خَطَرَتْ عَلَى قَلْبِهِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ أَوْ اخْتَلَجَتْ فِي نَفْسِهِ خَالِقَةً مِنَ الشَّكْ، لَفَاحَتْ رَائِحَةُ لَحْمِهِ فِي خَيَاشِيمِ الْأَسَدِ؛ فَتَمَرَّقَ فِي أَثْيَابِهِ وَمَحَالِيهِ.

[٧ = ٥: دَهْشَةُ الشَّهْوَةِ]

قال: وَانْصَرَ فَنَا عَنِ النَّظَرِ فِي الشَّيْءِ إِلَى النَّظَرِ فِي وَجْهِ الشَّيْخِ، فَإِذَا هُوَ سَاهِمٌ مُفْكَرٌ ثُمَّ رَفَعَهُ، وَجَعَلَ كُلُّ مِنْنَا يُظْنَنُ ظُنُونًا فِي تَفْكِيرِهِ: قَمِنْ قَافِلٍ: إِنَّهُ الْخَوْفُ أَذْعَلَهُ عَنْ نَفْسِهِ! وَقَافِلٍ: إِنَّهُ الْإِنْصَارَفُ يَعْقِلُهُ إِلَى الْمُؤْتَلِ. وَثَالِثٌ يَقُولُ: إِنَّهُ سُكُونُ الْفَكْرَةِ لِتَنَعُّمُ الْحَرَكَةَ عَنِ الْجِسْمِ؛ فَلَا يَضْطَرِبُ. وَرَئِعَمْ جَمَاعَةً أَنْ هَذِهِ حَالَةُ مِنَ الْإِنْتِفَارِيِّ يَسْتَحْرِبُ بِهَا الْأَسَدُ وَأَكْتَرَنَا فِي ذَلِكَ وَجْهَارَنَا فِيهِ، حَتَّى سَأَلَهُ أَبُنْ طَلْوَنَ: ما الَّذِي كَانَ فِي قَلْبِكَ، وَفِيمَ كُنْتَ تُفْكَرُ؟ فَقَالَ الشَّيْخُ: لَمْ يَكُنْ عَلَيَّ بَأْسٌ، وَإِنَّمَا كُنْتَ أُفْكَرُ فِي لُعَابِ الْأَسَدِ: أَهُوَ طَاهِرٌ أَمْ نَجِسٌ؟!

((الْحُقْقَةُ الْمُؤْمِنَةُ»)، إِشَاكِير:

[١: مُصَيْبَةُ مَوْتِ شَابٍ تَبَلِّيلٍ]

((قَالَ عُمَرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ: ... فَبَادَرْتُ أَغْدُو يَكَادُ يَنْشَقُ عَلَيَّ جَلْدِي مِنْ شَدَّةِ الْعَذَوِ؛ فَقَدْ أَكَلَتْ يَمِنِي السُّنُنُ وَتَعَرَّقَتِي أَيَّاْبُ الْكَبِيرِ، قَمَا جَاؤَرْتُ رَوْقَسَةَ قَضِيرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ<sup>(٣)</sup>، حَتَّى تَقْطَعَتْ أَنفَاسِي مِنَ الْجَهَنَّمِ، وَتَلَقَّانِي الْأَذْنُ: مَا عَدَّا إِلَّكَ يَا أَبَا الْحَطَابِ؟.

فَقُلْتُ: أَنْذِنْ لِي عَلَىٰ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَقَدْ نَزَّلَ بِنَا مَا لَا رَدَّلَهُ.  
وَتَبَعَّثَهُ وَاللَّهُ إِنْ قَرِنَصِي لَتُرْعَدُ وَكَانَ عَنْهُمْ فَدْ جَرَثَ عَلَيْهِ هَبَّةُ رِيحٍ بَارِدَةً! وَغَابَ  
الْأَذْنُ، فَيَا هُوَ إِلَّا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَسْتَقْبِلُنِي كَالْقَرْبَى، وَقَدْ خَرَجَ إِلَيَّ، فَقَالَ:  
أَيُّ شَيْءٍ هُوَ، يَا ابْنَ أَبِي رَبِيعَةَ؟

قُلْتُ: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي - يَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ - فَيَا كَانَ إِلَّا وَمُحَمَّدُ بْنُ عُزَّوَةَ تَحْتَ سَنَابِكِهَا، فَمَا  
زَالَتْ تَضَرِّبُهُ بِقَوَافِلِهَا، وَمَا أَذْرَكَنَاهُ إِلَّا وَقَدْ تَهَشَّمَ وَجْهُهُ، وَخَطَّمَتْ أَضْلاعَهُ!  
وَكَانَهَا فَارَقْتِي الرُّوْحُ، فَيَا أَشْعَرُ إِلَّا وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ قَاتِلٌ عَلَىٰ رَأْسِي يَنْصَحُ الْمَاءَ عَلَىٰ  
وَجْهِي، وَقَدْ قُرِبَتْ إِلَيَّ حِمْرَةٌ يَسْطُعُ مِنْهَا رِيحُ الْمَذَلِ الرَّطِيبِ، فَلَمَّا أَفْقَثُ وَرَجَعْتُ إِلَيَّ  
رُوحِي سَأَلْتُنِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ أَفْصُ عَلَيْهِ الْحَبْرَ.

[٢: صورة موت الشاب النبيل]

قُلْتُ: خَرَجْنَا أَنَا وَمُحَمَّدُ بْنُ عُزَّوَةَ وَهِشَامُ أَخُوهُ تُرِيدُ مُتَزَّلِّنَا مِنْ قَبْرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ،  
تَرْجُو أَنْ تَتَحَفَّفَ مِنْ بَعْضِ ثِيَابِنَا؛ فَقَدْ أَنْهَكَنَا الْحَرُّ، فَنَظَرَ مُحَمَّدٌ إِلَى مِزَارَهُ مِنْ فَضْلَةِ مَجْلَوَةٍ  
مَعْلَقَةً فِي الْبَيْتِ، ثُمَّ قَالَ:

أَنْذِكُرُ يَا أَبا الْحَطَابِ حَجَّنَا تِلْكَ؟

قُلْتُ: أَتَيْتُهُ؛ فَقَدْ أَكْتَرَتْ وَعْنَكَ الْحَجَّ؟

فَقَالَ: سُرْعَانَ مَا تَسْبِي الشَّيْئُ الْقَدْ كَرِزَ، وَاللَّهُ، يَا أَبا الْحَطَابِ! وَقَدْ حَدَّثَنِي أَبِي بَالْذِي  
كَانَ مِنْكَ، فَقَدْ كُنْتَ شَسَابِرُهُ وَخَادِمُهُ، فَلَمَّا تَلَبَّثْتُ أَنْ سَأَلْتَهُ:  
وَأَيْنَ زَيْنُ الْمُرَاكِبِ، يَا أَبا عَبْدِ اللَّهِ؟

فَقَالَ لَكَ: أَمَامَكَ.

فَأَرَدْتُ تَرْكُضُ رَاجِلَتَكَ تَطْلُبِنِي، فَقَالَ لَكَ:

يَا أَبا الْحَطَابِ، أَوْلَانَا أَكْفَاهَ كِرَاماً لِمُحَادَثَتِكَ، وَتَخْنُ أَوْلَى أَنْ شَسَابِرَنَا!

فَقُلْتُ لَهُ: بَلِ، يَا أَبِي أَنْتَ وَأَنِّي، يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ وَلَكِنِي مُتَزَّرٌ بِهَذَا الْجَهَالِ، أَتَبُعُهُ حَيْثُ  
كَانَ!

ثُمَّ عَدَلَتْ بِرَاجِلَتِكَ، وَصَرَبَتْهَا، وَأَقْبَلَتْ إِلَيَّ، وَجَعَلَ أَبِي يَتَعَجَّبُ مِنْكَ وَيَضْحَكُ، وَقَدْ  
اسْتَتَارَ وَجْهُهُ إِلَخْدِي سَوْاتِكَ هِيَ، وَاللَّهُ، يَا أَبا الْحَطَابِ!

فَضَحِحَتْ لِقَوْلِهِ، وَتَنَاقَلَنَا الْحَدِيثُ، وَإِذَا هُوَ سَاكِنٌ سَاجِ كَانَهَا غَشِيشَةٌ غَاشِيشَةٌ هُمُّ،  
فَقُلْتُ:

مَا بِكَ؟

فَزَفَرَ - وَاللَّهُ، يَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ - زَرْفَةً كَانَهَا أَشْفَقَتْ لَهَا كَيْدِي، ثُمَّ قَالَ:

أرأيت هذا الجمال الذي تبغته، يا أبا الخطاب، يوشك أن يكون طعاماً يلحسه ثراب  
القبر، فما ترى إلا عظاماً أغبر من مجده تُقذف الرُّغب من محجرها!  
لقد رَوَّعني - والله، يا أمير المؤمنين - حتى تعطيزت وما في الطير، فأردت أن أضرفه  
عن بعض وفمه، أن يكون الصيف قد أوقد عليه حراً، فحيثه، فانطلقتنا جميعاً إلى سطح  
البيت تستظل بظليه، ونشترون النساء، وأقبلنا نضحك ونبعض ونلهم من بعض اللهو،  
وإذا طاير بحوم يُصفق بجانحه، ثم زق فكسرها من الأحياء، ثم سقط، ثم درج، ثم  
اضطرب قد كاد يقتل الطئا، فجري إليه محمد ليأخذه فبيط طماماً، فخفف الطاير، فهو  
إليه محمد ليذركه؛ فما ترى - والله - محمدًا: قد اخْتطفه أجله، فهوى به إلى إنطب  
الدواب، فبعض بيته، فتبرعها، فتهيج، وإذا زين المواكب تحت سنابيكها تضرعه، فما أدركته  
- والله، يا أمير المؤمنين - إلا جنة قد ذهب رأسها، وما ترى إلا الدم رخصة الله عليه!  
لقد...

### [٣: مصيبة فساور بخل البطل أبي الشاب البيل]

قال أمير المؤمنين: إِنَّا لِهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ<sup>٣</sup> إِنَّا لِهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ فَكَيْفَ تَخْتَالُ  
هَذَا الْأَمْرِ، يَا ابْنَ أَبِي رَبِيعَةَ؟

فُلُّتْ: فِيمَ الْحِيلَةِ - يا أمير المؤمنين - وقد ذَهَبَ الْقَدَرُ يَا يُخْتَالَ لَهِ

فَقَالَ: أَمَا هُنَا أَنْتَ، يَا عُمَرًا تَفَتَّ وَسَارَ الرَّكْبُ! هَذَا أَبُوهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ شَيْخُ كَبِيرٍ  
يُوشكُ أَنْ يُصَابَ فِي تَفَسِّهِ!

فُلُّتْ: يَا أمير المؤمنين، هذا مصابه في ابنه، فما مصابه في نفسه؟ إِلا أَنْ يَكُونَ الْجَبَرُ إِذَا  
يَتَلَقَّ، وَسَأَخْتَالُ لَهُ.

قال أمير المؤمنين: مهلاً يا عُمَرُ، لقد علمت أن أبا عبد الله كان قد اشتكي بِرَجْلِه، وما  
زال يشتكي؛ فبينما تخن الساعة جلوس، إذ دخل علينا أبو الحَكْم الطَّيِّب التَّصَرَّاش،  
فاستأذنَتْ أبا عبد الله أن يدع أبا الحَكْمَ حتى يرى رجله، فما رأينا إلا أبو الحَكْمَ يقول إِلَيْهَا  
الأَخْلَةَ، وَإِلَيْهَا قَد ازْتَفَتْ ثُرِيدُ الرُّبَّةِ، وَإِلَيْهَا إِذَا بلَعَتِ الرُّبَّةَ أَفْسَدَتْ عَلَيْهِ جَسَدَهُ كُلُّهُ  
فَفَتَّلتَهُ، فَإِنَّمَا بُدُّ مِنْ أَنْ تَقْطَعَ بِرَجْلِهِ السَّاعَةَ خَشْيَةً أَنْ تَدِبُّ الْأَخْلَةَ إِلَى حَيْثُ لا يَنْتَعِنُ الْقَطْعُ  
وَلَا الْبَرُّ.

فَرَجَمْتُ وَاللهِ هَذَا الْبَلَاءَ، وَقَدْ اخْتَلَفَ بِالْقَدَرِ عَلَى شَيْخٍ مِثْلِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ فِي إِدْبَارِ مِنَ  
الْعُمُرِ. وَأَخَذَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَدِي، وَقَامَ، فَدَخَلَنَا عَجِيلُ الْمُخَلَّافَةِ، وَإِذَا وُجُوهُ النَّاسِ قَدْ  
جَأْسَوْا إِلَى عُرُوةَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ يُوَاسِوَهُ وَيُصَرِّهُ وَيُنَذِّرُهُ بِقَدَرِ اللَّهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، وَإِذَا  
فِيهِمْ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ أَخْرُو أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَعُمَرُ أَبْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَالْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ،  
وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْحَاطِبِ، وَقَدْ حَضَرَهُ وَلَدُهُ هِشَامٌ؛ فَأَرَمَ قَدْ اتَّسِفَ لَوْنُهُ

من المخزون على أخيه والرّحمة لأبيه. وأقبل أمير المؤمنين وأنا معه على عروة، فتفرق الناس إلى مجالسيهم، وإذا عروة كان ليس به شيء، يرى وجهه كأنه فلقة قمر وهو يضحك، ويقول:

لقد كرحت - يا أمير المؤمنين - أن يقطعوا مني عضواً يخطئ عني بغض ذنبي، فقد خذلنا أن أبا بكر قال:

يا رسول الله كيف الصلاح بعد هذه الآية: {لَئِنْ يَأْمُرُكُمْ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ يَفْعَلُ مِنْهُ يُجْزَى بِهِ}، فكل سوء عملناه جزينا به؟  
فقال رسول الله - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - : غَفَرَ اللَّهُ لَكَ، يَا أَبَا بَكْرًا أَنْتَ تَغْرُضُ؟  
أَنْتَ تَنْصَبُ؟ أَنْتَ تَخْرُنُ؟ أَنْتَ تُصْبِيُ الْأَوَاءِ؟

قال: بلى، يا رسول الله.

قال - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - : فَهُرُ ما تُخْبِرُنَّ بِهِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ بِذَلِكَ.

لَوْدَذْتُ - يا أمير المؤمنين - أَتَهَا بِقِيَتُ بِدَاهَا؛ فَهُنَّ كَفَّارٌ مُّكَفَّرُ الدُّنْبَ.

قال أمير المؤمنين: غَفَرَ اللَّهُ لَكَ، غَفَرَ اللَّهُ لَكَ وَمَا أَعْجَبَ لِصَنْرِكَ؛ فَأَمْلَكَ أَسْمَاءً بِنْتَ أَبِي بَكْرِ الصَّدِيقِ ذَاتَ النُّطَاقِينِ، وَأَبْوَكَ حَوَارِيُّ رَسُولِ اللهِ - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! - وَابْنَ عَيْنِهِ الرَّبِيعِ بْنِ الْعَوَامِ، فَرَضَيَ اللَّهُ عَنْكَ، وَأَرْضَاكَ، يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ!

[٤: قطع وجل البطل]

[٤ = صفة الطيب]

فَمَا كِدْنَا نَقُومُ حَتَّى أَفْلَأَ أَبْوَ الْحَكْمِ. وَهُوَ شَيْخُ نَصْرَانِي طَوِيلُ فَارِعٌ مَشْبُوخُ الْعِظَامِ، قَدْ مَخْدَدَ لَهُمْ، أَخْرَى أَزْهَرُ أَضْلَاعُ الرَّأْسِ إِلَّا شَعْرَاتٍ بِيَضَا قَدْ بِقِيَتُ لَهُ، كَثُرَ اللَّحْيَةُ طَوِيلُهَا، لَوْ ضَرَبَنَاهَا الرَّتِيقُ لَطَازَرَتْ بِهِ.

[٤ = يقين البطل]

وَدَخَلَ أَبُو الْحَكْمِ وَرَأَةَ لِيَتِيهِ وَهِيَ شَعْنَى بَنْ يَتِيهِ، حَتَّى وَقَفَ عَلَى عُرْوَةَ ابْنِ الرَّبِيعِ، فَقَالَ:

لَا بُدَّ مِمَّا لَيْسَ مِنْ بُدُّ - يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ - وَإِنِّي - وَاللَّهُ - لَأَرْجُوكَ، وَأَخْشَى أَنْ يَئُلَّعَ مِنْكَ الْجَهَنَّمُ، فَمَا أَرَى لَكَ إِلَّا أَنْ تَسْقِيكَ الْخَمَرَ حَتَّى لَا تَجِدَ إِلَيْهَا أَلْمَ القَطْعِ.

قال عُرْوَةُ: أَبْعَدَكَ اللَّهُ مِنْ شَيْخِ اِبْيَشِ - وَاللَّهُ - مَا رَأَيْتَ إِنَّا - وَاللَّهُ - مَا نُحِبُّ أَنْ يَرَانَا اللَّهُ بِحَيْثُ شَعْنَى بِحَرَابِهِ عَلَى مَا تَرْجُو مِنْ عَافِيَتِهِ

قال أَبُو الْحَكْمِ: فَتَسْقِيكَ الْمُرْقَدَ، يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ؟

قال عُرْوَةُ: مَا أُحِبُّ أَنْ أُشْلَبَ عُضُواً مِنْ أَعْصَانِي وَأَنَا لَا أُجِدُ أَلْمَ ذَلِكَ فَأُخْتَبِهِ عِنْدَ اللَّهِ.

قال أبو الحكّم: وَقَالَ اللَّهُ، يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ! لَقَدْ أَنْتَ مِنَ الْمُؤْلِيَّاتِ كَائِنٌ فَاسِيَّةً.  
ثُمَّ اتَّقَىَ أَبُو الْحَكَمِ إِلَى رِجَالٍ سُودٍ غَلَاظٍ شِدَادٍ قَدْ وَقَفُوا نَاجِيَّةً، فَقَالَ:  
أَقْلُوا.

فَأَقْبَلُوا؛ فَأَخْذَتْهُمْ عَيْنُ عُرْزَةٍ؛ فَأَنْكَرُوهُمْ، فَقَالَ:

مَا هُوَ لَكُمْ؟

فَقَالَ أَبُو الْحَكَمِ: يُعْسِكُونَكُمْ، فَإِنَّ الْأَمْرَ رِبِّيْهَا عَزَّزَ بِمَهِ الصَّبْرِ.

قال عُرْزَةُ: أَمَا كَتَفْلِيْعُ - أَيْهَا الشَّيْخُ - عَنْ بَاطِلِكَ الْأَنْصَرِ فَوَا، يَرَ حَكْمُ اللَّهِ! وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ  
أَكْفِيْكُمْ ذَلِكَ مِنْ تَفْسِيْرٍ. وَلَا - وَاللَّهُ - مَا يَسْعُنِي أَنْ هَذَا الْحَاطِطُ وَقَانِي أَذَاماً، فَأَخْتَلَ عَنِّي  
أَلْمَهَا. أَقْبَلْ يَا - أَبَا الْحَكَمِ - وَخُذْنِيْا جِئْتُ لَهُ: {رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مَنَادِيْنَا يَنْدَدِيْلِي لِلْجَاهَنَّمَ أَنْ آمِنْنَا  
بِرِّيْكُمْ لَقَاتَنَا رَبَّنَا فَأَفْغَرْنَا دُكُونَنَا وَكَفَرْنَا عَنْ سَيْنَانَا وَكَوْكَافْنَا مَعَ الْأَفْزَارِ} \* رَبَّنَا وَآتَنَا مَا وَخَدَنَا  
عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تَخْرِيْرَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَكَ لَا تَخْلِفُ الْمِيعَادَ}.

[٤ = ٣: مجلِّسُ القِطْعَى]

فَرَأَيْتُ أَبَا الْحَكَمِ وَقَدْ بَرَقَ وَجْهُهُ وَتَوَقَّدَ كَائِنًا أَشَلَّمْ بَعْدَ ثُكْرٍ، ثُمَّ تَسْرَرْ دُرْجًا كَانَ فِي  
يَدِهِ، وَأَخْرَجَ مِنْ شَارِعًا دَقِيقًا طَرْبِيلًا صَقِيلًا يَضْخَكُ فِي الشَّعَاعِ، وَوَضَعَ الطَّشَّتَ، وَمَدَّ أَبْو  
عَبْدِ اللَّهِ رِجْلَهُ عَلَى الطَّشَّتِ وَهُوَ يَقُولُ:  
بِاسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، {رَبَّنَا وَلَا  
تَعْمَلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَأَفْغَرْنَا عَنْا وَأَفْغَرْنَا دُكُونَنَا وَأَرْخَمْنَا}. تَقْدَمْ - يَا أَبَا الْحَكَمِ - فَقَدْ اخْتَسَبَهَا  
اللَّهُ.

فَمَا يَقْنِي - وَاللَّهُ - أَحَدُ فِي الْمُجْلِسِ إِلَّا اسْتَدَارَ، وَدَفَنَ وَجْهَهُ فِي كَفْنِيْهِ، وَبَسَّى الْقَوْمَ؛ فَعَلَا  
تَشِيْعُهُمْ، فَإِنَّ عَرْزَةَ لَسَايِنْ قَارِيْنَظَرٌ إِلَى مَا يُرَاذِبُهُ، وَكَائِنًا مَلِكَ قَذْ جَاءَ إِلَى الْأَزْضِي  
يَسْتَهْلِكُ الْأَمْتَهَا بِرُوحِهِ مِنَ السَّيَّاَهِ.

[٤ = ٤: عَمَلُ القِطْعَى]

وَوَضَعَ أَبُو الْحَكَمِ مِنْ شَارِعَهُ فِي الْأَنْجُمِ إِلَى الْعَقْلِمِ وَإِنَّ عَرْزَةَ لَصَاصِمَ يَوْمَهُ ذَلِكَ، /١/ فَإِنِّي  
تَضَوَّرْ وَجْهُهُ، /٢/ وَلَا تَبْعَسْ وَالْمِنْشَارُ يَأْكُلُ فِي عَظِيمِهِ الْحَنِيْ، /٣/ وَمَا يَرِيدُ عَلَى أَنْ يَهْلِلَ  
وَيَكْبِرْ وَيُسْبِحَ اللَّهُ، وَكَائِنَ الدَّارَ - وَاللَّهُ - /٤/ قَذْ أَضَاءَ جَوْهَرَهَا كَائِنَهُ شَعَاعٌ يَسْتَكِبُ مِنْ عَهْلِهِ  
وَتَكْبِيرِهِ، /٥/ وَدَخَلَ رِجَالٌ يَقْتَلُونَ مَغَارِفَ مِنْ حَدِيدٍ يَقُولُ مِنْهَا رِبْعُ الرَّيْنِ وَقَدْ غَلَ فِيهَا  
عَلَى النَّارِ، /٦/ وَدَنَوْ، /٧/ فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ فَرَغَ أَبُو الْحَكَمِ وَقَذْ فَارَ الدَّمْ مِنْهَا وَتَنَجَّرَ مِثْلَ  
الْأَيْتَبُورِ، فَأَخْلَأَهَا أَبُو الْحَكَمِ يَغْوُسُهَا فِي الرَّيْنِ، فَيَسْمَعُ تَشِيْعَهَا فِي حَسَنِ الدَّمِ، /٨/  
وَإِذَا عَرْزَةَ قَذْ غُشِيَّ عَلَيْهِ، /٩/ فَإِذَا وَجْهُهُ قَذْ صَفَرَ مِنَ الدَّمِ، وَقَذْ تَجِدَ؛ فَنَسَخَ وَجْهُهُ  
بِالْعَرَقِ، وَلَكِنَّهُ يَقْنِي مُشْرِقًا نَيْرًا يَرِفُ كَائِنَهُ عَرَازَةَ تَحْتَ النَّدِيِّ، /١٠/

[٤ = ٥: دَفْشَةُ الطَّيْبِ]

قال أبو الحَكَمْ:

ما رأيْتُ كَالْيَوْمِ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّهُ رَجُلٌ، وَإِنَّهَا الْحَقِيقَةُ الْمُؤْمِنَةُ، وَإِنَّ إِيمَانَهُ لَيَحْوِطُهُ،  
وَيَسْتَكْنُهُ، وَيَنْفَضُّ عَنْهُ الْجُنُونُ!  
ثُمَّ النَّصَّتَ إِلَى عُزْرَةَ يَقُولُ:

جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا، يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ الْأَكْثَرِ - وَاللَّهُ - يَتَّسَعُ الصَّيْرُ فِي إِهَابِ رَجُلٍ.

[٥: اُتْيَاةُ الْبَطْلِي إِلَى رِجْلِهِ الْمَقْطُوعَةِ]

وَمَا لَيْشَنا، حَتَّى إِذَا أَفَاقَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ جَلَسَ يَقُولُ:  
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ!

وَيَنْسَخُ عَنْ وَجْهِهِ النُّؤُمَ وَالْغَرَقَ بِكَفِيهِ، وَيَنْظُرُ، فَيَرَى قَدَمَهُ فِي يَدِ رَجُلٍ يَهُمْ أَنْ يَخْرُجَ  
بِهَا؛ فَيَنْادِيهِ:

عَلَى رَشِيلَكَ، أَيُّهَا الرَّجُلُ! أَرِنِي مَا تَحْمِلُ!

يَأْخُذُ قَدَمَهُ فِي يَدِهِ، فَيَرْتَنُ إِلَيْهَا وَقَدْ سَكَنَ وَحْرَكَ شَفَقَتِيهِ، ثُمَّ يَقْلِبُهَا فِي يَدَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ  
هَمَا:

أَمَا وَالَّذِي حَلَّنِي عَلَيْكَ، لَقَدْ عَلِمْتُ أَنِّي مَا تَشَيَّنَتِ بِكَ إِلَى حَرَامٍ وَلَا مُعْصِيَةِ اللَّهِ،  
هَذِهِ نِعْمَةٌ أَنْتَعْمَتْ بِهَا عَلَيَّ، ثُمَّ سَلَبَتْهَا، أَخْتَبَسَهَا عِنْدَكَ رَافِيًّا مُطْمِئِنًّا؛ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ  
الرَّحِيمُ. خُذْهَا، أَيُّهَا الرَّجُلُ.

ثُمَّ أَضَاءَ وَجْهَهُ بِالْأَيَّانِ وَالصَّيْرِ عَنْ مَثْلِ الدُّرَّةِ فِي شَعَاعِ الشَّمْسِ. قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ:  
غَفَرَ اللَّهُ لَكَ، يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ وَإِنَّ فِي النَّاسِ لَمَّا هُوَ أَعْظَمُ بَلَةً مِنْكَ. يَا عُمَرُ، نَادَ الرَّجُلَ  
مِنْ أَخْوَاهِي.

فَيَقُولُ عُمَرُ وَمَعْهُ رَجُلٌ صَرِيرٌ مُخْطُومُ الْوَجْهِ لَا تُرِي إِلَّا دَمَائِهِ، فَيَقُولُ لَهُ أَمِيرُ  
الْمُؤْمِنِينَ:

حَدَّثَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ بِخَيْرِكَ، يَا أَبَا صَفَصَعَةَ.

[٦: تَخْفِيفُ مُصَبِّيَّ الْبَطْلِي بِرِجْلِهِ]

فَيَأْتِيَتِ الرَّجُلُ إِلَى عُزْرَةَ، وَيَقْبِلُ عَلَيْهِ، فَيَقُولُ:

ابْنُ الزُّبَيرِ، قَدْ - وَاللَّهُ - لَقِيتُ الْبَلَاءَ، يَا قَيْمَةَ الْمَدِينَةِ وَابْنَ حَوارِيِّ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ، وَسَلَّمَ! وَإِنِّي - وَاللَّهُ - مُحَدُّثُكَ عَنِي بِخَبْرِي؛ عَسَى أَنْ يَرْفَعَ عَنْكَ؛ فَقَدْ بَثَثْتُ لَيْلَةَ فِي  
بَطْنِ وَادٍ، وَلَا أَعْلَمُ عَبْسِيًّا فِي الْأَرْضِ يَرِيدُ مَالِهِ عَلَى مَالِي، فَطَرَقَنَا سَيِّلٌ جَارِفٌ كَانَهُ  
الْطَّوْفَانُ، يَنْقَاذُفُ بَيْنَ يَدَيْهِ مَوْجًا كَالْجَبَالِ؛ فَلَمَّا بَيْمَا كَانَ لِي مِنْ أَهْلٍ وَمَالٍ وَوَلِيدٍ، إِلَّا  
صَبِيًّا مَوْلَدًا وَيَعِيرًا يَنْضُوا ضَعِيفًا، فَنَدَّ الْتَّعْبُرُ يَوْمًا وَالصَّبِيُّ مَعِي، فَوَضَّعْتُهُ، وَأَتَبَعْتُ الْتَّعْبُرَ

أطْلَبْهُ، فَمَا جَاءَرْتُ ابْنِي قَلِيلًا إِلَّا وَرَأَسُ الدُّنْبِ فِي بَطْنِهِ، فَذَدَّ بَعْجَجَهَا بِأَثْيَابِ الْعُضُلِ، فَاسْتَأْشَى  
أَخْشَاءً، وَإِنَّ الصَّغِيرَ لِيَصْرُخُ، وَيَرْكُضُ بِرِجْلِيَّهُ الْأَرْضَ؛ فَذَكَرْتُ - وَاللهُ - أَسْوَخَ فِي  
الْأَرْضِ عِمَارًا يَأْتِي، وَلِكِنِي ذَكَرْتُ اللهَ، وَاسْتَعْتَهُ، وَاحْسَبْتُ الصَّغِيرَ، فَتَرْكُمُهُ لِقَدِيرِ اللهِ،  
وَأَبْيَغْتُ الْبَعِيرَ، فَهَمَمْتُ أَحْذُ بِلَدِي وَفَدَ أَذْرُكُمُهُ، فَرَحْتُنِي رَعْةٌ حَطَمَ بِهَا وَجْهِي وَأَذْعَبَ  
عَيْنِي، فَأَضْبَخْتُ لَا ذَا مَالٍ وَلَا ذَا وَلَدٍ وَلَا ذَا بَصِيرٍ، وَإِنِّي أَحْمَدُ اللهَ إِلَيْكُمْ، يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ،  
فَاضْبَرْتُ عَلَى مَا أَصَابَكَ؛ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأَمْرِ.

قَالَ عُرْوَةُ: لَقَدْ أَفْضَلَ اللهُ عَلَيْكُمْ، يَا أَبَا صَفَصَعَةَ، وَإِنِّي لَأَزْجُو لَكَ الْجَنَّةَ.

قَالَ عُمَرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ: وَلَا يَخْلُقُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ أَقْبِلُ، فَذَنَبْتُ إِلَيْهِ، فَأَسْرَ إِلَيْهِ:  
إِنِّي أَرَدْتُ الْحِيلَةَ فَقَدْ أَنْكَشَّتُكَ، فَأَذْعَبْتُ إِلَيْهِ أَبِي عَبْدِ اللهِ، فَانْتَهَى إِلَيْهِ وَلَدُهُ زَيْنُ الْمُواكِبِ.  
فَلَمْ: هُوَ - وَاللهُ - الرَّأْيُ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.

[٧: إِطْلَاعُ الْبَطْلِي عَلَى مُصِبَّةِ مَوْتِ ابْنِهِ]

ثُمَّ مَضَيْتُ إِلَى عُرْوَةَ وَقَدْ غَلَبْتِي عَيْنِي بِالْبَكَاءِ، فَلَمَّا قَارَبَهُ فَلَمْ:

عَزَاءَكَ، يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ!

فَقَالَ عُرْوَةُ: فِيمَ تُعَزِّيَنِي، يَا أَبَا الْخَطَابِ؟ إِنِّي كُنْتُ تُعَزِّنِي بِرِجْلِي فَقُدِّرَ احْسَبْتُهَا اللهُ.

فَلَمْ: رَضِيَ اللهُ عَنْكَ، يَا أَبَتْ وَأُمِّي، بَلْ أَعْزِيزُكَ بِرَبِّنِ الْمُواكِبِ.

فَدُهِشْتُ، وَتَلَقَّتُ، وَلَمْ يَرِدْ إِلَّا هِشَامًا وَلَدُهُ، فَرَأَيْتُ فِي وَجْهِهِ الْمُغْرِفَةَ، ثُمَّ هَدَأَ، فَقَالَ:  
مَا لَكَ، يَا أَبَا الْخَطَابِ؟

فَجَاهَتْ إِلَيْهِ، وَمَحَاجَلَ النَّاسَ حَوْلَيْنَا، وَتَكَبَّرُونَا، وَأَخْدَثْتُ أَحْدَهُ بِشَائِهِ، وَوَاللهِ مَا يَرِيدُ  
عَلَى أَنْ يَقُولَ:

لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ

فَلَمَّا فَرَغْتُ مِنْ تَبَرِّي ما زَادَ عَلَى أَنْ قَالَ:

وَكُنْتُ إِذَا الْأَيَامُ أَخْدَثْنَاهُ إِلَيْكَ أَقُولُ شَوَّى مَا لَمْ يُوصِّنَ حَمِيمِي  
ثُمَّ رَفَعَ وَجْهَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَقَدْ تَنَاهَتْ عَيْنَاهُ، ثُمَّ قَالَ:

اللَّهُمَّ، إِنَّهُ كَانَ لِي أَطْرَافُ أَزْيَعَةَ، فَأَخْدَثَتْ وَاحِدًا، وَأَبْقَيْتَ لِي تَلَاثَةَ، فَلَكَ الْخَنْدُفِيَا

أَخْدَثَ وَأَبْقَيْتَ - اللَّهُمَّ - أَخْدَثَ عُضُورًا، وَتَرْكَتَ أَعْضَاءَ، وَأَخْدَثَتَ ابْنَا، وَتَرْكَتَ أَبْنَاءَ.

وَإِنِّي اللهُ أَتَيْتُكَ أَخْدَثَ لَقَدْ أَبْقَيْتَ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ لَطَلَاماً عَاقِبَتْ، سُبْحَانَكَ - رَبِّنَا - إِلَيْكَ

الْمُصْرِ. قَوْمًا إِلَى جَهَازِ أَخْيَكُمْ بِرِحْكُمُ اللهُ، وَأَنْظَرُوا، لَا تَكُونُ عَلَيْهِ نَائِحَةٌ وَلَا مُنْوَلَةٌ؛

فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ، وَسَلَّمَ - أَتَى عَنِ النُّبُوَّةِ، وَمُرْوُهُنَّ بِالصَّبَرِ لِلصَّدَمَةِ؛ فَإِنَّ

رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ، وَسَلَّمَ - أَتَى عَلَى امْرَأَةٍ تَبْكِي صَبِيبًا لَهَا، فَقَالَ لَهَا:

أَنْقِي اللهُ، وَأَضِيرِي!

فَقَالَتْ: وَمَا تُبَالِي بِمُصَبِّبِي

فَلَمَّا دَهَبَ قِيلَ لَهَا:

إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ، وَسَلَّمَ!

فَأَخْدَدَهَا مِثْلَ الْمُؤْتَمِ؛ فَأَكَّثَ بَاهِهِ، فَلَمْ تُجِدْ عَلَى بَاهِهِ بَرَابِينَ، فَقَالَتْ:

يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَمْ أَعْرِفْكَ، فَقَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ، وَسَلَّمَ - :

إِنَّمَا الصَّبَرُ عِنْدَ أَوَّلِ الصَّدْمَةِ.

وَجَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا عَنِي وَعَنْ وَلَدِي، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! {فَلَلَّهِ الْحَمْدُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ  
الْأَرْضِ رَبُّ الْعَالَمِينَ • وَلَهُ الْكِبْرَىءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْغَفِيرُ الْحَكِيمُ}.

### جِوامِعُ النَّصَّيْنِ

[٦] نص الرافعي إحدى وتسعون وثمانية وألف (١٨٩١) كلمة كتابية<sup>٣٣</sup>، ونص شاكر ثمانون وثمانية وألف (١٨٨٠)، يكادان يتطابقان؛ ففرق ما بين مقداريهما من الصالحة بحيث لا يُعتبر له.

يبدو نص الرافعي «مُؤْعِظَةً» منسوبة إلى أبي علي الروذبادي الذي لم يتردد له علينا ذكر حتى نعرفه، ويبدو نص شاكر «رسالة» منسوبة أبي الخطاب عمر بن أبي ربيعة الشاعر الغزل الشهير الذي صار اسمه رمزاً فنياً شعرياً، وفي الأمرين القصد نفسه: أراد الرافعي أن يتباهى المتلقين على أن من رجال الثقافة العربية الإسلامية الكبار مغامير كالمشاهير، بل أكثر، ليقتدوا بهم، ويعرضوا نفوسهم على أقوالهم وأفعالهم وإقراراتهم وعلومهم ومعارفهم وخبراتهم، وينصتوا لهم، حتى إذا ما كشفوا لهم من أسرارها ما استغلوا عليهم وعلى مشاهير من قصدهم، رجعوا إليهم، وتعلقا بهم، وتعجبوا كيف يخرج ذلك كله عن أهلوا معرفتهم، وأيقنوا أن قد جهلوا في غير مجھلٍ، وشكروا في غير مشكٍ، وزهدوا في غير مزهدٍ!

كان الرافعي حريصاً على معنى المدرسة الثقافية الواحدة؛ فقد أجلس التلميذ مجلس أستاذه، ثم رَوَاه عنه بِرَا بِذِكْرِاهِ، وكأنها يحدُّر المتلقين إذا أهملوا ذلك المعنى، أن يتقطع فيهم ما بين التلامذة والأساتذة (الحاضر والماضي)، حتى يقول بعضهم تيها وعقوقا وجهلاً ونكراناً: نحن جيل لا أستاذة لنا!

واعتنى الرافعي بمعنى العلم كثيراً، ولا سيما تلقيه كفاحاً تطبيقاً؛ فجعل راويته التلميذ البار، يمار في علم مسألة عريضة؛ فيرحل في طلب علمها. وألح على ضرورة ملزمة الأستاذ العالم العامل، الذي يدل عمله بعلمه على صدق إيهانه به.

وأراد شاكر أن ينبه المتلقين على أن من صفات رجال ثقافتنا العربية الإسلامية الكبار، مقامير كالمشاهير، بل أرسخ، ليقتدوا عنها، ويعرضوا عليها تصوراتهم السابقة، وينصتوا لها، حتى إذا ما كشفت لهم من أسرار أصحابها ما استخفوا عليهم، رجعوا إليهم، وتعلقوا بهم، وتعجبوا كيف جعوا في نفوسهم ذلك كله الذي أهملوا معرفته، وأيقنوا أن قد جهلوا في غير مجھلٍ، وشكروا في غير مشكُّ، وزهدوا في غير متزهدٍ!

يظل متلقو نص شاكر كلما اختلفت أحداه وأشخاصه ومواقه، يعودون إلى راويته المنفرد بعلمه، الشاعر المنقطع عندهم للغزل الصريح، ليحكموا عليها حكمهم عليه؛ فربما قال بعضهم: إذا كان مثل هذا الشاعر المنقطع للغزل الصريح، هذا الإحسان العالى بالثقافة العربية الإسلامية، فكيف بغيره من العلماء المنقطعين للبحث، والزهاد المنقطعين للعبادة، وغيرهم!

كان شاكر حريصاً على معنى انتهاء الفنان الثقافي؛ فقد أشعر الشاعر العربي المسلم الكبير، المنقطع للغزل الصريح، بمشاعر عالية من الإيمان والإحسان، وكأنها يمنى فناني المتلقين، أن يتلمسوا أول طريق الفن العربي الإسلامي، عند أول طريق الكفر والفسوق والعصيان<sup>(٣)</sup>!

ومعنى الانتهاء الثقافي الذي حرص عليه شاكر، كمعنى المدرسة الثقافية الثقافية الواحدة الذي حرص عليه الرافعى، فإن كان معنى شاكر أشمل وأعمق وأعلى من معنى الرافعى، فإن معنى الرافعى من سبل بلوغ معنى شاكر.

## فُصُولُ الأَخْدَاثِ خُضُورُ الْأَغْلَامِ

[٧] أَدار الرافعِي أَحداثَ نصِه عَلَى ثَمَانِيَّةِ شَرِيكٍ مِنْ أَعْلَامِ الْعِقِيدَةِ وَالسُّلْطَانِ وَالزَّهْدِ وَالْعِزِّ وَالْعِلْمِ وَالذَّلِّ<sup>(١)</sup>. وَأَدار شَاكِرُ أَحداثَ نصِه عَلَى سَبْعَةِ شَرِيكٍ مِنْ أَعْلَامِ الْعِقِيدَةِ وَالزَّهْدِ وَالسُّلْطَانِ وَالْحَرْبِ وَالْغَزْلِ وَالْفَتْرَةِ وَالْعَدْلِ وَالْهَمَّةِ وَالْعِزِّ<sup>(٢)</sup>. إِذَا كَانَ تَعْرِيفُ بَعْضِ النَّحْوِينَ لِلْعَلَمِ بِأَنَّ «مَا وُضِعَ لِئَنِّي وَبَعْنِي غَيْرُ مُتَنَاهِلٍ عَيْرِهِ بِوَضِيعٍ وَاحِدِي»<sup>(٣)</sup>، وَاضْطَجَعَ الْعَلَاقَةُ بِمَعْنَى «الْعَلَامَةِ» الْمَعْجمِيِّ الْوَارَدِ فِيهِ - فِمَكَانَةِ الْعِلْمِ فِي نَصِيِّ الرَّافعِيِّ وَشَاكِرٍ، أَعْلَقَ بِمَعْنَيهِ هَذِينَ الْمَعْجَمَيْنَ<sup>(٤)</sup>:

- ١ «شَيْءٌ يُنْتَصِبُ فِي الْفَلَوَاتِ تَهْتَدِي بِهِ الضَّالَّةُ».
- ٢ «الرَّاِيَةُ الَّتِي تَجْتَمِعُ إِلَيْهَا السُّجُنُ».

فَلَمْ يَرِدِ الرَّافعِيُّ وَشَاكِرُ حِينَ أَدَارُاهُ عَلَى تَلْكَ الْأَعْلَامِ أَحداثَ نصِيهِمَا، إِلَّا أَنْ يَنْصَبَا مَنَارَاتٍ عَلَى طَرَقِ الْمُتَلَقِّينَ الْمَسَافِرِينَ، وَرَايَاتٍ أَمَامِ جَيُوشِ الْمُتَلَقِّينَ الْمُجَاهِدِينَ، يَتَبَهَّوْنَ بِهَا، وَيَقِيسُونَ أَنفُسَهُمْ إِلَيْهَا، حَتَّى يَعِيشُوا هَذِهِ الْحَيَاةِ الْوَاحِدَةِ، كِرَاماً مِيزَانًا. إِنَّا إِذَا تَأَمَّلَنَا بَنِيَانَ الثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ - وَمُثْلُهَا سَائرُ الثَّقَافَاتِ - وَجَدْنَا الْعِقِيدَةَ قَلْبَهُ - فَهِيَ الَّتِي تَحْرُكُ الْإِنْسَانَ الْعَرَبِيَّ الْمُسْلِمَ إِلَى عِلْمِهِ وَمَعْرِفَتِهِ وَخَبَرَاهُ وَأَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَإِقْرَاراتِهِ - ثُمَّ وَجَدْنَا السُّلْطَانَ مَظَهِرَ تَلْكَ الْعِقِيدَةِ؛ فَكُلُّ عِقِيدَةٍ لَا سُلْطَانٌ لَهَا عَلَى مُعْتَقَدِيهِ وَهُمْ مِنَ الْأَوْهَامِ، حَتَّى شَاعَتْ فِي الثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَبَارَةً «إِنَّ اللَّهَ لَيَرِعُ بِالسُّلْطَانِ مَا لَا يَرِعُ بِالْقُرْآنِ»، ثُمَّ وَجَدْنَا الزُّهْدَ مِنْهُجَ الثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْجَمْعِ بَيْنَ الْعِقِيدَةِ وَالسُّلْطَانِ، حَتَّى شَاعَتْ عَبَارَةُ السُّؤَالِ وَالْجَوابِ «قَيْلَ: مَنِ الْمُلُوكُ؟ قَالَ: الرُّهَادُ».

وَلَقَدْ اجْتَمَعَ كَاتِبَانَا عَلَى ضَرُورَةِ تَثْقِيفِ الْمُتَلَقِّينَ؛ فَتَحْرِبَا اسْتِعْبَالِ أَعْلَامِ الْعِقِيدَةِ وَالسُّلْطَانِ وَالزَّهْدِ، تَحْرِبَا وَاحِدًا؛ فَكَانَتْ عِنْدَ كُلِّ مِنْهُمَا ٧٥٪ وَهُوَ تَطَابِقُ عَجِيبًا، لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ مَدْرَسَةِ وَاحِدَةٍ، فِيهَا الإِسْتَاذُ وَالْتَّلَمِيذُا

وَلَكِنْ فِي خَلَالِ ذَلِكَ كَانَتْ أَعْلَامُ الْعِقِيدَةِ عِنْدَ الرَّافعِيِّ ٢٥٪، وَأَعْلَامُ السُّلْطَانِ ٢٥٪، وَأَعْلَامُ الزَّهْدِ ٤٪ - عَلَى حِينَ صَارَتْ أَعْلَامُ الْعِقِيدَةِ عِنْدَ شَاكِرٍ ٤٢٪، وَأَعْلَامُ السُّلْطَانِ ١٣٪، وَأَعْلَامُ الزَّهْدِ ١٩٪؛ فَعَلِيَّ حِينَ تَطَابَقَتْ عِنْدَ الرَّافعِيِّ أَوْلَى مِنْزَلَتِهِ أَعْلَامُ الْعِقِيدَةِ وَالسُّلْطَانِ، فَنَتَلَتْهَا قَرِيبًا مِنْزَلَةُ أَعْلَامِ الزَّهْدِ - ظَهَرَتْ عِنْدَ شَاكِرٍ أَوْلَى مِنْزَلَةُ أَعْلَامِ الْعِقِيدَةِ، ثُمَّ نَتَلَتْهَا بَعِيدًا مِنْزَلَةُ أَعْلَامِ الزَّهْدِ، فَنَتَلَتْهَا مِنْزَلَةُ أَعْلَامِ السُّلْطَانِ.

ربما كانت في ذلك دلالة على تطور رأي التلميذ قليلاً بعد اختبار رأي الأستاذ في مدرسة الحياة التي أمامه؛ فلقد كانت مجموعة مقالات الرافعي «وحي القلم»، في العقد التالي لسقوط الخلافة، وفيه يقى الناس متعلقين برجوعها، حتى عقدوا الآمال على من لا يستحق، من مثل كمال أناتورك؛ فربما كان ذلك وراء تطابق متزلسي العقيدة والسلطان عند الرافعي، حتى إذا ما جاء شاكر بعد ذلك، وانكشف خداع أناتورك الذي لم ينفع منه كثير من العلماء الكبار، حتى الشيخ محمد وكيل الأزهر، أبو شاكر - لم يستره ما استثار أستاذته، وارتاح إلى تصحيح العقيدة، وإلى منهج الجمع بين العقيدة والسلطان من قبل تولي السلطة.

وكذلك كانت أعلام العقيدة عند الرافعي، اسمها واحداً، وأعلام السلطان أربعة أسماء، وأعلام الزهد خمسة أسماء - على حين صارت أعلام العقيدة عند شاكر خمسة أسماء، وأعلام السلطان اسمين اثنين، وأعلام الزهد اسمين اثنين.

ربما كان أحد الأسماء أكثر استعمالاً أو أغلب، ولكن لا ريب في أن إكثار الأسماء من سياسة الدعوة والحرص على المعنى؛ فلذا كانت أعلام العقيدة عند شاكر أكثر من أعلام غيرها؛ فربما احتاج الناس إلى قرآن يمشي على الأرض فكان رسول الله - صل الله عليه، وسلم - وكان صحابته - رضي الله عنهم - على حين لم يتبع الرافعي لذلك المعنى السياسي الدعوي.

ولكن في خلال ذلك غلت آنفكار الزهد (العفة والجلد والصبر) على رسالتى النصين، بعد ما ظار في أرجانهما نفس كريم من أخلاق الزاهدين العالية، فكان الرافعي أحلى في الأعلام بذلك من شاكر؛ إذ أدار أحداث نصه على خمسة من أعلام الزهاد، ولم يدرها شاكر إلا على علمين اثنين فقط.

### صوتا الكاتبين

[٨] إذا كان نص الرافعي موعظة قصصية نسبها إلى أبي علي، ونص شاكر رسالة قصصية نسبها إلى أبي الخطاب، وقامت في مقام المطلع على موعظة الواقع ورسالة المرسل كلتيها،رأيت نص شاكر أكثر ملاءمة لطبيعة الرسالة من ملاءمة نص الرافعي لطبيعة الموعظة.

لقد كان شاكر كأنه وقع على كتاب «مذكرات عمر بن أبي ربيعة» حقاً؛ فأنسع ينقل منه دون أن يضيف إليه إلا عبارة «قال عمر بن أبي ربيعة» التي صدرّ بها الرسالة - على حين خلط الرافعي طبيعة نص شاكر؛ فتكلّم هو من دون أن يشبه عمر بن أبي ربيعة اشتراكاً ولا استئناعاً، حتى استولى على الفصلين الأول والثالث كلتيها وعلى

نصف الفصل الرابع، فإذا أراد أن يُنطِّق الوعاظ عاد بجملة «قال أبو علي»، وإذا استطال كلام الوعاظ نفسه زاد فعل القول الماضي «قال» على مثل ما نجد في مجلسيات الأصفهاني بـ«الأغاني» مثلا؛ فـ«قال» هذا، كان القدماء ينهون المتلقين على استمرار كلام الراوي.

لقد كتب الراافي نصوص هذا الأسلوب التي منها نصنا، في عقده السادس الأخير (١٩٣٧-١٩٣٠م)<sup>٤٠</sup>، وكان في شيخوخته، وكتب شاكر نصوص الأسلوب نفسه التي منها نصنا، في عقده الرابع (١٩٤٩-١٩٣٩م)<sup>٤١</sup>، وكان في شبابه؛ فكأنما أراد شاكر أن يخفف من شأن نفسه، ويُحيِّر جها من البَيْن؛ فقد ظهر الراافي بصوته العالي، مظاهر مُتعلِّم المتلقين الذي يشرح لهم رأيه هو ومذهبه، وكأنه صوت الحقيقة المطلقة، قد حضرت تشهد!

ثم لا ريب في ملامدة شاكر لتيار الواقعية الغالب على عصره آنذاك، بتحرري إخراج القصة من الحياة كما تكون فيها، ثم على طريقة المذكرات التي لا ينفعها عجبى من قبول شاكر أن يستعملها في توجيه أعماله، وليس ما رأيناه يعجبه، ولو عُرِضَت عليه في أواخر عمره لجعلها من رقاعات المتأخرین!

### تفصيل الفصول

[٩] أفرد الكتابان عدد فصول النصين (سبعة فصول)، وكأنما حرصا على منهج التدوير الجدير بشدة التأثير؛ فمهما تَشَعَّبت أفكار رسالة النص، وتَفَصَّلت بها الفصول، تَلَاقَت في فصل يغلق دائرتها ويحکم رسالتها، مختلف المتلقون في تعينه، ولكن يغلب أن يكون الأخير.

اتفق الكتابان على أن يَتَّسِّيا إلى المتلقين، بمفهوم الموت في الثقافة العربية الإسلامية؛ فمنذ أوصى سيدنا أبو بكر، سيدنا خالد بن الوليد - رضي الله عنها! - حين يُعْشَى إلى المرتدين، وصيّه الجليلة الخالدة: «اَخْرِضْ عَلَى الْمَوْتِ تَوْهِبْ لَكَ الْحَيَاةُ»، فَعَوَّلَ بها، حتى قال في موته مقالته الجليلة الخالدة: «لَقَدْ لَقِيتُ كَذَا وَكَذَا رَخْفًا، وَمَا فِي جَسَدِي مَوْضِعٌ شَيْءٌ إِلَّا وَفِيهِ حَزْنٌ أَوْ طَمْعٌ أَوْ رَمْيَةٌ، وَهَا أَنَا ذَا أَمْوَاتُ حَنْفَ أَنْفِي كَمَا يَمُوتُ الْعَيْنُ؛ فَلَا نَاتَتْ أَعْيُنُ الْجَبَّانِ» - جرى مجراه القائد العربي المسلم، حتى كان يفتح عقول الملوك قبل فتح بلادهم، بمقالته الجليلة الخالدة: «إِنْتُمْ يَجْنِدُونَ الْمَوْتَ كَمَا تُجْنِبُونَ الْحَيَاةَ»!

لقد تَبَسَّتِ الكاتبين حَالُ القائد العربي المسلم، نَفْسُهَا؛ فَأَقْبَلَ بِجِيَطَانِ نصِيهَا بِدَائِرَةِ مِنَ الْمَوْتِ مُحَكَّمةً:

أما الرافعي فقد عَرَضَ بَطْلَهُ لِلْفَتْرَاسِ في الفصل الأخير، ولم يُفْرَسْ، ولكنه أفاد في مقام موته في الفصل الأول؛ فجعل الفصل الأول نتيجة الفصل الأخير؛ فلو لم يفهم البطل حقيقة حياته ما فهم الناس حقيقة موته، ولبقي متلقون النص يتذمرون أن تزديهم القصة إلى موته! ولقد اتفقت بين الفصلين الأول والأخير، عبارتا الكاتب عن دهشة الناس من حياة البطل ومن وفاته جميعاً؛ فإذا تأملنا قوله من الفصل الأخير:  
«جَعَلَ كُلُّ مِنَا يَظُنُّ ذَلِكَ فِي تَفْكِيرِهِ: فَمَنْ قَاتِلٌ (... ) وَقَاتِلٌ (... ) وَثَالِثٌ يَقُولُ (... ) وَرَاعَمْ جَمَاعَةً (... )».

#### وقوله من الفصل الأول:

«كَانَ يَوْمَهُ (... ) مَا يَقْرَئِي أَحَدٌ إِلَّا افْتَنَعَ أَنَّهُ فِي شَهَوَاتِ الْحَيَاةِ وَأَبَاطِيلِهَا كَأَلْأَعْمَى فِي سُوءِ تَحْيِيزِهِ بَيْنَ لَوْنِ التَّرَابِ وَلَوْنِ الدَّقَّيقِ».

رأينا الشهود فيها يفكرون في كل وجه إلا الحقيقة. وربما كان من ملامهة كل عبارة لفصلها، أن تكون عبارة الفصل الأول، من تفصيل إجمال ما قبلها، وعبارة الفصل الأخير، من إجمال تفصيل ما بعدها؛ فقد كان فصل القصة الأخير مبدأ حياة البطل الحقيقة، وفصلها الأول متهاها!

وأما شاكر فقد بدأ نصه بمصيبة موت ابن البطل، ثم لم يطلعه عليها إلا في الفصل الأخير؛ فكان مثل الرافعي في جعل الأول للمتألقين خاتمة الأخير. ولقد اتفقت كذلك بين الفصلين الأول والأخير، عبارتا الكاتب عن أثر مصيبة الموت؛ فإذا تأملنا قوله عن عمر بن أبي ربيعة، في الفصل الأخير:  
«قَدْ غَلَبْتُنِي عَيْنَايِي بِالْبَكَاءِ».

وقوله عنه في الفصل الأول: «كَانَ فَارَقْتَنِي الرُّوحُ».

رأينا في الفصلين وهو من الشهود، مفعولاً به، مغلواً على أمره؛ تغلبه عيناه أخيراً، وتغلبه روحه أولاً! وربما كان من ملامهة كل عبارة لفصلها، أن يكون فاعل عبارة الفصل الأول باطنياً («الروح»)، وفاعل عبارة الفصل الأخير ظاهرياً («عييناي»)؛ فقد كانت الورطة في الفصل الأول على عمر بن أبي ربيعة الرواية نفسه، وفي الفصل الأخير على غيره!

## ترتيب الفصول

[١٠] ومن باب الحرص على منهج التدوير السابق، أن جعل الرافعي في فصل «تعريف البطل للاقتراس»، أفح الأحداث (الحدثان)، وأشدها تأثيراً في المتلقين، ثم جعله سابعاً خاتمة الفصول وأكبرها، وصعد إليه بها قليلاً قليلاً:

٣٠٦	٤٤٢	الفصل الأول ١٢٤ كلمة كتابية	الفصل الثاني ٧٦ كلمة كتابية
		الفصل الثالث ٢٣٠ كلمة كتابية	الفصل الرابع ١٩٤ كلمة كتابية
		الفصل الخامس ٢٤٨ كلمة كتابية	الفصل السادس ٤٩٨ كلمة كتابية
		الفصل السابع ٥٢١ كلمة كتابية	

فإن بدت أطروحاً مضطربة، ففي كون ثالثها بمنزلة التعليق على ثانية، ورابعها بمنزلة المقدمة الخامسة، ما يوضح تصاعدها.

وجعل شاكر في فصل «قطع رجل البطل»، أفح الأحداث (الحدثان) كذلك، وأشدها تأثيراً في المتلقين، ثم جعله رابعاً واسطة الفصول السبعة وأكبرها، من قبله ثلاثة ومن بعده ثلاثة، وصعد إليه بها قبله، ثم صعد مرة أخرى بها بعده إلى حدث آخر على جهة مضاعفة المصائب:

١٤٩	٣٠٤	الفصل الأول ١٤٩ كلمة كتابية	الفصل الثاني ٣٠٤ كلمة كتابية
		الفصل الثالث ٣٩٦ كلمة كتابية	الفصل الرابع ٤٠٨ كلمة كتابية
		الفصل الخامس ١٤٨ كلمة كتابية	الفصل السادس ٢٠٩ كلمة كتابية
		الفصل السابع ٢٦٦ كلمة كتابية	

من دون أن يكون الفصل الأخير (فصل الحدث الزائد)، أطول من الفصل الرابع (فصل الحدثان)، على رغم ما فيه من مضاعفة المصائب؛ فلن مصيبة الموت أزلية أبدية. ثم إن المتكلمين كانوا قد عرروا مصيبة الموت في الفصل الرابع (فصل الحدثان)؛ فكان فيه المراد كله، ولكن الكاتب تحرك على طبيعته؛ فصعد إلى مجتمع المصائب عند البطل، مثلاً صعد له عند المتكلمين.

### نشج التصين

[١١] كان فصل الراافي الأول نظرة خارجية كلية، ربط فيها المتهى بالمبتدأ، لم يجد من شخصوص قصته من يتذكر هذه النظرة، فنظر لها لم، قائلاً: «جلَسَ أَبُو عَلَيْهِ الْحَمْدُ بْنُ مُحَمَّدَ الرَّوَذَبَادِيُّ الْبَعْدَادِيُّ فِي مَجْلِسٍ وَعَظِيَّهُ بِوَضْرٍ بَعْدَ وَفَاءَ شَيْخِهِ أَبِي الْحَسَنِ بْنِ الْحَمَالِ الرَّاهِيدِ الْوَاسِطِيِّ شَيْخِ الدِّيَارِ الْمَصْرِيَّةِ». ثم كان فصل شاكر الأول كلمة داخلية عجمة، أطلق بها أحد شخصوص قصته، قائلاً: «... فَيَا ذَرْتُ أَعْذُو بِكَادِ يَنْشُقُ عَلَيَّ جَلْدِي مِنْ شِدَّةِ الْعَذْوِ».

جملة أول فصل الراافي الأول، فعلية ماضوية هادئة مطمئنة، مفصول تسبباً فاعلها تصصيل كتب الأنساب، تحتاج قارتها إلى تمهل كثير، نبه بها المتكلمي على معنى المدرسة السابق ذكره. وجملة أول فصل شاكر الأول، محدوفة في جملة كثيرة سترث في الفصل الثاني، مذلولة عليها بناء عطف الجملة الثانية الفعلية الماضوية الشائرة القلقة، ألقى بحذفها المتكلمي في جمري الأحداث.

وإن في هذا وذاك، لعلامة أولية مهمة، على منهجي نشج التصين:

١ الإشتياطانُ المثاليُ الصوقيُ: منهج من الإمعان في تتبع دقائق الصفات الكامنة في العناصر القصصية، يتحرك حركة عمودية من أعلى إلى أسفل، ومن أسفل إلى أعلى، دوائرية.

٢ الإشتياطانُ الواقعُ الفنِيُ: منهج من الإمعان في تتبع دقائق الصفات الظاهرة على العناصر القصصية، يتحرك حركة أفقية من وراء إلى أمام، ومن أمام إلى وراء، دوائرية.

فعل حين يسلُكُ الراافي المنهج الأول؛ فيطول الجمل، ويقللها، ويقتلها، ويشغلها بخليل الأشخاص والأحداث - يسلُكُ شاكر المنهج الأخير؛ فيقصر الجمل، ويختفها، ويكثرها، ويشغلها بتحريك الأشخاص والأحداث.

## توصيل الفصول

[١٢] إذا تأملنا مفاصل الفصول، حيث يحيط كل من الكاتبين أطرافها، فيضم أول اللاحق إلى آخر السابق، وجدنا ما يلي:

- ١ جملة أول فصل الراافي الثاني معطوفة على جملة أول نصه، كرر فيها اسم فاعلها بعد ما طال ما بين الموضعين من كلام الكاتب الطارئ بينها:  
«جَلَسَ أَبُو عَلِيٍّ (... ) وَتَكَلَّمَ أَبُو عَلِيٍّ (... )». وجملة أول فصل شاكر الثاني معطوفة على جملة آخر فصله الأول:  
«سَأَلْتَنِي (... ) قُلْتُ (... )».

فعل حين عبر شاكر عن ثورة عمر بترتيب جملة قوله على جملة سؤاله من دون أن يتبع للفاء بينها مكاناً؛ إذ ليس أقدر على تحريك الأحداث من حذف العاطف، وليس أكثر حذفاً بين الجمل من فاء العطف بين جمل الأقوال<sup>٣٣</sup> - عبر الراافي عن هدوء راويته أبي علي بعطف جملة تكلمه على جملة جلوسه بالواو دون ترتيب وكأن تكلمه كصمه، تمهدًا للمعنى الذي سيتحقق به في الفصل الرابع، فائلاً:

«عَلَامَةُ الرَّجُلِ مِنْ هُوَ لَا أَنْ يَعْمَلُ وُجُودُهُ فِيمَنْ حَوْلَهُ أَكْثَرُ مَا يَعْمَلُ هُوَ يَنْفِسُهُ».

- ٢ وجملة أول فصل الراافي الثالث اسمية اعتراضية مقتنة بواو:  
«وَالْبَلَدُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ (... ) هُوَ فِي الْجَهَنَّمِ كَالْبَلَدُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ (... )». وجملة أول فصل شاكر الثالث فعلية ماضوية معطوفة على جملة أول فصله الثاني:  
«قُلْتُ (... ) قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (... )».

فعل حين يستمر تعبير شاكر عن ثورة الأحداث، باستقال فاء الترتيب والتعليق نفسها، يعرض الراافي بكلامه كلام راويته أبي علي، إمعاناً في غلغطه فيه، توسيعاً في التحليل.

- ٣ وجملة أول فصل الراافي الرابع فعلية ماضوية زائدة:  
«قَالَ أَبُو عَلِيٍّ (... )».

وجملة أول فصل شاكر الرابع اسمية منسوبة بـ((كاد)): «فَإِذَا كَذَنَا نَقُومُ (... )».

فعل حين يستعمل الراافي زيادة رواة المجالس القديمة التي يصلون بها كلام المتحدث بعضه ببعضه على رغم الاستطراد، وكأن كلامه من كلام أبي علي، يرتب شاكر أول الفصل على آخر سابقه ترتيباً سريعاً، ولا يملك أن يحذف العاطف لعدم الدلالة عليه، كما كان يحذفه لدلالة كثرة الاستعمال عليه؛ فليست الجملتان المتعاطفتان هنا قوليتين، كما كانتا هناك.

٤ وجلة أول فصل الرافعي الخامس هي الفعلية الماضوية زائدة نفسها:  
«قال أبو علي (...).».

وجلة أول فصل شاكر الخامس فعلية ماضوية:  
«وما أثينا (...).».

فعل حين يستعمل الرافعي زيادة رواة المجالس القديمة نفسها، ولكن في أصل موضعها؛ إذ يصل كلام أبي علي بعضه ببعضه على رغم استطراده - يرتب شاكر أول الفصل على آخر سابقه من دون الفاء ولا «ثم»؛ إذ هو مطعن إلى فهم معنى الترتيب من منطق الأحداث، ثم هو يشاً أن يحدد زمان ما بين عُشية البطل وفاته، وإن أوحى بالتركيب إلى أن حوار ما بين أبي الحكم وأمير المؤمنين، قد أُمِرَّ الوقت من دون أن يَكُنْ له تَحْدِيدًا.

٥ وجلة أول فصل الرافعي السادس اسمية متسوقة بـ«(كان)»:  
«كان أحَدُ بْنُ طَلْوَنَ مِنْ جَارِيَةٍ تُرْكِيَّةً.».

ابتدائية في أول تفصيل المفعول جلة آخر الفصل الخامس، المُجْمَلِ:  
«قال: تعال، أَحَدُكَ الْمُحْدِثُ: كان أحَدُ (...).».

وجلة أول فصل شاكر السادس فعلية مضارعية:  
«فَيَلْتَقِيُ الرَّجُلُ إِلَى عُزُورَةٍ.».

معطوفة على جلة آخر الفصل الخامس:  
«فيقول له (...). فيلتفت (...).».

فعل حين يُقصُّ الرافعي المفعول به، ويطول الجملة تطويلاً تخليلياً، يؤرخ به تطور خصيم البطل النفي - يقصر شاكر الجملة، وغير الأشخاص، ويجرب الأحداث.

٦ وجلة أول فصل الرافعي السابع، فعلية ماضوية زائدة بين أجزاء اعتراف كبير، بعضه في آخر الفصل السادس، وببعضه في أول الفصل السابع:

«فَأَمَرَ (...). - (...). قال (...). - فَجَبَ (...).».

وجلة أول فصل شاكر السابع فعلية ماضوية معطوفة بالفاء على جلة آخر فصله السادس الفعلية الماضوية:  
«قلْتُ: (...). ثُمَّ مَضَيْتُ (...).».

فعل حين يتغلغل الرافعي الفصل الأخير في الذي قبله، يجره شاكر حركة جديدة واضحة، ويمدد ترتيبه.

لاريب في أن غلَقَةَ الفصل في الفصل تؤسِيًّا لإطارِ السابق ليشملَ اللاحق - أَنْرُ واضح من آثار انتهاج الرافعي منهجه الاستبطان المثالي الصوفي. ثم لا ريب في أن تَحْدِيدَ

حدود الفصول وإسراج الأحداث، أثر واضح كذلك من آثار انتهاج شاكر منهج الاستبطان الواقعي الفني.

### رِبْطُ الْأَقْوَالِ

[١٣] إذا تَبَعَّنَا عند الرافعي أواخر جمل ما قبل أفعال القول وأوائل جمل ما بعدها، وجدنا هذه العبارات:

- ١ « جاءَه كِتَابٌ (...) قَالَ فَجَعَلْتُ (...). »  
التي عَطَّفَتْ فيها جملة « جَعَلْتُ (...) » بالفاء، على جملة « جاءَه (...) »، وكلتاها من كلام أبي علي الراوي الكبير.
  - ٢ « هُوَ الَّذِي كَانَ (...) قَالَ أَبُو عَلَيْ: وَقَدِمْتُ (...). »  
التي عَطَّفَتْ فيها جملة « قَدِمْتُ (...) » بالواو، على جملة « هُوَ الَّذِي كَانَ (...) »، وكلتاها من كلام أبي علي الراوي الكبير.
  - ٣ « لَمَّا لَقِيَهُ لَقِيَتْ رَجُلًا (...) قَالَ أَبُو عَلَيْ: وَهَمَنْتُ (...). »  
التي عَطَّفَتْ فيها جملة « هَمَنْتُ (...) » بالواو، على جملة « لَمَّا لَقِيَهُ لَقِيَتْ رَجُلًا (...) »، وكلتاها من كلام أبي علي الراوي الكبير.
  - ٤ « قَالَ لَوْ (...) قَالَ أَبُو عَلَيْ: وَالْمُعْجِزَاتُ (...). »  
التي استأنفَتْ فيها جملة « الْمُعْجِزَاتُ (...) » بالواو، عن جملة « قَالَ لَوْ (...) »، وأولاًها من كلام البطل، والأخيرة من كلام أبي علي الراوي الكبير.
  - ٥ « لَمَّا بَلَغَ هُؤُلَاءِ كَانَتْ نِيَّتُهُ (...) قَالَ وَكَانَ عَقْلُهُ (...). »  
التي عَطَّفَتْ فيها جملة « كَانَ عَقْلُهُ (...) » بالواو، على جملة « (...) كَانَتْ نِيَّتُهُ (...) »، وكلتاها من كلام الدينوري الراوي الصغير.
  - ٦ « أَمْرٌ (...) - قَالَ وَكَنْتُ (...) - فَجَيَّءَ (...). »  
التي عَطَّفَتْ فيها جملة « فَجَيَّءَ (...) » بالفاء، على جملة « أَمْرٌ (...) »، واعتراض ينتها بجملة « (كَنْتُ ...) المترنة بالواو، وكلتاها من كلام الدينوري الراوي الصغير.
  - ٧ « لَوْ أَنَّ خَطْرَةً (...) قَالَ وَانْصَرَفَنَا (...). »  
التي عَطَّفَتْ فيها جملة « (انْصَرَفَنَا ...) » بالواو، على جملة « لَوْ أَنَّ خَطْرَةً (...) »، وكلتاها من كلام الدينوري الراوي الصغير.
- وإذا تأملنا أشباهها عند شاكر كذلك، وجدنا هذه العبارات:
- ١ « قَالَ عُمَرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ: (...) قَبَدَرْتُ (...). »

التي عَطَّفَ فيها جُلَّةً «بَادَرْتُ (... )»، على جملة معنوية، وكلتاها من كلام عمر نفسه الراوي الوحيد.

٢ «قَالَ بَلْ (... ) قَالَ (... ) فَهُوَ (... )».

التي استأنف فيها جملة «هُوَ (... )» بالفاء، عن جملة (بَلْ) الباقية منها أداة الجواب، وأولاً هما من كلام سيدنا أبي بكر - رضي الله عنه - والأخيرة من كلام رسول الله، صل الله عليه، وسلم!

٣ «قَالَ عُزْرَوَةُ (... ) إِنَا (... ) قَالَ أَبُو الْحَكَمِ: فَتَشْتَقِيكَ (... )».

التي استأنفَ فيها جملة «تَشْتَقِيكَ (... )» بالفاء، عن جملة «إِنَا»، ومصدرها واضحان.

٤ «قَالَ عُزْرَوَةُ (... ) قَالَ عُمَرُ بْنُ أَبِي زَيْدَةَ: وَأَلَاخَ (... )».

التي عطفَ فيها جملة «أَلَاخَ (... )» بالواو، على جملة، قال عُزْرَوَةُ (... )، وكلتاها من كلام عمر نفسه الراوي الوحيد.

٥ «قَالَ لَهَا: أَقْيَ اللَّهَ وَاضْبِرِي افْتَأْلَثْ: وَمَا تُبَالِي (... )».

التي استأنفَ فيها جملة «مَا تُبَالِي (... )» بالواو، عن جملة «اضْبِرِي»، وأولاً هما من كلام رسول الله - صل الله عليه، وسلم! - والأخيرة من كلام المرأة الباكية. إن الاستئناف عن الجملة مثل العطف عليها، وجه من ربط آخرتها بالأولى في نسج النص الواحد، مهما يكن اختلاف المجاورة التي في الاستئناف والمداخلة التي في العطف<sup>٣٠</sup>.

ثم إن من طبيعة الحوار الحي، أن تتوالى الجمل فيه بما يلائمه من وجوه الربط وأدواته المختلفة (العطف وأدواته، والاستئناف وأدواته،... )، وسواء أتوالت تلك الجمل من طرف واحد من أطراف الحوار، أم من أكثر من طرف؛ فمن ثم كان جزْصُ الكاتبين على تلك الأدوات، وَجْهًا منْ تَفْعِيل روح الحياة الطبيعية في نصيهما، على حين يتناصاهما كثير من كتاب اللغة العربية إذا أقبلوا يسجلون ذلك الحوار الحي، وكان كل طرف من أطرافه يُكَلِّمُ نفسه!

ثم إن لمتهج كل من الكاتبين في نسج نصه، لأنَّه؛ فعلٌ حين وقع العطف على ما تَقدَّمَ، والاستئناف عنه، في كلام طرف رافعيٍ واحد في أكثر العبارات السابقة، لاشتغال الرافعي بتحليل الأشخاص والأحداث كما سبق - وقع العطف على ما تَقدَّمَ، والاستئناف عنه في كلام أكثر من طرف شاكريٍ في أكثر العبارات السابقة، لاشتغال شاكر بتحريك الأشخاص والأحداث، كما سبق.

## عَطْفُ الْمُشَاهِدَاتِ

[١٤] إذا تَبَعَّنَا عند الراغبي تراكيب العطف، وجدنا هذه العبارات:

١ «خالطهُ، وَصَحْبُهُ».

٢ «فَارِبَاهَا، أَوْ لَامَسَهَا».

٣ «أَتَصَلِّهَا، أَوْ صَاحَبَهَا».

٤ «فَتَلَهُمْ صَبَرَا، أَوْ مَا تَوَافَّا فِي سِجْنِهِ».

التي عطف فيها جملًا فعلية مضاربة بالواو و(أو)، على مثلها.

٥ «يَخْرُقُ الْعَادَةَ، وَيَخْرُجُ عَنِ النَّسْقِ».

٦ «يَجْهُورُ، وَيَغْسِفُ».

٧ «يَزَّمْجِرُ، وَيَزَّأْرُ».

٨ «لَا يَنْتَظِرُ إِلَى الْأَسْدِ، وَلَا يَخْفِلُ بِهِ».

التي عطف فيها جملًا فعلية مضاربة بالواو، على مثلها.

٩ «يَعْبَادُهُ، وَرَزْهِيدُهُ».

١٠ «فِي شَهَوَاتِ الْحَيَاةِ، وَأَبَاطِيلِهَا».

١١ «مَصَالِحُهُ، وَمَنَافِعُهُ».

١٢ «صِحَّةُ وُجُودِهَا، وَكَمَالُ مَنْفَعِهَا».

التي عطف فيها مركبات إضافية بالواو، على مثلها.

١٣ «الرُّهَادُ، وَأَهْلُ الْوَرَعِ».

١٤ «غَيْضَةُ، أَوْ بَطْنُ وَادٍ».

الذين عطف فيها مركبين إضافيين بالواو و(أو)، على مفردتين.

١٥ «كَالشَّمْعَةِ وَالشَّمْعَةِ».

١٦ «رُعْدَةُ، وَتَوَرُّعًا».

١٧ «الْفَرْعُ، وَالرُّغْبُ، وَالإِشْفَاقِ».

١٨ «أَقْرَبُ، وَأَيْسَرُ».

١٩ «الْفَوَامُ، وَالدُّرُّ».

التي عطف فيها المفردات بالواو، على أمثلها، حتى عطف المفرد على نفسه

في ظاهر عبارته الأولى!

\* وإذا تَبَعَّنَاها كذلك عند شاكر، وجدنا هذه العبارات:

١ «أَكَلَتْ مِنِّي الشُّنُّ وَتَعَرَّقْتَنِي أَلَيْبُ الْكِبِيرِ».

- ٢ «بَرِيقٌ وَجْهُهُ وَتَوَفَّدُ».      ٣ «مَا تَضَوَّرُ وَجْهُهُ وَلَا تَقْبَضُ».      ٤ «فَارَ الدَّمُ مِنْهَا وَقَبَرُ».      ٥ «الْحَمْلُ النَّاسُ حَوَالَنَا وَتَكَفَّنُونَا».      ٦ «قَدْ اخْتَصَّهُ أَجْلُهُ فَجَذَبَهُ فَهُوَ بِهِ».      ٧ «وَقَانِي أَذَاهَا فَاخْتَمَّ عَنِ الْمَهَا».      ٨ «قَدْ تَجِدَ فَتَسْبَحَ وَجْهُهُ بِالْعَرْقِ».
- التي عطف فيها جملًا فعلية ماضوية بالواو والفاء، على مثلها.
- ٩ «تَعْبُتُ وَتَأْلَمُوا».      ١٠ «بُوَاسِنَةٍ وَبُصَبِّرُونَهُ».      ١١ «بِيَبْتَهُ وَبِسَكْنَتِهِ وَيَنْقُضُهُ الْجَرْعُ».
- التي عطف فيها جملًا فعلية مضارعية بالواو، على مثلها.
- ١٢ «لَا يَنْقُضُ الْقَطْعُ وَلَا الْبَنُ».      ١٣ «لَا تَكُونُ عَلَيْهِ نَائِحَةً وَلَا مُغْوَلَةً».
- اللتين عطف فيها مفردات بالواو، على مثلهما.

لن يستغني الصراع القصصي عن عطف الأحداث والأعيان والصفات، كل منها بعضه على بعض، على وجوه العطف المختلفة. ولقد جرى شاكر مجرى الرافعى، في عطف مشابهات الأحداث والأعيان والصفات، التي لا يعلم قرئ ما ينتها كثير من المتألقين، تتبئها على الفروق اللغوية التفكيرية، تحقيقاً للثقافة العربية الإسلامية في نفسها، ثم تُميِّزاً لها من غيرها من الثقافات.

ويزيد عطف المشابهات سطوعاً، مُوازِنَتُها أي أن تتفق أوزان المشابهات - إن كانت مفردات - أو عناصرها - إن كانت مركبات - وسواء أكانت مسجومة أم لا؛ فمن ثم كانت الموازنة ظاهرة بديعية أخص من السجع<sup>(٣)</sup>، مثلما في عبارات الرافعى السابقات (٢، ١١، ١٨)، وفي مثل عبارات شاكر السابقتين (١١، ١٢)<sup>(٤)</sup> - فإن المشابهات إذا توالت أغرت المتلقى بالإسراع إلى الحكم عليها بالاتحاد (أن المتعاطفين شيء واحد)، حتى إذا ما تأملها فاجأته باختلافها؛ فكانت أشد تأثيراً فيه.

ولقد احتفى بذلك الرافعى أكثر من شاكر، حتى استعمله في خمسة أنواع من التراكيب، وَضَمَّنَها بما سبق من تَميِّز وَتَعلِيق، ولم يستعمله شاكر إلا في ثلاثة فقط. ثم على حين اجتمع الرافعى وشاكر على استعمال الواو، افترقا في (أو) والفاء؛ فاستعمل الرافعى (أو)، واستعمل شاكر الفاء، وجرى كل منها على ما يلائم منهجه؛ فاستفاد

الرافعي مما في «أو» من إبهام في تخليل تلك المتشابهات، واستفاد شاكر مما في الفاء من ترتيب وتعقيب<sup>(١)</sup>، في تغريب تلك المتشابهات على حالها، فاما إيهامها فيزيدها تشابهاً، وأما اسراع خريكتها فلا يتبع للمتلقى أن يتأملها!  
من ذلك مثلاً عبارة الرافعي الرابعة؛ فلقد أراد أن يخلل طبيعة البطش في أحد بن طرولون؛ فاستفاد من الفرق اللطيف بين قتله خصوصه صبرا (قضده سجنهم حتى يملكون)، وموت خصوصه في سجنه (إهماله لهم فيه حتى يملكون)، ومن عطف جملتها بدـ(أو) الإيهامية - عبارة شاكر السادسة؛ فلقد أراد أن يصور حرص الموت على الشاب النبيل؛ فاستفاد من الفرق اللطيف بين اختلاف الشيء (أخذه سريعاً)، وجذبه (مده)، والموي به (إسقاطه)، ومن عطف جملها بالفاء الترتبية التعقيبة.

وبالرغم من كلامي السابق، فالحقيقة أن المقصود هنا هو حذف الكلمة من المتن، لأن الكلمة التي يراد إثباتها في المتن هي الكلمة التي يراد حذفها، وهي الكلمة التي يراد إثباتها في المتن.

تَرْكِيبُ الْمُفَاجَأَةِ

[١٥] إذا تَبَيَّنَا عند الرافع ((إذا)) الفجائية، عشرنا على هاتين العبارتين:

- ١ ((فإذا هي الوثيقة الصائعة)).  
 ٢ ((فإذا هو ساهم مفكّر)).

اللذين اقتربت فيهم ((إذا)) بالفاء، ودخلت على جملة اسمية مبتدأها ضمير غيبة.

- ١  
إذا تبنتناها كذلك عند شاكر، وجدنا هذه العبارات:  
«إذا هو ساين ساج».

التي اقترنت فيها ((اذا)) بالـ او، ودخلت على جملة اسمية مبتدئها ضمير غيبة.

- ٢ «وَإِذَا طَائِرٌ يَحُومُ».

التي افترنت فيها ((إذا)) بالـ او، ودخلت علـ جملة اسمية مبتدأ هـ انـ كـ ةـ.

- <sup>٣</sup> ((ولَا زَيْنُ الْمُوَكَّلُ لِحَتَّىٰ سَنَاكِهَا)).

<sup>٤</sup> «إذا فتح سلطان».

- ٥ «إذا عُذْتُ فَكَانَ لِنَّ

لـ «إذا هنـة قـد هـنة عـانـه»

- الآن، أتفهم ماذا قالوا، دخوا

- «فِيَادَا وَجْهُهُ اَنَّاسٍ فَدَ جَنْسُوا إِلَى عَرْوَةِ».

٨ «وَإِذَا وَجَهَهُ قَدْ صَفَرَ مِنَ الدُّمِ». اللتين اقترنـتـ فـيهـا «إـذا» بالـواـو، ودخلـتـ عـلـى جـلـةـ اسمـيـةـ مـبـدـؤـها مـضـافـ إـلـى مـعـرـفـةـ.

إن المفاجأة أسلوب مهم من أساليب تنمية صراع الأشخاص الذي لا تستغنى عنه قصة، غير بعيد من أسلوب التعقب السابق ذكره؛ ومن ثم مال إليه شاكر المولع بتحريك الأشخاص والأحداث، أكثر من الرافعي المولع بتحليلهما، حتى استعملـهـ في أربـعةـ أنـواعـ من التراكـيبـ وـضـختـهاـ بـاـسـقـ منـ تـميـزـ وـتـعلـيقـ، وـلـمـ يـسـتـعـملـهـ الـرافـعـيـ إـلـاـ فيـ نـوعـ وـاحـدـ فقطـ.

وأعجب ما في العبارات السابقة، اقتران «إذا» بالفاء في عبارـيـ الـرافـعـيـ كـلـتـيهـاـ عـلـىـ قـلـتـهـاـ، وـاقـرـانـهـاـ بـالـواـوـ فيـ عـبـارـاتـ شـاـكـرـ الشـاهـانـ كـلـهـاـ!ـ وـلـكـنـ إـذـ تـأـمـلـناـ سـيـاقـ كـلـ عـبـارـةـ، وـجـدـنـاـ الـواـوـ هـيـ الـمـسـتـعـمـلـةـ فـيـ قـبـلـ عـبـارـيـ الـرافـعـيـ كـلـتـيهـاـ، وـالـفـاءـ هـيـ الـمـسـتـعـمـلـةـ فـيـ قـبـلـ عـبـارـاتـ شـاـكـرـ الـأـرـبـيعـ (٣، ٥، ٦، ٧)، وـقـبـلـ الـجـمـلـتـينـ الـمـقـرـنـتـينـ بـ(إـذا)ـ الـفـجـائـيـةـ نـفـسـهـاـ، اللـتـيـنـ قـبـلـ عـبـارـتـيـهـ (٤، ٨)؛ـ فـمـنـ ثـمـ يـكـوـنـ كـلـ مـنـ الـكـاتـبـيـنـ قـدـ جـهـزـ الـتـرـكـيـبـ مـنـ قـبـلـ جـمـيـ «(إـذا)»؛ـ حـتـىـ تـطـمـنـ فـيـ مـكـانـهـاـ، إـحـسـاـسـاـ خـاصـاـ وـاحـدـاـ، اجـتـمـعـ عـلـيـهـ الـأـسـتـاذـ وـالـتـلـيمـيـدـ.

### الإـجـمـالـ ثـمـ التـقـصـيلـ

[١٦] إذا تبعـناـ عـنـدـ الـرافـعـيـ، أـطـرـافـ الـجـمـلـ الـمـتـوـالـيـةـ، وـجـدـنـاـ هـذـهـ عـبـارـاتـ:

- ١ «كـانـ يـؤـمـهـ كـالـبـرـهـانـ (...):ـ ماـ يـقـيـ أـحـدـ إـلـاـ (...).».
  - ٢ «جـعـلـتـ أـفـكـرـ فـيـ طـفـلـ النـفـسـ:ـ مـاـ هـوـ».
  - ٣ «لـهـ مـعـنـيـ أـبـوـةـ الـأـبـ فـيـ أـبـنـائـهـ:ـ لـاـ يـرـأـهـ مـنـ يـرـأـهـ مـنـهـ (...).».
  - ٤ «تـعـالـ أـحـدـثـكـ الـخـدـيـثـ:ـ كـانـ أـحـدـ (...).».
  - ٥ «كـنـتـ أـفـكـرـ فـيـ لـعـابـ الـأـسـدـ:ـ أـهـوـ طـاهـرـ أـمـ تـجـسـ (...).».
  - ٦ «كـانـ عـقـلـهـ مـنـ أـثـرـ طـبـيـتـيـ (...):ـ فـلـهـ يـدـ مـعـ الـمـلـاـيـكـ (...).».
  - ٧ «لـمـ يـرـعـنـاـ إـلـاـ ذـهـرـ الـأـسـدـ عـنـ وـخـشـيـتـ:ـ فـأـفـعـىـ عـلـ ذـكـيـهـ (...).».
  - ٨ «يـكـثـيـفـ لـهـ عـنـ قـرـبـ الـقـنـ (...):ـ فـهـوـ لـئـيـسـ بـيـنـ يـدـيـ الـأـسـدـ (...).».
  - ٩ «كـمـ خـرـجـ الشـيـخـ (...):ـ خـرـجـ الـوـحـشـ (...):ـ فـلـيـسـ فـيـ الرـجـلـ (...).».
  - ١٠ «جـعـلـ كـلـ مـنـاـ يـظـلـ (...):ـ فـمـنـ قـائـلـ (...).».
- الـتـيـ قـدـمـ فـيـهـاـ جـلـاـ إـجـالـيـةـ، ثـمـ عـطـفـ عـلـيـهـاـ جـلـاـ تـقـصـيلـيـةـ.

• وإذا تَبَعَّنَاها كذلك عند شاكر، وجدنا هذه العبارات:

- ١ «ما نَرِى - وَالله - مُحَمَّداً: قَدْ اخْتَطَّهُ أَجْلُه (...).»  
التي قدم فيها جملة إيجالية، ثم أبدى منها جملة تفصيلية.
- ٢ «إِنِّي - وَالله - مُحَمَّدُكَ عَنِي يَخْبُرِي (...): فَقَدْ بَثَ (...).»  
التي قدم فيها جملة إيجالية، ثم عطف عليها جملة تفصيلية.

في الإجمال إغراض، ثم في التفصيل لإيضاح، ولكن لا سبيل إلى اكتشاف الإجمال وإغراضه إلا بعد الفراغ من التفصيل وإيضاحه؛ فإن المثلقي لا يستطيع أن يميز ذلك حتى يأتيه هذا، وعندئذ يحتاج إلى أن يعود مرة أخرى إلى الإجمال الذي لم يتبه إلى أنه إجمال، ليحسن فهمه وربطه بتفاصيله بعد أن اتبه إلى أنه تفصيل<sup>١٠٣</sup>!

وإن عطف التفصيل بالفاء على الإجمال<sup>١٠٤</sup>، لأشد ثقلًا على المثلقي من إبداله منه؛ فإنه يَظُنُّ في الجملة المترنة بالفاء كُلُّ ظُنٌّ، حتى يَبَيِّنَ أنها تفصيل ذلك الإجمال، فاما الإبدال فأقرب وجوه التفصيل؛ فمن ثم يظهر وجه ميل الرافعي إلى الإجمال والتفصيل المناسبين لن hegemony أكثر من شاكر، وإن انقسمت العبارتان الواقعتان لشاكر منه، على وجهي الإبدال والعلف، كما انقسمت عبارات أستاذه.

## فضل الحَدَثَانِ

### جِوَامِعُ الدُّرُّوَّتَيْنِ

[١٧] هذا فصل الحدث الذي تأزم به سائر الأحداث، بل الذي من أجله كان كثير منها؛ فهو الحدث الأكبر الحق (الحدثان)، الذي لم يستعظم معه أي من الكاتبين المحققين، أن يجترعا في يريد ما يمهّد له، ويجهّله. مثل ذلك مثل فصل المداواة بالكي إذا تخيّلنا لها فضلًا معيشيًّا، تكون فيه أحداث من التَّهْمِيد والتَّجْلِية، كاستفحال المرض، وظهور ضرورة الكي، والسفر إلى الطيب، ومشول المريض أمامه، وتجهيز المiasم، وإيحانها، وحضور المساعدين، واضطراب الأصحاب في أثناء الكي، ودهان الموضع بعقب الكي، وصعوبة حركة المريض بعقبه - ولكن أهم ما فيه من أحداث هو الكي نفسه، الذي يجتمع فيه على المريض، المَرْضُ والطَّيِّبُ والمِيَاسِمُ والمساعِدونَ

في هذا الفصل يُعرَضُ الرافعيُّ البطل للافتراس فلا يفترسُ، ويعُرَضُ شاكرُ لقطع رجله فتقطع؛ فلم يكن تعريض البطل لقطع رجله من دون أن تقطع، بكافه تعريضه للافتراس وإن لم يفترس؛ فقد تكمل بالأسد المفترس مثالاً الموت، وشَتَانَ التَّعَرُضِ لفقد النَّفْسِ والتَّعَرُضِ لفقدِ الرجل! ثم إن مكانة البطل التاريخية التي حلّت كلا الكاتبين على

الكتابة عنه والتَّوْسِلُ به إلى تَقْفِيْفِ الْمُتَلَقِّينَ، موكولة في كثير من شأنها، إلى بقائه على رغم الحدَّاثَانِ مِثَالًا حَيَا يُكَبِّرُهُ النَّاسُ وَيُؤْرِبُونَ إِلَى أَقْوَاهُ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ.

#### تفقيف الفقر

[١٨] كَيْ أَفْرَدَ الْكَاتِبَانِ عَدْدَ فَصُولِ النَّصِينِ (سَبْعَةَ فَصُولٍ)، وَاجْتَمَعَا عَلَيْهِ، أَفْرَدَا عَدْدَ فَقْرٍ فَصِيلِ الْمُحَدَّثَانِ (خَيْرٌ فَقْرٌ)، وَاجْتَمَعاً عَلَيْهِ، جَزْصَا عَلَى مِنْهِجِ التَّذْوِيرِ نَفْسَهُ، الْجَدِيرُ بِشَدَّةِ التَّأْثِيرِ؛ فَمِنْهَا تَشَبَّهُتْ مَعَانِي فَكْرَةِ الْفَضْلِ، وَتَفَقَّرَتْ بِهَا الْفَقْرُ، تَلَاقَتْ فِي فَقْرَةِ تَغْلِيقِ دَائِرَتِهَا وَتَحْكِيمِ رِسَالَتِهَا.

وَلَقَدْ كَانَتْ فَقْرَةً («يَقِينُ الْبَطْلِ»)، أَطْلَوْلَ فَقْرَ فَصِيلِ الْمُحَدَّثَانِ عَنِ الْكَاتِبَيْنِ جَيْعاً، هِيَ الْفَقْرَةُ الَّتِي أَغْلَقَا بِهَا لِلْمُتَلَقِّي دَائِرَةَ الْخَصُوصِيَّةِ الَّتِي تَسِيرُ لِلْمُتَقْفِفِ التَّحْقِيقَ بِهَا الثَّقَافَةُ الْعَرَبِيَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ؛ فَبِعِرْفَةِ حَدُودِ الْوُجُودِ وَغَایَتِهِ وَقَدْرَةِ الْمَوْجُودِ وَمَرَادِهِ، يَتَكَوَّنُ مِثْلُ هَذَا الْيَقِينِ الَّذِي يَكْمُلُ لِلْمُتَلَقِّي مَوَاقِفَ أَمْثَالِ هَؤُلَاءِ الْأَبْطَالِ وَإِنْ لَمْ تَبْلُغْ كُمَالَهَا.

#### صفة الطيب كصفة الأسد

[١٩] أَخْرَجَ شَاكِرُ فَقْرَتَهُ الْأَوَّلِ (صفة الطيب)، خَرَجَ فَقْرَةُ الرَّافِعِيِّ الْأَوَّلِ (صفة الأسد)؛ فَكَانَ الطَّيِّبُ لَدِيهِ بِمِنْزَلَةِ الْأَسَدِ لِدِيِ الرَّافِعِيِّ. إِنْ مَقْتَضِيَ الْحَالِ إِذَا لَزَمَ التَّشْيِيْهُ، أَنْ تَكُونَ («الْأَكْلَةُ») هِيَ الَّتِي تُشَبَّهُ بِالْأَسَدِ، لَا الطَّيِّبِ؛ وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ الطَّيِّبُ هُوَ الَّذِي عَرَفَهَا وَذَكَرَهَا وَعَالَجَهَا يَا يَشْبِهُ الْأَفْرَاسَ، نَزَّلَهُ شَاكِرٌ مِنْزَلَةَ الْأَسَدِ. ثُمَّ هَنَا لَطِيفَةُ فَنِيَّةٍ؛ فَلَقَدْ حَرَكَ الرَّافِعِيُّ الْأَسَدَ إِلَى أَعْمَالٍ وَمَسَاعِرٍ لَمْ يُسْتَطِعْ شَاكِرٌ أَنْ يَمْحُرَّكَ إِلَى مِثْلِهَا («الْأَكْلَةُ»)، وَكَانَ عَلَى أَثْرِ أَسْتَاذِهِ عَفَواً أَوْ قَضَداً؛ فَاستَفَادَ مِنْ وُجُودِ الطَّيِّبِ!

وَلَقَدْ تَأْتَى كُلُّ مِنْهَا فِي وَصْفِ مَوْصُوفٍ؛ فَأَكْثَرُ مِنْ صَفَاتِهِ، وَأَلْبِسَ بَعْضَهَا بَعْضَ عَلَى طَرِيقَةِ «عَطْفِ الْمُتَشَابِهَاتِ» السَّابِقَةِ نَفْسَهَا - وَكَلَا النَّعُوتُ وَالْمَعْطُوفَاتُ تَوَابِعَ - ثُمَّ جَعَلُوهَا فِي عَقْبِ خَيْرٍ جَلَّةً اسْمِيَّةً: أَمَا الرَّافِعِيُّ فَتَسَخَّنَهَا بِـ(«كَانَ»)، ثُمَّ أَوْرَدَ الْأَوْصَافَ أَخْبَارًا أُخْرَى، مُعَدَّدَةً مُفَرَّقةً. وَأَمَا شَاكِرُ فَجَرَّهَا مِنِ النَّوَاسِخِ، ثُمَّ أَوْرَدَ الْأَوْصَافَ نَعْوَاتًا لِلْخَبَرِ، مُعَدَّدَةً مُفَرَّقةً:

الراافي	شاكر
«كَانَ الْأَسْدُ الَّذِي اخْتَارَهُ لِلثَّيْمَ أَطْلَقَ مَا عِنْتُمْ»	مُؤْمِنَةٌ
١ جَسِيَا	نَصْرَانِي
٢ ضَارِبَا	طَوْبِلْ
٣ حَارِمُ الْوَحْشَيَّ	فَارِعْ
٤ مُتَرَيِّلُ الْعُقُولِ	شَبُورُ الْعِظَامِ
٥ شَدِيدُ عَصْبِ الْمَلْأَقِ	فَذَلِكَدَّهُ لَكُمْ
٦ قَرَاسَا	أَزْهَرْ
٧ قَرَاسَا	أَزْهَرْ
٨ أَغْرَى التَّدْنِي	أَضْلَلَ الرَّأْسَ إِلَى اقْتِرَابِ يَقْنَا فَذَبَيْرَتْ لَهُ
٩ يَلْرُبُ شَدَّهُ مِنْ سَعْيِهِ وَرُزْعَهُ كَفَّتَحَهُ الْقَبْرِ يَئِبِي أَنْ جَزَاهُ مَقْبَرَةً	كَثُ اللَّهِيَّ
١٠ وَيَنْظَهُرُ وَجْهُهُ خَارِجًا مِنْ لَدْنِهِ يَئِمُّ أَنْ يَنْقُوفَ عَلَى عَنْ تَرَاهُ كَيْلَهُ.	طَرِيلَاهَا
x ١١	لَوْ قَرَسَنَاهَا الرَّبِيعُ لَطَازَتْ بِهِ.

وعلى رغم مُضي أحداث القصتين كلتيهما، وكون قصة شاكر المُتوَقِّف رجالها في أواخر القرن المجري الأول، أوَغَلَ في القدم من قصة الراافي المُتوَقِّف رجالها في أواخر القرن المجري الثالث - آخرَ جنَّا الراافيُّ من إطار نصه منذ دخل إليه، على منهجه في المثالية، وكأنما خشي أن تُدْنِسَهُ، وأحاطنا شاكرُ بإطار نصه منذ دخل إليه، على منهجه في الواقعية، وكأنما خشي ألا تتأثره؛ فلم يكن غريباً ألا ينسخ شاكر جملته بـ«كان»، مثلما نسخها الراافي.

ثم على حين جعل الراافي أوصاف الأسد أخباراً طبيعتها النحوية التجاور لا التداخل، بياناً لوجه من قسوة مختاريه؛ إذ مَيَّرُوا الأسود بعضها من بعض قليلاً قليلاً دون عجلة، بالصفة من صفاتها بعد الصفة، حتى اختاروه بحيث تجتمع فيه الصفات كلها؛ فإذا ما هاجم البطل، كان من صفاتاته في قطبيع أسويدَهُمْ - جعل شاكر أوصاف الطيب نوعتا طبيعتها النحوية التجاور لا التجاور، بياناً لغرابة شأن هذا الطيب الذي قرَبَهُ أمراء المسلمين في ذلك الزمان العزيز، ومكتنوه على رغم نصرانيم، كيف كان أزهـر (نـيرـا) على

رغم شيخوخته، وأصلع على رغم كثافة حياته، حتى إذا ما أقبل، أقبل مزاج غريب؛  
فكأنه عينٌ مُريبة.

### اليقينُ اليقينُ

[٢٠] ولقد جرى شاكر في فقرته الثانية (يقين البطل)، مجرى الرافعي في سميّتها الرابعة (يقين البطل)، فأثبتت في بطله اليقين بكلام الحق - سبحانه، وتعالى! - كما أتبته الرافعي:

فاما الرافعي فقد أنطق الرواوى بقوله في البطل: «كان مندحًا في يقين هذه الآية: {واصبر لِحُكْمِ رَبِّكَ فِإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا}»، الذي يعبر عن فهم الرواوى لحال البطل من اليقين، فهو يتكلم عنه، ولم يستطع أن يُنطِقَ البطل تفسه.

وأما شاكر فقد كان في مقام يتيح له أن يُنطِقَ البطل بما يريد من أفكار التقييف العَرَبِيُّ الأُسْلَامِيُّ؛ فجعله يقول: {رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًّا يَنْادِي لِلْإِجْرَانَ أَنْ آمُّوْرَا بِرَبِّكُمْ لَمَّا رَبَّنَا فَأَفَغَرَّنَا ذُكْرَنَا وَكَفَرَنَا سِيَّانَا وَكَوْنَنَا مَعَ الْأَبْرَارِ • رَبَّنَا وَآتَنَا مَا وَعْدَنَا عَلَى رُسُّلِنَا وَلَا لَخْرِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تَخْلُفُ الْمِعْدَادَ}.

كلتا العبارتين من كلام الحق - سبحانه، وتعالى! - ولكن ثم فرقا بين البطل الشاكري المجتمع الناس حوله وفيهم الطيب النصراني المعلقة به آمال الحاضرين على رغم قسوة عمله، والبطل الرافعي المفرد الصامت، الذي ذهب الناس في تخيل سره المذاهب. إن العبارة القرآنية عند شاكر شعار إسلامي، يتبثث به البطل نفسه والمسلمين، ويدعى غيره من غير المسلمين إلى الإسلام الذي بني في البطل مثل هذا اليقين، وليس أدل من قول شاكر بعد ذلك على لسان عمر بن أبي ربيعة:  
«رَأَيْتُ أَبَا الْحَكَمِ وَقَدْ بَرَقَ وَجْهُهُ وَتَوَقَّدَ كَانَاهُ أَنْلَمَ بَعْدَ كُفَّرِ»!

### مَجْلِسُ الْقَطْعِيِّ كَهْجَمَةُ الْأَسْدِ

[٢١] ثم أخرج شاكر فقرته الثالثة (مجلس القطع)، خرج فقرة الرافعي الثانية (هجمة الأسد)، في وشك ممعنة الحديث، وتألق في وصفها بقوله في الطيب:  
«تَسْرُّرْ دُرْجًا كَانَ فِي يَدِهِ، وَأَخْرَجَ مُنْشَارًا دَقِيقًا طَوِيلًا صَقِيلًا يَضْحَكُ فِيهِ الشَّعَاعَ، وَرَوَّضَعَ الطُّشتَ». كما تألق الرافعي في وصفها بقوله في الأسد:

«أَنْطَلَقَ يُرْجِعُ وَيُرْأَرُ رَبِّرَا تَشَقُّ لَهُ الْمُرَابِرُ، وَيَسْوَهُمْ مَنْ يَسْمَعُهُ أَنَّهُ الرَّاغِدُ وَرَاهُهُ الصَّاعِدَةُ أَثْمَ اجْتَمَعَ الْوَخْشُ فِي نَفْسِهِ، وَاقْشَرَ، ثُمَّ تَمَطَّلَ كَالْمَجْنِقِي يَقْذِفُ الصَّخْرَةِ».  
وكما كانت صفات الأسد والطبيب تتطابق في الفقرتين الأوليين، كانت حركات هجمتها تتطابق هنا؛ فقد جعلها شاكر ثلاث حركات:

١ «نَسَرَ...».

٢ «وَأَخْرَجَ...».

٣ «وَوَضَعَ...».

وجعلها الراافي أربعاً بمنزلة ثلاث:

١ «أَنْطَلَقَ...».

٢ «أَثْمَ اجْتَمَعَ...».

٣ «وَاقْشَرَ...».

٤ «أَثْمَ تَمَطَّلَ...».

ولكن إذا أضفنا الأقشار إلى الاجتماع لأنه من لوازمه - وإن لم يكن الاجتماع من باب المجموع - كانت حركتا الأسد الثانية والثالثة حركة واحدة، وكانت الحركات كلها عند الراافي ثلاثة مثلما هي عند شاكر، ولا سيما أن الجمل الرافعي كلها، متعاطفة بـ(«ثُمَّ»)، إلا الثالثة والثانية المتعاطفين بالواو لتكونا بتلك المنزلة الواحدة السابقة ذكرها. جمل الكاتبين فعلية ماضوية، وعلى حين تعاطفت بـ(«ثُمَّ») عند الراافي، تعاطفت بالواو عند شاكر؛ إذ لا ترتيب في الشاكرة مثل الذي في الرافعي؛ فربما عمل الطبيب بعضها مع بعض أو قبل بعض، فاما الأسد فيجري على ترتيب حركاته فطرة الله التي فطره عليها، من دون أن يغتر منها حرفًا، أو تكون له فيها يداً وقد مكنت الراافي فطرة الأسود الثابتة على حركات واحدة وترتيب واحد منها كانت الأسود ومهمها كان التكرار، من أن يستوعبها ويتألق في وصفها، إلى ذلك الحد الذي لم يتيسر لشاكر!

### عَمَلُ الْقَطْعِ كَذُهُولِ الْأَسَدِ

[٢٢] ثُمَّ أَخْرَجَ شاكر فقرته الرابعة (عمل القطع)، خرج فقرة الراافي الثالثة (ذهول الأسد)، في ذروة معممة الحدثان، حيث يتصاول كفاحاً الخصيم الباطش والبطل المبطوش به. ولكن على حين قدم الراافي الجملة الأولى في البطل:  
«وَرَأَيْنَا عَلَى ذَلِكَ (...). الرَّجُل».  
ثم أخر الجملة الثانية في الخصم:

«وَلَمْ يُرْغَنَا إِلَّا ذُهُولُ الْأَسْدِ عَنْ وَخْشِيَّهُ».

جاءً عَلَى السَّتِ الْبَاقِيَاتِ (٣ - ٨) تَفْصِيلًا لِإِجْمَالِ تِلْكَ الْجَملَةِ الثَّانِيَةِ:  
«أَقْعَى (... ) وَإِرَادَةَ اللَّهِ!»

قَدْمَ شَاكِرِ الْجَملَةِ الْأُولَى فِي الْخَصِيمِ:

«وَضَعَ أَبُو الْحُكْمِ (... ) يَوْمَهُ ذَاكَ».

ثُمَّ الْجَمْلُ الْأَرْبَعُ التَّالِيَاتِ (٢ - ٥) فِي الْبَطْلِ:

«مَا تَقْسُرُ وَجْهُهُ (... ) مِنْ تَهْلِيلِهِ وَتَكْبِيرِهِ».

ثُمَّ الْجَمْلُ الْثَّلَاثُ التَّالِيَاتِ (٦ - ٨) فِي الْخَصِيمِ:

«دَخَلَ رِجَالٌ (... ) حَتَّى حَسَمَ الدَّمَ».

ثُمَّ أَخْرَى الْجَمْلَتَيْنِ الْبَاقِيَتَيْنِ (٩ - ١٠)، فِي الْبَطْلِ:

«إِذَا عُرْوَةُ (... ) تَحْتَ النَّدَى».

إِنَّهُ لَمَّا أَخْرَى الرَّافِعِي فِقْرَةُ (يَقِينِ الْبَطْلِ) عَنْ فَقْرَةِ (ذُهُولِ الْأَسْدِ)، اضْطُرَّ إِلَى تَقْدِيمِ جَلَةٍ أُولَى مِنْ جَلَةِ (ذُهُولِ الْأَسْدِ) فِي بَطْلِهِ، وَلَوْلَا هَذَا مَا ذُكِرَ بَطْلَهُ؛ فَقَدْ أَلْقَى الْمُصَاوِلَةُ الْمُتَظَرَّةُ بَيْنَ الْأَسْدِ وَبَيْتِهِ، وَجَعَلَهَا بَيْنَ إِرَادَةِ ابْنِ طَولُونَ وَإِرَادَةِ الْحَقِّ - سُبْحَانَهُ، وَتَعَالَى! - عَلَى رُغْمِ امْتِنَاعِ الْكَفَاءَةِ، دَلَالَةُ عَلَى جَهَلِ ابْنِ طَولُونَ؛ فَعُنِّمَ ثُمَّ لَمْ نَجِدْ فِي فِقْرَتِهِ مَا وَجَدْنَاهُ فِي فِقْرَةِ شَاكِرِ بَيْنِ جَلَةِ الْخَصِيمِ الْبَاطِشِ (أَبِي الْحُكْمِ وَمَنْشَارِهِ وَرِجَالِهِ) وَجَلَةِ الْبَطْلِ (عُرْوَةِ)، مِنْ تَدَاخُلٍ.

لَقَدْ كَانَتْ ذُرْوَةُ الْمُعْمَةِ عِنْدَ الرَّافِعِيِّ، مِنْ عَمَلِ الْأَسْدِ وَحْدَهُ، دَلَالَةُ عَلَى انْقِطَاعِ مَا بَيْتَهُ وَبَيْنَ الْبَطْلِ، فَأَمَّا عِنْدَ شَاكِرِ فَلَقَدْ كَانَتْ ذُرْوَةُ الْمُعْمَةِ فِي تَوَالِي أَعْمَالِ الْقُطْعِ مِنَ الْطَّيِّبِ وَمَسَاعِدِهِ، وَتَوَالِي أَعْمَالِ الصَّبْرِ مِنْ عُرْوَةِ.

### دَهْشَةُ الطَّيِّبِ كَدَهْشَةِ الشُّهُودِ

[٢٣] ثُمَّ أَخْرَجَ شَاكِرَ فِقْرَتَهُ الْخَامِسَةَ (دَهْشَةُ الطَّيِّبِ)، خَرَجَ فِقْرَةُ الرَّافِعِيِّ الْخَامِسَةَ (دَهْشَةُ الشُّهُودِ)، بِحِيثُ تَكُونُ بِمَنْزِلَةِ الْهَالَةِ تَعْبِطُ بِالْبَطْلِ مِنْ كُلِّ جَهَةٍ، وَتَبَهَّرُ مِنْ حَوْلِهِ، وَتَزِيدُ مِنَ الْأَثْرِ الَّذِي يَرِيدُهُ.

وَلَكِنَّ أَطْرَفَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ الْكَاتِبَانِ، أَنْ يَخْرُجَ الرَّافِعِيُّ الدَّهْشَةَ مِنَ الشُّهُودِ، وَلَا يَتَجَازَهُمْ إِلَى الْخَصِيمِ الَّذِي صَارَ لَآنِ ابْنِ طَولُونَ نَفْسَهُ، إِلَّا بَعْدَ مَا يَدْلِلُ عَلَى أَنَّهُمْ أَكْثَرُهُمْ مِنْ دَهْشَتِهِمْ حَتَّى اضْطُرَّ الْخَصِيمِ إِلَى إِظْهَارِ انْدَهَاشَهُ - عَلَى حِينَ يَخْرُجُ شَاكِرُ الدَّهْشَةِ مِنَ الْخَصِيمِ صَرِيقَةً وَاضْحِيَّةً:

«ما رأيْتَ كَالْيَوْمِ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّهُ رَجُلٌ، وَإِنَّهَا الْحَقِيقَةُ الْمُؤْمِنَةُ، وَإِنَّ إِلَيْهِ لَيَحْوِطُهُ، وَيَبْتَهِ، وَيَسْكُنُهُ، وَيَنْفَضُ عَنْهُ الْجُرْعَ».

ينبغي ألا نغفل عن أن شاكر انش ابتلاءات بطله على أرجاء القصة، فصحبتها دهشات متعددة مختلفة لم يمحقق إلى الزيادة عليها، ولكنه لما وصل إلى آخر فقر فصل الحدثان، تحرى أن يجعل فضل البطل من شهادة خصيمه الذي لا يدين بيده. ثم إن لكون فصل الحدثان آخر فصول قصة الراافي، أثرا في تكتيفه دهشة الشهود، بعبارة من كلام البطل:

«لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ بَأْسٌ، وَإِنَّمَا كُنْتُ أَفْكُرُ فِي لُعَابِ الْأَسَدِ: أَفَّوْ طَاهِرٌ أَمْ تَجْسُّ».

إنها عبارة شديدة السخرية من الخصم، تظل عالقة بأسماع المتلقين، لتملا الدنيا فيها بعد.

عبارة الراافي جلستان اسميتان منسوختان بأداتين فعليتين (مضارعية محولة إلى الماضوية وماضوية صريحة)، ثانية الجملتين الاسميتين فيها أسلوب الإجمال والتفصيل الواضح عند الراافي كما سبق - وعبارة شاكر حس جل: فعلية ماضوية، وفعلية مضارعية موجزة، وثلاث اسميات، خبر ثالثها جملة فعلية مضارعية، معطوف عليها ثلات مثلها، لا يخفى ما بين الأربع كلها من تفصيل وترتيب وتأنيق.

لقد تحرى الراافي في عبارة بطله التي كتف فيها فكرة الفقرة، أن تدل بقصورها على سخرية البطل الشديدة من خصيمه، التي لا تخلو من كمد عليه، فأما شاكر فقد كان في بحبوحة من المشاعر التي يريد أن ينقلها للمتلقي ولا سيما غير المسلم؛ فهو يزيد ويرتب ويتأنق.

### ترتيب الفقر

[٢٤] كما اتفقت بين الكاتبين فقر هذا الفصل، اتفقت مواضعها، حتى لتشتطع أن تميز منها قسمين واضحين:

- ١ فقر التمهيد لمممة الحدثان: كانت عند الراافي اثنين (صفة الأسد، وهجمة الأسد)، وكانت عند شاكر ثلاثة (صفة الطيب، ويقين البطل، ومجلس القطع).
- ٢ فقر مممة الحدثان: كانت عند الراافي ثلاثة (دهول الأسد، ويقين البطل، ودهشة الشهود)، وكانت عند شاكر اثنين (عمل القطع، ودهشة الشهود).  
لا يخفى أنه لو لاموضع فقرة (يقين البطل)، لتطابقت الفقرة في مواضعها كما تطابقت في أنفسها.

ولا ريب في أن شرح ذلك اليقين بعد سطوع أثره على ما فعل الراافي، أقوى وضوها وأنفع أثرا، مثلما يعلم الرجل العمل الصالح، ثم يدل الناس فيما بعد على إيهانه الذي

حفظه إليه؛ عسى أن يأتوا به، على مثل ما قص الحق - سبحانه، وتعالى! - من خبر سيدنا يوسف - عليه السلام! - وصاحبِي السجن؛ إذ لم يدعهما إلى دينه إلا بعدما وُفق إلى تأويل رُؤُسِيهَا.

ولكن أين خصمِي البطل عند شاكر (الطبيب النصراني)، من خصمِي عند الرافعي (الحيوان الأعجم)!

لقد هجمَ الحيوان الأعجم على البطل لا يلوّي على شيء، ولا يباري ولا يباري، فاما الطبيب النصراني فدعا البطل إلى الحنر مرة وإلى المُرقد ثانية وإلى المُنسكين ثالثة؛ فاحتاج الكاتب إلى أن ينادر إلى تبيان يقينِ البطل؛ ففي أعمال اليقين المتواترة، علاج أعمال الخصومة متواترة.

## خاتمة

[٢٥] إن حياة ثقافتنا العربية الإسلامية، مستديرة مثل حيوانات غيرها من الثقافات الكبيرة، تتوالى فيها من قديم إلى حديث، أحواش الوصال والهجران، والاستيعاب والجهل، والقوة والضعف.

وإن مصطفى صادق الرافعي وتلميذه محمود محمد شاكر، مدرسة واحدة من استيعاب الثقافة العربية الإسلامية والإيمان بها والحرص عليها، ثم التأسي إلى تعليمها والإغراء براجعتها - استحدثت أساليب أدبية متعددة مختلفة، أثرت في المتلقين تأثيراً شديداً.

ولأن في جلال الغاية التي ألمها الكتابان، وفي صدق معنى المدرسة الثقافية الواحدة بينهما، وفي نجاح أحد أساليبيها - ما يستغرق تأمل النحو، حتى يوازن بينهما موازنة نصية نحوية؛ فি�شرح من معالم الغاية والمدرسة والأسلوب، ما يتقدم بدراسته النحوية في سبيل وعي علمي جديد.

ولقد تأملت نصوص الرافعي وشاكر من ذلك الأسلوب الناجح، طويلاً، حتى عثرت لأحد نصوص شاكر القليلة على نص يلامنه مقداراً ورسالة، من نصوص الرافعي الكثيرة. ثم تأملت هذين النصين طويلاً، حتى ظهرت لي بينهما الأربع عشرة مسألة، التالية:

جوابيُّ النصيَّنِ، وحضورُ الأَعْلَامِ، وصوتُ الكاتيَّنِ، وتفصيلُ الفُصُولِ، وترتيبُها، ونسجُ النصيَّنِ، وتوصيلُ الفُصُولِ، وربطُ الأقوالِ، وعطفُ المشابهاتِ، وتركيبُ المفاجأةِ، والإيجالُ ثم التفصيلُ، وجوابيُّ الدُّرُّوَيَّنِ، وتفقييرُ الفقرِ، وترتيبُها.

تضفتُ النظرَ في كُلِّ مسأله منها بمحبته، حتى أكملَ ما ذكرته بين الرافعي وشاكر، من معنى المدرسة الثقافية الواحدة (المذهب الثقافي الواحد)، ولكنه دلني كذلك على منهجين تنازعاهما بدقة لوازمهما:

١ الإنسيطانُ المثاليُ الصوفيُ: منهج من الإمعان في تتبع دقائق الصفات الكامنة في العناصر القصصية، يتحرك حركة عمودية من أعلىها إلى أسفلها، ومن أسفلها إلى أعلىها، دَوَالِيك.

٢ الإنسيطانُ الواقعُ الفنِيُ: منهج من الإمعان في تتبع دقائق الصفات الظاهرة على العناصر القصصية، يتحرك حركة أفقية من ورائها إلى أمامها، ومن أمامها إلى ورائها، دَوَالِيك.

انتهِيَّ هذا الأخيَّر شاكِرٌ، بعد ما انتهَيَ ذلك الأوَّل أستاذُهُ، من دون أن يأْتِي اختلاف المنهجين الالَّتين بينهما، على معنى المدرسة الثقافية الواحدة.

## حواشی البحث

- ١ الشكمة: ٥٠.
- ٢ السابق: ٥١، ٥٠. والعجب للدكتور الشكمة الذي عاصر الرافعی وشاکر اکلیهها، وعرف علاقة ما بينهما، يضع كتابه هذا في سنة ١٩٧٠م، التي ملأت الدنيا فيها مقالات شاکر الشهيرة ((اباطيل وأسوار))، ويقول فيه: ((هل يوجد بيننا الآن رافعی آخر؟ وقد بدأت الفرعونية والشعوبية والتطاول على القيم تطل بوجهها الكريه من جديد - لا يتھاون في عقيدته ولا يتھخص في دينه ولا يتکاسل في الدفاع عن حى لفته ولا يغضي أو يتغاضى إذا ما هوجمت علينا وعلى رؤوس الأشهاد - والشأن هذه الأيام أن يعتدى علينا - فيعلنها معركة فكرية مقدسة لإظهار سطحية وضحالة هؤلاء الذين يغمزون العربية وأدایها وهم منها في جهل مطبق وفراغ في كل شيء إلا من نفوس ملأها الحقد وأكلتها الكراهة))!
- ٣ السابق: ٩٦. احتفى شاکر في مقدمته لكتاب ((حياة الرافعی)) للأستاذ محمد سعيد العريان، بأن يَتَّسِّرَ للأستاذ الكبير من تلامذته من يبره في تراثه، كما بر محمد سعيد العريان أستاذ الرافعی؛ فَيَسِّرْ له المُقْدَارُ تلميذه الدكتور عادل سليمان جمال الذي يبره في تراثه، كفاء ما أثني على السنة الحسنة، وشارك فيها!
- ٤ شاکر: ١/٤٠.
- ٥ السابق: ١/١١١.
- ٦ السابق: ١/٢٣٤.
- ٧ السابق: ١/٢٥١.
- ٨ السابق: ١/٢٦٥.
- ٩ السابق: ١/٢٧٢.
- ١٠ السابق: ١/٣٤٧.
- ١١ الرافعی: ١/١٠٣.
- ١٢ السابق: ١/١١٣.
- ١٣ السابق: ١/١٢٤.
- ١٤ السابق: ١/١٣٣.
- ١٥ السابق: ١/١٤٣.
- ١٦ السابق: ١/١٥١.
- ١٧ السابق: ١/٢٢١.
- ١٨ السابق: ١/٢٢٩.
- ١٩ السابق: ١/٢٣٧.
- ٢٠ السابق: ٢/٧٤.
- ٢١ السابق: ٢/٨٢.
- ٢٢ السابق: ٢/٨٩.
- ٢٣ السابق: ٢/٩٦.
- ٢٤ السابق: ٢/١٠٢.
- ٢٥ السابق: ٢/١١٠.
- ٢٦ السابق: ٢/١٣٥.
- ٢٧ السابق: ٢/١٤٣.
- ٢٨ السابق: ٢/١٤٩.
- ٢٩ السابق: ٢/١٥٤.
- ٣٠ السابق: ٢/١٦٦.
- ٣١ السابق: ٣/٤٥.
- ٣٢ السابق: ٣/٥٢.
- ٣٣ السابق: ٣/٤٥ - ٥١.
- ٣٤ هي في النص ((إِنْ شَاءَ اللَّهُ - فَلَا أَصْنَاعَ لِإِسْتِعْبَالِ))، ولا رب - إن شاء الله - في صواب ما أثنيت؛ فلا أصلة لاستعمال

((إذ)) في المستقبل.

٣٥ شاڪ: ١١١-١١٧.

٣٦ في النص زيادات توضيحية كثيرة من عمل الدكتور عادل سليمان جمال، بين أقواس،  
زيادة (((هو الوليد بن عبد الملك))), بعد ((أمير المؤمنين)) هنا، لأنها مكانته في مادة هذه الموازنة.

<sup>٣٧</sup> بين الترجيحتين في النص واؤ، ولا موضع لها بين طرف التوكيد.

٣٨ الكلمة الكتائية كل عنصر كتائي من عناصر تركيب الفقرة الكتائي، محوط من جانبيه بمسافتي بياض، يعده الحاسوب كلمة واحدة، مفرداً لغوريا كان في نفسه أو مركباً، ولا بأس بهذا المنطلقي هنا ما دام **مُعْتمِلاً**، بل، فائدة واضحة.

٣٩ لا يفوتني أن أتبه على أن الكاتبين شاعران تركا الشعر للنشر، ومن علم شاكر أنه كان يعرف مكانته من الشعر، مثلما كان يعرف مكانة الشعر منه؛ فقد كشفت لنا ((جهة مقالاته)), أنه كان يرى بمصر ثلاثة شعراء كباراً يستحقون التقدير، ذكر أسمى اثنين منها ((علي محمود طه، ومحمود حسن إسماعيل)), وكتم ذكر الثالث؛ فعرفت أنه يريد نفسه. وربما كان شاكر أشعر الثلاثة عند بعض الأدباء! ولقد عاش شاكر حياته - ولا سيما في زمان شبابه الصعب - شاعراً عريضاً مسلماً متمسكاً بثقافته، متذمراً إليها انتهاجه بعض الشعراء من منهج الكفر والفسق والعصيان، وكأنه منهج الشعر

٤٠ استقرت أعلام نص الراافي في نصه وفيها أنهم من الثقة العربية الإسلامية جيداً مما  
فكان تصنيفها على النحو المجدول التالي:

المجموع	حالات الإعرابية				معانيها	أعلام الراافي	
	الجر	النصب	الرفع	المعنى		الله	١
(٪٢٥) ١٦	٧	٢	٧	العقيدة			
١٦ (٪٢٥)	١١	٦	١	٤	السلطان	أحمد بن طرلون	٢
	٣	١		٢		خارويه بن أحد	
	١	١				المؤمن	
	١			١		نوح بن أسد	
١٥ (٪٢٤)	٥			٥	الزهد	أحمد بن محمد	٣
	٥	٣	١	١		بنان	
	٢	٢				بكار بن قيبة	
	٢	٢				الجند	
	١	١				يوسف بن الحسن	
١٤ (٪٢٢)	٥	٥			العز	مصر	٤
	٣	٣				بغداد	
	٢	٢				الري والجبال	
	٢	٢				طرسوس	
	١		١			أنطاكيه	
	١	١				بخارى	
(٪٢) ١			١		العلم	أحمد بن عبد الله	٥
(٪٢) ١				١	الذل	طرلون	٦
٦٣	٣٦	٦	٢١		المجموع		

٤١ كذلك فعلت بأعلام نص شاكر؛ فكان تصنيفها على النحو المجدول التالي:

المجموع	حالات الإعرابية				معانيها	أعلام شاكر	
	الجر	النصب	الرفع	المعنى		أعلام شاكر	

		٧٠	٣٦	٤	٣٠		الله	
٨١ (٪٤٢)		٧		٥	٢	العقيدة	رسول الله	١
		٢		٢			أبي بكر	
		١			١		أمهاه بنت أبي بكر	
		١			١		الزبير بن العوام	
	٣٧ (٪١٩)	٣٥	١٠	١٥	١٠		عروة بن الزبير	
٢٦ (٪١٣)	٢			٢		الزهد	أبو صعصعة	٢
		٢٥	٣	١١	١١		أمير المؤمنين	
		١			١		سليمان بن عبد الملك	
	١٦ (٪٨)			٤	١٢		أبو الحكيم	
	١٤ (٪٧)			١٠	٤		عمر بن أبي ربيعة	
١٤ (٪٧)	١٠	١	٢	٧		الفترة	محمد بن عروة	٣
	٣		١	٢			هشام بن عروة	
	١			١			عبد الله بن عبد الله	
١٢ (٪٣)					٣	العدل	عمر بن عبد العزيز	٤
							القاسم بن محمد	
							المدينة	
١٩٣		٥١	٥٦	٨٦			المجموع	

٤٢ الرضي: ١٣١/٢ - ١٣٢، ابن مظفر: علم.

٤٤ يستفاد ذلك من مقدمة الأستاذ محمد سعيد العريان، لـ((وحى القلم)).

٤٥ يستفاد ذلك من تاريخ الدكتور عادل سليمان جمال، للمقالات التي جمعها.

٤٦ ابن مالك: ١١٧.

٤٧ البرجاني: ٢٤٣؛ فقد شرح القانون المتصرّف في وجوه عطف الجمل واستئنافها.

٤٨ العلوبي: ٣٨/٣، وإن لم يستوعب أنواع الموازنة التي أجلتها كلها، ونبه على ذلك.

٤٩ قد أحصيَت من الموازنة للرافعي تسعًا وعشرين عبارة، ولشاكر عشرين، من مثل ما نبهت عليه، وهي لا تتحصر بين المعطوف والمعطوف عليه، بل تكون بين المنعوت والمنعوت، والمتشبه والمتشبه به على وجوه مختلفة من التركيب، وبين الجمل المتجاوِرة غير المتقاطفة.

٥٠ ابن مالك: ٣/٣٥١، ٣٥٧.

٥١ ابن جنني: ٢/٣٧١ - ٣٧٠، وهو عنده من شجاعة العربية.

<sup>٥٢</sup> الملوى: ٤٠٧/٢؛ فقد ذكر ((الإجال والتفصيل)) و((اللف والنشر)), ذكر واحداً، من بعد أن جعل ((اللف والنشر)), هو الصنف السادس من صنوف ((الفصاحة اللغوية)), التي جعلها النسط الأول من البديع - ثم جعل ((الإجال والتفصيل = اللف والنشر)), ((يطلق اتكالاً على قريحة الساعي في رد كُلّ مَيْهٍ إِلَى مَا يَلْبِقُ بِهِ)). وإنما ((اللف والنشر)) على ما شرح العلوي ومثلك، وَجَهَ من ((الإجال والتفصيل)).

<sup>٥٣</sup> ابن مالك: ٣٥١/٣؛ فقد نبه على اختصاص الفاء بعطف المفصل على المجمل.

## كتب البحث

- ابن جني (أبو الفتح عثمان): ((التصانص)), تحقيق محمد علي النجار، وطبعه الهيئة المصرية العامة للكتاب، الثالثة في ١٩٨٧ م.
- ابن مالك (جعفر الدين محمد بن عبد الله الطائي الأندلسي): ((شرح التسهيل)), تحقيق الدكتور عبد الرحمن السيد والدكتور محمد بدوي المخترن، وطبعة دار هجر بالقاهرة، الأولى في ١٤١٠ هـ = ١٩٩٠ م.
- الجرجاني (أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن النحوي): ((دلائل الإعجاز)), قراءة أبي فهر محمود محمد شاكر، وطبعه المدى، ونشرة الخانجي بالقاهرة.
- الرضي (محمد بن الحسن الاسترابادي): ((شرح الكافية في النحو)), نشرة المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار المغ拂ية، دون بيان آخر.
- الراافي (مصطفى صادق): ((وحى القلم)), طبعة دار المعارف بمصر، الثانية.
- شاكر (محمود محمد): ((جهرة مقالاته)), طبعة الخانجي بالقاهرة، الأولى في ٢٠٠٣ م.
- الشكمة (الدكتور مصطفى): ((مصطفى صادق الراافي كاتباً عربياً ومفكراً إسلامياً)), طبعة ١٩٧٨ م الثانية، ونشرة عالم الكتب بيروت ومكتبة الشبي بالقاهرة.
- العلوى (يعسى بن حزنة بن علي): ((كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حفاثق الإعجاز)), طبعة ١٤٠٠ هـ = ١٩٨٠ م، ونشرة دار الكتب العلمية بيروت.

## فهرس الموضوعات

		مقدمة	
٧	.....	الفصل الأول	
٩	رعاية النحو العربي لعروبة أطوار اللغة والتفكير:	ستكيفيش، أفكار ستكيفيش الشانية الخطيرة، المسألة الأولى: اللغة والتفكير، ((اللغة أداء)), الفكر والتفكير والفكير، الفلاسفة وعلاقة اللغة بالفكرة، التقنيون اللغويون وعلاقة اللغة بالتفكير، التقنيون وعلاقة اللغة بالتفكير، قيادونا وعلاقة اللغة بالتفكير، دلالات فكرة ستكيفيش الأولى، المسألة الثانية: الجمود والتطور، بيان التطور العام، بيان تطور اللغة العربية القديم، بيان تطور اللغة العربية الحديث، متزلة اللغة العربية حديثاً من متزلتها قديماً، أثر الإسلام والقرآن اللغوي التفكيري، أثر علوم الأوائل اللغوي التفكيري، أثر الفكر الغربي الحديث اللغوي التفكيري، مراحل الاستفادة من صحيح الفكر الحديث، اطراح الفكر القديم كاطراح الفكر الحديث، المسألة الثالثة: نظام الأطوار، علاقة الكلم (المعانى) المجتمعية أهم منها، علاقة الكلم (المعانى) المجتمعية عمل النحو، ((وجه النحو الفلسفى المجدى)), نقد الدكتور عام حسان لعمل الدكتور عثمان أمين، دلالة عمل الدكتور عثمان أمين، النحو العربي نظام أطوار اللغة والتفكير العربين، ظاهرة تعریب التغيير، تمسك دعاة التطوير بنظام أطوار اللغة والتفكير العربين، المسألة الرابعة: مثال الاتصال، دعوى حداثة طه حسين وقدامة الرافعى، حكم ستكيفيش لمذهب طه حسين على مذهب الرافعى، مادة الموازنة، نص طه حسين، نص الرافعى، الجداول ورسم البيان، الرسالة والأسلوب، الاعتذار عن اعتقاد الإحصاء، نقد جهتي الخطاب المستولي على النصين، بين فعل الأمر الطحسناني والفعل الماضي الرافعى، اختلاف علاقات الكلم والجمل بين النصين، تحليل علاقات أبرز جمل النصين، مثال طه حسين، مثال من الرافعى، طور	

النَّوْزَةُ وَالنَّجَّالَةُ، وَطَوْرُ الْمَذَاقُ وَالْأَنَاءُ، خَاتِمَةُ حَوَاشِيِ الْفَضْلِ  
الْأَكْرَبُ وَكُتُبُهُ.

**الفصل الثاني**  
هللة الشّعر العربي القديم جزء أو ركائـة؟  
مقدمة، هللة الشّعر، الجزالة والركائـة عند القديماـء،  
الجزالة والركائـة عند المحدثين المستويعين، الجزالة والركائـة  
عند المحدثين غير المستويعين، الدّعوى الأولى: أنّ الجزالة  
والركائـة من صفات الكلمة المنقوـدة، الدّعوى الثانية: أنّ  
الجزالة ضدّ السهولة والرقة، الدّعوى الثالثة: أنّ التجزيل  
حُكمُ انتباعيٌّ (ذوقـي)، الدّعوى الرابعة: أنّ الجزالة ضدّ  
المحدثـة، خاتمة، حـاشـم، الفـضـلـانـ، كـتـبـتـ الفـضـلـانـ.

٤٩  
الفضل الثالث  
بين الأعشى وجرير موارنة نصية تحوية:  
مقدمة، شرح الكلام العربي، مقالة أبي عمرو بن العلاء،  
موارنة الكلام بالكلام، شعراء مقالة أبي عمرو، شعر الأعشى  
وجرير، مادة الموارنة، لامية الأعشى، نونية جرير، تفصيل  
القصيدة، فصل رسالة، رسالتنا الشاعرية، مقدارا  
الرسالتين، إحاطة الرسائلتين، ذكر الحصيمتين، اسم رسالة  
الأعشى، تفسيم أجزاء الرسائلتين، أصحاب الأقسام، تتابع  
الأقسام، أزمان الأجزاء، تصدر المتكلمين، تغبير الفضليين،  
الفقر وأبياتها، منازل الفقر، محورا فقرى الأعشى، محورا فقرى  
جرير، ما وراء تركيب المحاور، فصول الثاني، الثاني يتحاول  
العشاق، تفصيل معانى الأعشى وتوصيلها، تفصيل معانى  
جرير وتوصيلها، ما وراء تفصيل الأعشى وتوصيله، تفصيل  
مبانى الأعشى وتوصيلها، ما وراء تفصيل جرير وتوصيله،  
تفصيل مبانى جرير وتوصيلها، اقتصاب مقاييس الفصول، ما  
وراء الأقوال الكاشفة، خاتمة، حواشى الفضل الثالث، كتب

**الفصل الرابع**  
**بيان الرافعى وشاكير موازنة نصبية تخرية:**  
**مقدمة، التأثيـف العـربـى الإـسـلامـى، أـشـدـ الأـسـالـبـ التـقـيـفـيـةـ**  
**تأثـيرـاـ، جـوـامـعـ الـأـسـلـوـبـيـنـ وـقـوـارـفـهـاـ، نـصـوصـ الـأـسـلـوـبـ**  
**الـأـخـرـ، مـادـةـ الـمـواـزـنـةـ، (ـالـأـسـدـ)ـ لـلـرـافـعـىـ، (ـالـحـقـيقـةـ الـمـؤـمـنـةـ)**

لِشَاكِرٍ، جَوَامِعُ النَّصَيْنِ، فُصُولُ الْأَخْدَاثِ، حُضُورُ الْأَغْلَامِ،  
 صَوْنَا الْكَاهِيْتَيْنِ، تَفْصِيلُ الْفُصُولِ، تَرْتِيبُ الْفُصُولِ، نَسْجُ  
 النَّصَيْنِ، تَوْصِيلُ الْفُصُولِ، زِبْطُ الْأَقْوَالِ، عَطْفُ الْمَشَاهِيْتِ،  
 تَرْكِيبُ الْمَفَاجَأَةِ، الإِنْجَالُ ثُمَّ التَّعْصِيمُ، فَضْلُ الْحَدَثَانِ، جَوَامِعُ  
 الدُّرْوَيْتَيْنِ، تَفْقِيرُ الْفَقِيرِ، صِفَةُ الطَّيِّبِ كَصِفَةُ الْأَسَدِ، الْيَقِيْنُ  
 الْيَقِيْنُ، مَحْلِسُ الْقَطْعِ كَهْجَمَةُ الْأَسَدِ، عَمَلُ الْقَطْعِ كَهْمَوْلِ  
 الْأَسَدِ، دَهْشَةُ الطَّيِّبِ كَدَهْشَةُ الشَّهُودِ، تَرْتِيبُ الْفَقِيرِ، خَاتِمَ  
 خَرَاشِيِ الْفَضْلِ الْرَّابِعِ، كُتُبُ الْفَضْلِ الْرَّابِعِ.



دفع أ. علاء الدين شوقي أسكنه الله الفردوس